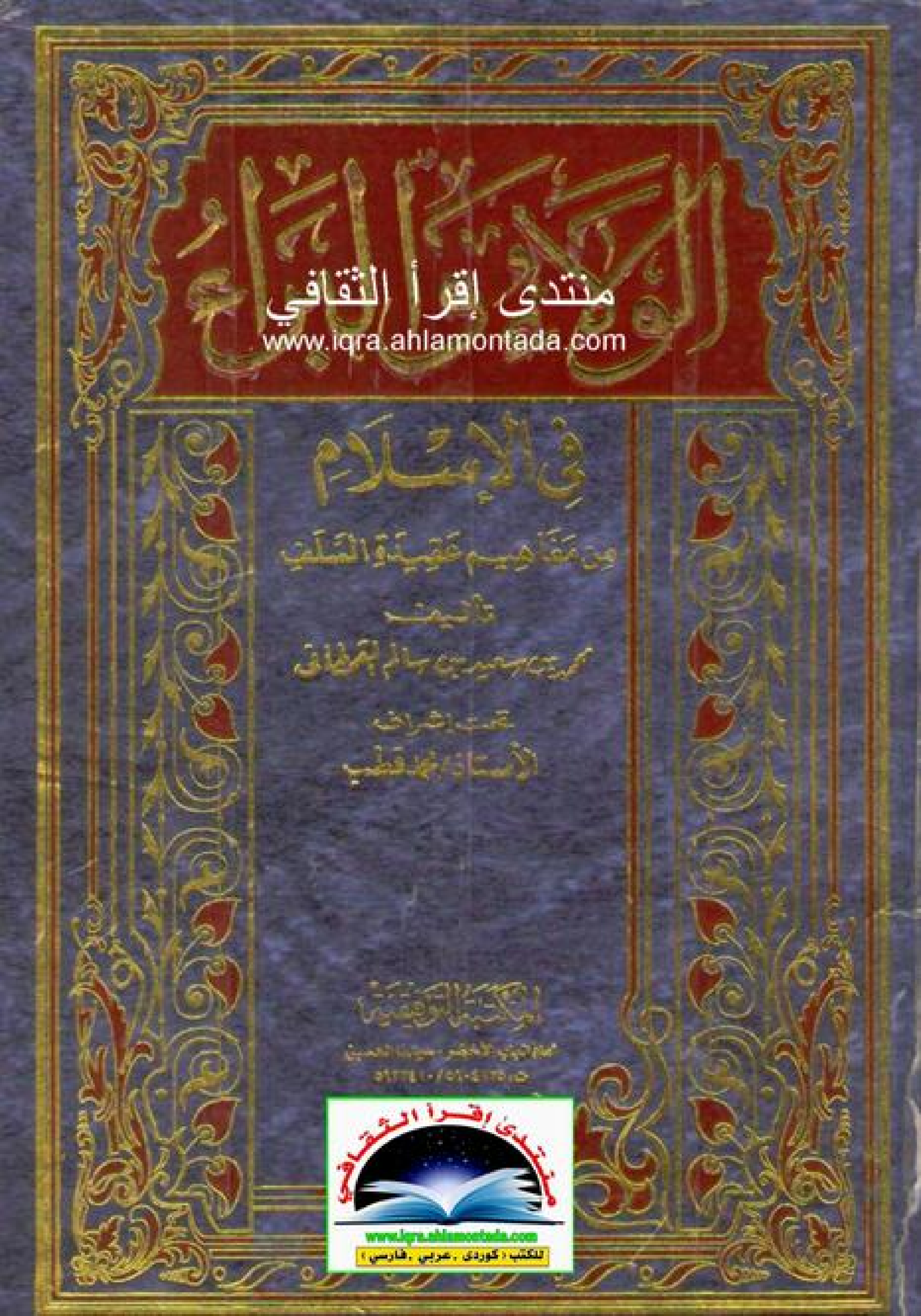

الولاء والبراء
منتدى إقرأ الثقافي
www.iqra.ahlamontada.com
في الإسلام
من مفاهيم عقيدة السلف
تأليف
محمد بن سعيد بن سالم القحطاني
تحت إشراف
الأستاذ محمد قطب
منتدى إقرأ الثقافي
www.iqra.ahlamontada.com
للكتب (كوردى , عربي , فارسي)



مِن مَفَاهِيم عَقِيدَةِ السَّلَفِ

تأليف

محمد بن سعيد بن سالم القحطاني

تحت إشراف

الأستاذ / محمد قطب



أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين

٥٩٠٤١٧٥ ٥٩٢٢٤١٠


منتدى إقراء الثقافي
وقع هنا

رقم الإيداع بدار الكتب: ٢٠٠٣/١١٧١٢

الترقيم الدولي: 977-323-042-2

المكتبة التوفيقية

القاهرة - مصر

العنوان: أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين

تليفون: ٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠ (٠٠٢٠٢)

فاكس: ٦٨٤٧٩٥٧

Al Tawfikia Bookshop

Cairo-Egypt

Add.: In Fornt of the Green Door Of El Hussen

Tel : (٠٠٢٠٢) ٥٩٠٤١٧٥ _ ٥٩٢٢٤١٠

Fax : ٦٨٤٧٩٥٧

إشراف

توفيق شعلان

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب

رسَالَة علْميَّة تَقَدّم بها المؤَلّف لنيل دَرَجة التّخَصّص الأولى «الماجسْتير» مِنْ جَامِعَة أَمّ القُرى بمكّة المكَرّمَة، فَرع العَقيدَة وَقَد تكوّنت لجنَة المنَاقشَة مِن:

١- فضيلَة الشّيخ الأستَاذ محمَّد قطبْ المشرِف عَلَى الرّسَالة: رَئيسًا.

٢- فَضِيلَة الشَّيخ عَبد الرزّاق عَفيفي: عضوًا.

٣- فَضِيلَة الدكتور عَبد العَزيْز عُبَيد: عضوًا.

وَمُنِحَ صَاحِبها دَرجَة الماجسْتير بتقدِيرٍ مُمتَاز وَذلكَ لَيلة السَّبْت ٤/٨/١٤٠١هـ.

قَالَ تَعالَى:

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾.

[المائدة: ٥١].

وَقَالَ تَعَالَى:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾.

[الممتحنة: ٤]

وقالَ صَلّى الله عَلَيه وَسَلّم:

«أوثَقُ عُرَى الإيمَانِ الموالاَةُ فِي اللهِ وَالمعاداةُ في اللهِ وَالحبُّ فِي الله وَالبغضُ فِي اللهِ».

حديث حَسَن.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة فضيلة الشيخ العلاّمة عبد الرزاق عفيفي

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فموضوع هذا الكتاب له شأنه وله أهميته في نفسه، وبالنسبة لكتابته في هذا الوقت، فبين كتابته وبين الوقت الذي نعيش فيه الآن مناسبة قوية.

أما أهميته في نفسه: فذلك لأنه في أصل من أصول الإسلام هو: «الولاء والبراء».

وهما مظهران من مظاهر إخلاص المحبة لله، ثم لأنبيائه وللمؤمنين.

والبراء: مظهر من مظاهر كراهية الباطل وأهله وهذا أصل من أصول الإيمان وأما أهميته بالنظر للوقت الحاضر: فلأنه قد اختلط الحابل بالنابل! وغفل الناس عن مميزات المؤمنين التي يتميزون بها عن الكافرين، وضعُف الإيمان في قلوبهم حتى ظهرت فيهم مظاهر يكرهها المؤمن.

والوا الكافرين أممًا ودولاً، وزهدوا في كثير من المؤمنين، وحطوا من قدرهم وساموهم سوء العذاب.

ومن هنا: تأتي أهمية نشر هذا الكتاب في هذا الوقت الحاضر بالذات.

ولقد جاء المؤلف على جوانب الولاء والبراء، ونقل في ذلك كثيرًا من كلام العلماء، وقدم له ومهد، وعقب عليه وعلق، واستدل على ما جاء به من مبادئ الولاء

والبراء بآيات من القرآن، وبأحاديث صحيحة عن رسول الله ﷺ ، وبكثير من آثار الصحابة ومن تبعهم من السلف.

وبين وجه الاستشهاد بهذا وبهذا، ورقم للآيات وبين سورها، وأخرج الأحاديث والآثار وبين درجتها في الغالب الكثير.

وبرزت شخصية الباحث في كتابه مما يدل على سعة اطلاعه وقوة بحثه.

وأسأل الله جلّ شأنه أن ينفع المسلمين بهذا الكتاب، وأن يهيئ لمؤلفه إخوانًا ينهجون نهجه، فالأمل كبير، الأمل في الله عظيم أن ينشأ كثير من شبابنا الحاضر على هذا المبدأ القيم، مبدأ نصرة دين الإسلام وإحياء ما اندرس منه فإن ربّي مجيب الدعاء.

عبد الرزاق عفيفي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتدي، ومن يضلل الله فلن تجد له وليًا مرشدًا وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن سلك سبيله واهتدى بهداه وسلم تسليمًا كثيرًا أما بعد:

فإنه من رحمة الله سبحانه وتعالى وعظيم لطفه بخلقه: أن جعل الرسالة المحمدية هي خاتمة الرسالات السماوية، وجعلها سبحانه وتعالى كاملة صافية نقية لا يزيغ عنها إلا هالك. وكتب تبارك اسمه وتعالى جده السعادة في الدارين لاتباع هذه الرسالة الذين قدروها حق قدرها، وقاموا بها على وفق ما أراد الله وعلى هدي نبي الله ﷺ وسماهم أولياء الله وحزبه. وكتب ﷻ الشقاء والذلة على من حاد عن هذه الشريعة وتنكب الصراط المستقيم وسماهم أولياء الشيطان وجنده.

وأصل هذه الرسالة الخالدة: كلمة التوحيد [لا إله إلا الله محمد رسول الله] هذه الكلمة العظيمة – كما يقول ابن القيم – «التي لأجلها نصبت الموازين، ووضعت الدواوين، وقام سوق الجنة والنار، وبها انقسمت الخليقة إلى المؤمنين والكفار، والأبرار والفجار وأسست الملة، ولأجلها جردت السيوف للجهاد، وهي حق الله على جميع العباد» وحقيقة هذه الكلمة: «مركبة من معرفة ما جاء به الرسول ﷺ علمًا، والتصديق به عقدًا، والإقرار به نطقًا، والانقياد له محبة وخضوعًا، والعمل به باطنًا وظاهرًا، وتنفيذه والدعوة إليه بحسب الإمكان، وكماله في الحب في الله، والبغض في الله، والعطاء لله، والمنع لله، وأن يكون الله وحده إلهه ومعبوده».

والطريق إليه: «تجريد متابعة رسوله ﷺ ظاهرًا وباطنًا، وتغميض عين القلب عن الالتفات إلى سوى الله ورسوله».

هذه الكلمة العظيمة بكل مفاهيمها ومقتضياتها قد غابت عن حس الناس اليوم إلا

من رحم الله، ومن هذه المفاهيم بل من أهمها موضوع: الولاء والبراء.

ولئن كان هذا المفهوم العقدي الهام قد غاب اليوم عن واقع حياة المسلمين – إلا من رحم ربك – فإن ذلك لا يغير من حقيقته الناصعة شيئًا.

ذلك أن الولاء والبراء: هما الصورة الفعلية للتطبيق الواقعي لهذه العقيدة. وهو مفهوم ضخم في حس المسلم بمقدار ضخامة وعظمة هذه العقيدة.

ولن تتحقق كلمة التوحيد في الأرض إلا بتحقيق الولاء لمن يستحق الولاء والبراء ممن يستحق البراء.

ويحسب بعض الناس أن هذا المفهوم العقدي الكبير يدرج ضمن القضايا الجزئية أو الثانوية ولكن حقيقة الأمر بعكس ذلك.

إنها قضية إيمان وكفر كما قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٣، ٢٤].

وقال ﷻ ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: ٥١].

وقد قال أحد العلماء – وهو الشيخ حمد بن عتيق رحمه الله – «إنه ليس في كتاب الله تعالى حكم فيه من الأدلة أكثر ولا أبين من هذا الحكم – أي الولاء والبراء – بعد وجوب التوحيد وتحريم ضده»[١].

ولقد قامت الأمة الإسلامية بقيادة البشرية دهرًا طويلاً حيث نشرت هذه العقيدة

---

(١) النجاة والفكاك ص١٤.

الغرّاء في ربوع المعمورة، وأخرجت الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.

ثم ما الذي حدث؟

◆ لقد تقهقرت هذه الأمة إلى الوراء بعد أن تركت الجهاد وأخذت بأذناب البقر!

◆ تراجعت بعد أن زهدت في الجهاد وهو ذروة سنام الإسلام.

◆ تبعت الأمم الأخرى بعد أن ركنت إلى حياة الدعة والرفاهية والبذخ والمجون.

◆ تبلبلت أفكارها بعد أن خلطت نبعها الصافي بالفلسفات الجاهلية والهرطقة البشرية.

◆ دخلت هذه الأمة في طاعة الكافرين واطمأنت إليهم، وطلبت صلاح دنياها بذهاب دينها فخسرت الدنيا والآخرة.

وبرزت صور موالاة الكفار في أمور شتى منها:

١) محبة الكفار وتعظيمهم ونصرهم على حرب أولياء الله، وتنحية شريعة الله عن الحكم في الأرض ورميها بالقصور والجمود وعدم مسايرة العصر ومواكبة التقدم الحضاري.

٢) ومنها: استيراد القوانين الكافرة – شرقية كانت أم غربية – وإحلالها محل شريعة الله الغرّاء وغمز كل مسلم يطالب بشرع الله بـــ: التعصب والرجعية والتخلف!

٣) ومنها: التشكيك في سنة رسول الله ﷺ والطعن في دواوينها الكريمة والحط من قدر أولئك الرجال الأعلام الذين خدموا هذه السنة حتى وصلت إلينا.

٤) قيام دعوات جاهلية جديدة تعتبر ردة جديدة في حياة المسلمين، ذلك مثل دعوة القومية الطورانية والقومية العربية والقومية الهندية و... و... إلخ.

٥) إفساد المجتمعات الإسلامية عن طريق وسائل التربية والتعليم وبث سموم الغزو

الفكري في المناهج والوسائل الإعلامية بكل أصنافها.

وأمام هذه الصور وغيرها من الصور الكثيرة تنشأ أسئلة كثيرة تحتاج إلى إجابات صادقة وافية يدعمها الدليل من الكتاب والسنّة والاسترشاد بآراء العلماء الأعلام ومن هذه الأسئلة: لمن ينتمي المسلم؟ ولمن يكون ولاؤه؟ وممن يكون براؤه؟ ما حكم تولي الكفار ونصرهم؟ ما حكم الإسلام في المذاهب الفكرية التي يروج لها المستغفلون أو الحاقدون من أبناء أمتنا وممن ينطقون بألسنتنا؟

كيف ينبغي أن تكون صورة الولاء للمسلمين الذين يضطهدون اليوم وغير اليوم في مشارق الأرض ومغاربها حيث تكالبت عليهم قوى الشر والكفر؟

ما هو طريق الخلاص بعدما تقبل المسلمون لباس العبودية العقلية الذي خلعته عليهم المدنية الأجنبية؟

يستثير هذه الأسئلة وغيرها غيابُ المفهوم الصحيح لكلمة التوحيد، وبعد ذلك عن واقع المسلمين اليوم حيث مسخت مفاهيمها حتى صار من يقر بتوحيد الربوبية فقط دون توحيد الألوهية يعتبر موحدًا عند كثير من الناس!!!

أما كون لا إله إلا الله ولاء وبراء، أما كونها توحيد ألوهية وعبادة: فهذه معان لا تخطر على أذهان الكثير – إلا من رحم الله –.

ورحم الله الإمام الداعية شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب حين قال: [إن الإنسان لا يستقيم له إسلام ولو وحد الله وترك الشرك إلا بعداوة المشركين كما قال تعالى في سورة المجادلة:

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢] [(١)].

---

(١) مجموعة التوحيد ص١٩ ط دار الفكر بالقاهرة.

وانطلاقًا من مجموع هذه الأمور، وحبًّا في خدمة هذه العقيدة، ورغبة في تفنيد الباطل وبيان الحق: عقدت العزم واستعنت بالله وكتبت هذا الموضوع وسميته: الولاء والبراء في الإسلام.

وأنا أعلم – يقينًا – أن مثلي لا يعطي هذا الموضوع حقه من البحث والدراسة نظرًا لقلة البضاعة وسعة الموضوع، ولكنني بذلت جهد المقل، واجتهدت أن أصل به إلى الصورة التي تليق به، فإن أصبت فذاك ما أردت والفضل لله أولاً وآخرًا.

وإن كانت الأخرى فأستغفر الله لذنبي. وحسبي أني بذلت طاقتي ووضعت لبنة في طريق من يريد إكمال البناء.

وأقول كما قال سلفنا الصالح: رحم الله امرءًا أهدى إليّ عيوبي.

كما أنني أطلب من كل قارئ كريم – عالم أو متعلم – قرأ هذا الكتاب ووجد فيه خللاً أن ينبهني إلى ذلك وله من الله الأجر والمثوبة على قيامه بواجب النصح ثم له مني الدعاء بظاهر الغيب.

وأخيرًا أتقدم بخالص الشكر والتقدير لأستاذي الكبير العالم العامل الشيخ محمد قطب حفظه الله لما أسداه إليّ من نصح وتوجيه، وإرشاد وتنبيه إبّان إشرافه على هذا البحث، سائلاً الله العلي القدير أن يجزيه عني خير ما جازى معلم عن تلميذه والله الهادي إلى سواء السبيل.

اللهم اجعل عملنا خالصًا صائبًا، خالصًا لوجهك الكريم صائبًا وفق كتابك وسنّة نبيك ﷺ.

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾.

محمد سعيد سالم القحطاني

مكة المكرمة

١٥/٥/١٤٠٢هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

التمهيد

لكي نتحدث عن الولاء والبراء من واقع التصور الإسلامي الصحيح لابد أن نتحدث في هذا التمهيد عن حقائق ثلاث هي:

١) حقيقة الإسلام الممثلة في كلمة التوحيد «لا إله إلا الله محمد رسول الله» ومدلول هذه الكلمة وشروطها.

٢) الولاء والبراء من لوازم كلمة التوحيد.

٣) نواقض الإسلام: الشرك والكفر والنفاق والردة.

وهدفي من هذا هو: أن أحاول – بقدر الطاقة – إبراز حقيقة الإسلام، وحقيقة ما يناقضه. مع إبراز حقيقة قضية الولاء والبراء ودورهما في حياة المسلمين. لأن الولاء والبراء جزء من هذه العقيدة فالحديث عنه يستلزم الحديث عن أساس هذه العقيدة وهي كلمة التوحيد. ومعرفة هذه العقيدة معرفة صحيحة أمر ضروري للمسلم ليكون ولاؤه وبراؤه بحسبها. إذ من المحال أن تكون هناك عقيدة سليمة بدون تحقيق الموالاة والمعاداة الشرعية.

ثم إن الوقوف على حقيقة دعوة رسول الله ﷺ وما أحدثته هذه الدعوة من تحول في تاريخ البشرية، وما بنته من حضارة سعد بها الإنسان المسلم منذ أول لحظة عرف فيها ربه ودينه ونبيه: لأمر جدير بالتأمل، تلك الدعوة التي جاءت وقد كان الناس يعيشون في جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء، ثم أنقذتهم وأحيتهم بعد ممات:

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

ولقد أوضح حقيقة تلك الحال التي كانوا عليها الصحابي الجليل المقداد[١] بن الأسود ﷺ فقال فيما رواه أبو نعيم في الحلية (.. والله لقد بعث النبي ﷺ على أشد حال بعث عليه نبي من الأنبياء، في فترة وجاهلية. ما يرون دينًا أفضل من عبادة الأوثان، فجاء بفرقان فرق به بين الحق والباطل، وفرق بين الوالد وولده، حتى أن الرجل ليرى والده أو ولده أو أخاه كافرًا – وقد فتح الله تعالى قفل قلبه للإيمان – ليعلم أنه قد هلك من دخل النار، فلا تقر عينه وهو يعلم أن حميمه في النار، وأنها للتي قال الله ﷻ:

﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾[٢] [الفرقان: ٧٤].

هذه الجاهلية التي تحدث القرآن عنها وهو يمن على المسلمين بالهداية. قال تعالى:

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ولما عرف الصحابة رضوان الله عليهم الجاهلية، ثم عرفوا الإسلام، خرجوا – نتيجة للتربية القرآنية والعناية النبوية – وهم أعظم جيل عرفه تاريخ هذه الدعوة.

ترى، ما سر تلك العظمة التي نقرأ عنها ونسمع، وكأنها شبه أحلام، نظرًا للهوة السحيقة التي وصلنا إليها؟ ذلك الجيل الذي كان الواحد منهم إذا دخل في الإسلام خلع على عتبته كل ماضيه في الجاهلية، وانتقل نقلة بعيدة من عالم مظلم سحيق،

---

(١) هو المقداد بن الأسود. أسلم قديمًا وشهد بدرًا والمشاهد، وكان فارسًا يوم بدر. توفي سنة ٣٣هـ قال بعضهم وهو ابن سبعين سنة. وكان ذلك بالجرف على بعد ثلاثة أميال من المدينة وحمل إلى المدينة ودفن بها. انظر تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ٢٨٥/١٠.

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم ١٧٥/١ وذكره صاحب كتاب حياة الصحابة ٢٤١/١ وقال إن الطبراني أخرجه أيضًا بمعناه بأسانيد في أحدهما يحيى بن صالح. وثقه الذهبي، وقد تكلموا فيه، وبقية رجاله رجال الصحيح كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٧/٦.

وتصور قاصر، ومفاهيم كليلة، وعبودية للمال والعبيد، إلى حياة رحبة فسيحة، وعالم يملؤه نور الله، وتصور كامل شامل، واستعلاء على كل عبودية إلا العبودية لله ﷻ[١].

إن سر ذلك النجاح، وتلك العظمة هو نقطة البدء التي بدأ بها رسول الله ﷺ وهي كلمة: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» هذه الكلمة التي مزقت كل رابطة، وأهدرت كل وشيجة إلا وشيجة العقيدة. رابطة الحب في الله، رابطة المؤاخاة الإيمانية التي يتهاوى دونها كل عرق ودم وتراب وجنس ولون.

ورد في صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسولَ الله ﷺ: «إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي. اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي»[٢].

وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «إن من عباد الله لأناسًا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى» قالوا: يا رسول الله تخبرنا من هم؟ قال: «هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم على نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس» وقرأ هذه الآية:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢﴾[٣] [يونس: ٦٢].

---

(١) انظر معالم في الطريق للأستاذ سيد قطب ص١٦ فصل جيل قرآني فريد. طبع دار الشروق. وانظر كتاب: أبو بصير قمة في العزة الإسلامية للأستاذ محمد حسن بريغش ص٤٧ ط٢ سنة ١٣٩٧هـ الناشر مكتبة الحرمين بالرياض.

(٢) صحيح مسلم كتاب البرج ١٩٨٨/٤ح ٢٥٦٦ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي الطبعة الأولى سنة ١٣٧٤هـ/ دار إحياء الكتب العربية وانظر المسند للإمام أحمد ج١٦/١٩٢ح ٨٤٣٦ تحقيق الشيخ أحمد شاكر ط٤ سنة ١٣٧٣هـ دار المعارف بمصر والموطأ ج٢/٩٥٢ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.

(٣) سنن أبي داود كتاب البيوع ج٣/٧٩٩ح ٣٥٢٧ وإسناده صحيح. تعليق عزت الدعاس الطبعة الأولى سنة ١٣٩١هـ الناشر محمد علي السيد بسوريا.

ولقد مكث رسول الله ﷺ بمكة ثلاثة عشر عامًا يدعو الناس إلى هذه العقيدة ويمكنها في نفوس العصبة المسلمة، مما جعل آثار ذلك تنعكس في أفعالهم الحميدة، وجهادهم المستمر لنشر كلمة الله في الأرض، حين قامت دولة المصطفى ﷺ في المدينة المنورة.

إن الذي يجعلنا نتحدث عن قضية الألوهية، ومفهومها الصحيح الذي جاء به الإسلام هو الحاجة الماسة لشرحها اليوم، وبيانها للناس. بعد أن انحرف الناس – إلا من رحم الله – عن العقيدة الصافية التي جاء بها الرسول ﷺ.

لقد أصبحت هذه القضية عند سواد الناس اليوم مجرد لفظة ترددها الألسنة دون وعي وتدبر لمعناها ولوازمها، ولم يقتصر الأمر على هذا فحسب، بل تعداه إلى إيراد بعض النصوص للاستشهاد بها على ما يرون من معتقد، دون نظر لكامل النصوص في هذه القضية، ودون رجوع إلى بيان ذلك في كتب أهل العلم من كتب الحديث وشروحها وكتب التفسير وشروح جهابذة رجال الدعوة والإصلاح على مدار تاريخ هذه الأمة.

ومسخ أيضًا مفهوم العبادة الشامل الكامل للحياة الدنيا والآخرة إلى جزء يسير منها وهو الشعائر التعبدية من صلاة وصيام وزكاة وحج.

أما النظام الذي تقوم عليه الحياة. أما الولاء لمن يكون؟ والبراء ممن يكون؟ أما الحب لمن؟ والبغض لمن؟ فهذه معانٍ بعيدة عن تصورهم ومجال تفكيرهم!!

إن هذا الدين لم يكن توحيد ربوبية فحسب. وإنما هو أيضًا توحيد ألوهية وتوحيد أسماء وصفات تليق بجلال الله وعظمته.

ونأمل – كما يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله – «حال رسول الله ﷺ لما قام ينذر المشركين عن الشرك، ويأمرهم بضده وهو التوحيد، لم يكرهوا واستحسنوا، وحدثوا أنفسهم بالدخول فيه، إلى أن صرح بسب دينهم وتجهيل علمائهم، فحينئذ شمروا له ولأصحابه عن ساق العداوة، وقالوا: سفه أحلامنا، وعاب

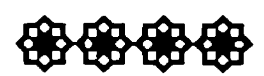
ديننا، وشتم آلهتنا، ومعلوم أنه ﷺ لم يشتم عيسى وأمه، ولا الملائكة، ولا الصالحين، ولكن لما ذكر أنهم لا يُدعون ولا ينفعون، ولا يضرون: جعلوا ذلك شتمًا.

فإذا عرفت هذا، عرفت أن الإنسان لا يستقيم له إسلام – ولو وحد الله وترك الشرك – إلا بعداوة المشركين، والتصريح لهم بالعداوة والبغض، كما قال تعالى في سورة المجادلة:

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

فإذا فهمت هذا جيدًا عرفت أن كثيرًا من الذين يدّعون الدين لا يعرفونها – أي لا إله إلا الله – وإلا فما الذي حمل المسلمين على الصبر على ذلك والعذاب والأسر، والضرب، والهجرة للحبشة، مع أنه ﷺ أرحم الناس لو يجد لهم رخصة لأرخص لهم»[١].

وما دام أن هناك من يجهل حقيقة «لا إله إلا الله» فلابد من الشرح لها، والبيان لمدلولها وحقيقتها، وشروطها ونواقضها ولوازمها وإليك ذلك مفصلاً. ومن الله نستمد العون والسداد.



(١) مجموعة التوحيد لابن تيمية وابن عبد الوهاب وغيرهم ص١٩ الناشر دار الفكر بالقاهرة.

كلمة التوحيد «لا إله إلا الله محمد رسول الله»

ومعناها: لا معبود بحق إلا الله، وبذلك تنفي الإلهية عما سوى الله وتثبتها لله وحده[١].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ليس للقلوب سرور ولا لذة تامة إلا في محبة الله، والتقرب إليه بما يحبه، ولا تمكن محبة إلا بالإعراض عن كل محبوب سواه، وهذا حقيقة «لا إله إلا الله» وهي ملة إبراهيم الخليل عليه السلام وسائر الأنبياء والمرسلين صلاة الله وسلامه عليهم أجمعين»[٢] أما شقها الثاني «محمد رسول الله» فمعناه تجريد متابعته ﷺ فيما أمر والانتهاء عما نهى عنه وزجر.

ومن هنا كانت «لا إله إلا الله» ولاء وبراء، نفيًا وإثباتًا.

ولاء لله ولدينه وكتابه وسنّة نبيه وعباده الصالحين.

وبراء من كل طاغوت عبد من دون الله[٣]:

﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وفي هذا يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب: واعلم أن الإنسان ما يصير مؤمنًا بالله

---

(١) انظر فتح المجيد ص٣٦.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج٢٨/٣٢. جمع عبد الرحمن بن قاسم ط الأولى مطبعة الحكومة سنة ١٣٨١هـ.

(٣) عرف ابن القيم الطاغوت تعريفًا جامعًا فقال: الطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله. فتح المجيد لعبد الرحمن بن حسن ص١٦ ط٧ سنة ١٣٧٧هـ مطبعة أنصار السنة.

لا بالكفر بالطاغوت والذليل هذه الآية[1] يعني الآية السابقة [البقرة: ٢٥٦].

وكلمة التوحيد ولاء لشرع الله: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ [الأعراف: ٣].

﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾ [الروم: ٣٠].

وبراء من حكم الجاهلية: ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ [المائدة: ٥٠].

وبراء من كل دين غير دين الإسلام: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٨٥﴾ [آل عمران: ٨٥].

ثم هي نفي وإثبات تنفي أربعة أمور. وتثبت أربعة أمور.

تنفي: الآلهة، والطواغيت، والأنداد، والأرباب.

فالآلهة: ما قصدته بشيء من جلب خير أو دفع ضر، أنت متخذه إلهًا.

والطواغيت: من عبد وهو راض، أو رُشح للعبادة.

والأنداد: ما جذبك عن دين الإسلام، من أهل، أو مسكن، أو عشيرة، أو مال: فهو ند لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: ١٦٥].

والأرباب: من أفتال بمخالفة الحق وأطعته، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

وتثبت أربعة أمور:

القصد: وهو كونك ما تقصد إلا الله.

---

(١) الدرر السنية ج١/٩٥ جمع عبد الرحمن بن قاسم.

والتعظيم والمحبة: لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾ [البقرة: ١٦٥].

والخوف والرجاء: لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٧﴾ [يونس: ١٠٧].

فمن عرف هذا قطع العلاقة مع غير الله ولا تكبر عليه جهامة الباطل، كما أخبر تعالى عن إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام بتكسير الأصنام، وتبريه من قومه: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤][1].

ولقد جاء القرآن من أوله إلى آخره يبين معنى لا إله إلا الله، بنفي الشرك وتوابعه، ويقرر الإخلاص وشرائعه، فكل قول وعمل صالح يحبه الله ويرضاه هو من مدلول كلمة الإخلاص، لأن دلالتها على الدين كله إما مطابقة وإما تضمنًا وإما التزامًا[2]، يقرر ذلك أن الله سماها كلمة التقوى.

والتقوى: أن يتقي سخط الله وعقابه بترك الشرك والمعاصي؛ وإخلاص العبادة لله، واتباع أمره على ما شرعه. كما قال ابن مسعود ﷺ: «أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله، تخاف عقاب الله»[3].

---

(١) بضع رسائل في عقائد الإسلام للشيخ محمد بن عبد الوهاب ص٣٥ تحقيق محمد رشيد رضا. الطبعة الأولى سنة ١٣٤٩ مطبعة المنار بمصر.

(٢) دلالة المطابقة: هي دلالة اللفظ على كل معناه.

دلالة التضمن: هي دلالة اللفظ على جزء معناه.

دلالة الالتزام: هي دلالة اللفظ على معنى خارج عنه لكنه لازم له.

(٣) انظر المورد العذب الزلال ضمن مجموعة الرسائل والمسائل النجدية ج٤/٩٩ تحقيق رشيد رضا. الطبعة الأولى سنة ١٣٤٦ هـــ مطبعة المنار بمصر.

أما كيف تم لأصحاب رسول الله ﷺ معرفة هذه الكلمة والتزام أحكامها والعمل بمقتضياتها ولوازمها فيشرح ذلك الإمام الجليل سفيان بن عيينة[١].

حدث محمد بن عبد الملك المصيصي قال: كنا عند سفيان بن عيينة في سنة سبعين ومائة، فسأله رجل عن الإيمان؟ فقال: قول وعمل. قال: يزيد وينقص؟ قال: يزيد ما شاء الله، وينقص حتى لا يبقى منه مثل هذه، وأشار سفيان بيده. قال الرجل: كيف نصنع بقوم عندنا يزعمون أن الإيمان قول بلا عمل؟ قال سفيان: كان القول قولهم قبل أن تقرر أحكام الإيمان وحدوده.

إن الله ﷻ بعث نبينا محمدًا ﷺ إلى الناس كلّهم كافة أن يقولوا: لا إله إلا الله، وأنه رسول الله. فلما قالوها عصمُوا بها دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله ﷻ، فلما علم الله ﷻ صدق ذلك من قلوبهم، أمره أن يأمرهم بالصلاة، فأمرهم ففعلوا، فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم[٢].

فلما علم الله جل وعلا صدق ذلك في قلوبهم أمره أن يأمرهم بالهجرة إلى المدينة فأمرهم ففعلوا، فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم، فلما علم الله تبارك وتعالى صدق ذلك من قلوبهم أمرهم بالرجوع إلى مكة ليقاتلوا آباءهم وأبناءهم حتى يقولوا كقولهم، ويصلوا صلاتهم ويهاجروا هجرتهم، فأمرهم ففعلوا، حتى أتى أحدهم برأس أبيه فقال: يا رسول الله: هذا رأس شيخ الكافرين، فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم ولا هجرتهم، ولا قتالهم، فلما علم الله ﷻ صدق ذلك من قلوبهم أمره أن يأمرهم بالطواف بالبيت تعبدًا، وأن يحلقوا رءوسهم تذللاً

---

(١) هو الإمام أبو محمد سفيان بن عيينة الهلالي، الحافظ، أحد أعلام الإسلام ولد سنة ١٠٧هـ وتوفي سنة ١٩٨ وله إحدى وتسعون سنة قال فيه الشافعي: لولا مالك وابن عيينة لذهب علم الحجاز وقال فيه أحمد بن حنبل: ما رأيت أحدًا أعلم بالسنن من ابن عيينة وكان كبير القدر. ومن العبّاد. حج سبعين سنة. انظر شذرات الذهب ٣٥٤/١ والأعلام ٣/ ١٠٥ ط٤.

(٢) هكذا بالنص، والذي يبدو لي — والله أعلم — أن سياق الكلام يقتضي أن يكون هكذا «وما نفعهم الإقرار الأول» يدل على ذلك ما سيأتي في بقية النص.

ففعلوا، فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول، ولا صلاتهم، ولا هجرتهم، ولا قتلهم آباءهم، فلما علم الله ﷻ صدق ذلك من قلوبهم أمره أن يأخذ من أموالهم صدقة يطهرهم بها، فأمرهم ففعلوا حتى أتوا بها قليلها وكثيرها، والله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم، ولا هجرتهم، ولا قتلهم آباءهم ولا طوافهم. فلما علم الله تبارك وتعالى الصدق من قلوبهم فيما تتابع عليهم من شرائع الإيمان وحدوده قال ﷻ: قل لهم:

﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣].

قال سفيان: فمن ترك خلة من خلال الإيمان كان بها عندنا كافرًا، ومن تركها كسلاً أو تهاونًا بها، أدبناه كان بها عندنا ناقصًا. هكذا السنة أبلغها عني من سألك من الناس»[(١)].

وقد ذكر العلماء رحمهم الله شروطًا سبعة لـ«لا إله إلا الله» لا تنفع صاحبها إلا باجتماع هذه الشروط فيه. وإليك شرحها:



(١) كتاب «الشريعة» لأبي بكر محمد بن الحسين الآجري ص١٠٤ الطبعة الأولى سنة ١٣٦٩ هـ تحقيق محمد حامد الفقي. الناشر: مطبعة أنصار السنة المحمدية بمصر.

شروط «لا إله إلا الله»

ينبغي أن نعلم أنه ليس المراد من هذا عد ألفاظها وحفظها، فكم من عامي اجتمعت فيه والتزمها، ولو قيل له أعددها لم يحسن ذلك، وكم حافظ لألفاظها يجري فيها كالسهم، وتراه يقع كثيرًا فيما يناقضها والتوفيق بيد الله[١].

وقد قال وهب بن منبه[٢] لمن سأله: أليس «لا إله إلا الله» مفتاح الجنة؟ قال: بلى. ولكن ما من مفتاح إلا وله أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك، وإلا لم يفتح لك[٣].

وأسنان هذا المفتاح هي شروط «لا إله إلا الله» الآتية:

الشرط الأول: العلم بمعناها المراد منها نفيًا وإثباتًا، المنافي للجهل بذلك قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].

وقال: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ [الزخرف: ٨٦].

أي: بلا إله إلا الله: «وهم يعلمون» بقلوبهم ما نطقوا به بألسنتهم.

وقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨].

---

(١) معارج القبول للشيخ حافظ الحكمي ج٣٧٧/١ الطبعة الأولى تصوير إدارات البحوث العلمية بالرياض.

(٢) وهب بن منبه بن كامل اليماني الصنعاني روى عن أبي هريرة وأبي سعيد وابن عباس وابن عمر وغيرهم. قال العجلي: تابعي ثقة وكان على قضاء صنعاء ووثقه أيضًا: أبو زرعة والنسائي وابن حبان. كان مولده سنة ٣٤هـ ووفاته سنة ١١٠هـ. انظر تهذيب التهذيب ١٦٧/١١.

(٣) رواه البخاري تعليقًا في كتاب الجنائز باب من كان آخر كلامه لا إله إلا الله ج١٠٩/٣.

وفي الصحيح عن عثمان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة»[1].

الشرط الثاني: اليقين المنافي للشك. ومعنى ذلك: أن يكون قائلها مستيقنًا بمدلول هذه الكلمة، يقينًا جازمًا، فإن الإيمان لا يغني فيه إلا علم اليقين لا علم الظن[2] قال تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ١٥].

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة»[3]. وفي رواية: «لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما فيحجب عن الجنة». وعن أبي هريرة أيضًا من حديث طويل: «من لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبه فبشره بالجنة»[4].

وقال القرطبي: **في** «المفهم على صحيح مسلم»: «بابٌ لا يكفي مجرد التلفظ بالشهادتين، بل لابد من استيقان القلب. وهذه الترجمة تنبيه على فساد مذهب غلاة المرجئة القائلين بأن التلفظ بالشهادتين كاف في الإيمان، وأحاديث هذا الباب تدل على فساده. بل هو مذهب معلوم الفساد من الشريعة لمن وقف عليها، ولأنه يلزم منه تسويغ النفاق، والحكم للمنافق بالإيمان الصحيح وهو باطل قطعًا»[5].

الشرط الثالث: القبول لما اقتضته هذه الكلمة بقلبه ولسانه، وقد قص الله ﷻ

---

(١) معارج القبول ٣٧٨/١ وانظر الجامع الفريد ص٣٥٦. والحديث مروي في صحيح مسلم: كتاب الإيمان ج١/٥٥ ح٢٦ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.

(٢) معارج القبول ٣٧٨/١.

(٣) صحيح مسلم كتاب الإيمان ج١/٥٦ ح٢٧.

(٤) صحيح مسلم كتاب الإيمان ج١/٦٠ ح٣١.

(٥) فتح المجيد ص٣٦.

علينا من أنباء ما قد سبق من إنجاء من قبلها، وانتقامه ممن ردها وأباها كما قال تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ۝٢٣ ۞ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٢٤ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ۝٢٥﴾ [الزخرف: ٢٣-٢٥].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٠٣﴾ [يونس: ١٠٣].

ويقول تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ۝٣٦﴾ [الصافات: ٣٥، ٣٦][1].

الشرط الرابع: الانقياد لما دلت عليه، المنافي لترك ذلك.

قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزمر: ٥٤].

وقال: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ [النساء: ١٢٥].

وقال: ﴿۞ وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢] أي بلا إله إلا الله.

وفي الحديث: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به»[2] وهذا هو تمام الانقياد وغايته.

---

(١) معارج القبول ١/٣٨٠.

(٢) معارج القبول ١/٣٨١ وانظر الرسالة الخامسة حول لا إله إلا الله المطبوعة مع «الكلمات النافعة» للشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ص٣ ٧٣ ط٢/١٤٠٠هـ السلفية بمصر والحديث مروي في: الأربعين النووية للإمام النووي ص١٣٤ الحديث الحادي والأربعون الطبعة الثانية سنة ١٩٧٣م الناشر مطابع قطر. قال النووي: وهو حديث حسن صحيح رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح.

وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ۝٦٥﴾ [النساء: ٦٥].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيرها: يقسم الله تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول ﷺ في جميع الأمور فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطنًا وظاهرًا، ولهذا قال:

﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ۝٦٥﴾ أي: إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم فلا يجدون في أنفسهم حرجًا مما حكمت به، وينقادون له في الظاهر والباطن فيسلمون لذلك تسليمًا كليًا من غير ممانعة ولا مدافعة، ولا منازعة، كما ورد في الحديث: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به»[(١)].

الشرط الخامس: الصدق المنافي للكذب، وهو أن يقولها صدقًا من قلب، يواطئ قلبه لسانه، قال تعالى: ﴿الم ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: ١-٣][(٢)]

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ۝١٠﴾ [البقرة: ٨-١٠].

وفي الصحيحين عن معاذ بن جبل رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله صدقًا من قلبه إلا حرمه الله على النار»[(٣)].

---

(١) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير ج٢/٣٠٦ تحقيق عبد العزيز غنيم ومحمد عاشور ومحمد البنا. ومطبعة الشعب والحديث سبق تخريجه في ص٢٥.

(٢) معارج القبول ١/٣٨١.

(٣) صحيح البخاري كتاب العلم ج١/٢٢٦ ح١٢٨ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي المطبوع مع

قال العلامة ابن القيم: والتصديق بلا إله إلا الله يقتضي الإذعان والإقرار بحقوقها وهي شرائع الإسلام التي هي تفصيل هذه الكلمة، بالتصديق بجميع أخباره وامتثال أوامره واجتناب نواهيه... فالمصدق بها على الحقيقة هو الذي يأتي بذلك كله، ومعلوم أن عصمة المال والدم على الإطلاق لم تحصل إلا بها وبالقيام بحقها، وكذلك النجاة من العذاب على الإطلاق لم تحصل إلا بها وبحقها[1]. وفي الحديث: قال ﷺ: «شفاعتي لمن شهد أن لا إله إلا الله مخلصًا يصدق قلبه لسانه ولسانه قلبه»[2].

وقال ابن رجب: «أما من قال: لا إله إلا الله بلسانه، ثم أطاع الشيطان وهواه في معصية الله ومخالفته فقد كذب فعله قوله، ونقص من كمال توحيده بقدر معصية الله في طاعة الشيطان والهوى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]. ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[3] [ص: ٢٦].

الشرط السادس: الإخلاص، وهو تصفية العمل بصالح النية عن جميع شوائب الشرك[4]. قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «أسعد الناس بشفاعتي من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه، أو نفسه»[5].

=فتح الباري بالمطبعة السلفية بمصر سنة ١٣٨٠ الطبعة الأولى. وانظر اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان للشيخ محمد فؤاد عبد الباقي ج١/٨ ح ٢٠ تصوير المكتبة الإسلامية – بيروت.

(١) التبيان في أقسام القرآن لابن القيم ص٤٣ تعليق طه يوسف شاهين. الناشر مكتبة القاهرة بمصر.

(٢) أخرجه الحاكم في كتاب الإيمان من مستدركه ١/٧٠ وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

(٣) كلمة الإخلاص: ٢٨.

(٤) معارج القبول ١/٣٨٢ وانظر الجامع الفريد ص٣٥٦.

(٥) صحيح البخاري كتاب العلم باب الحرص على الحديث ج١/١٩٣ ح٩٩.

وفي الصحيح عن عتبان بن مالك[1] ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إن الله حرّم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله ﷻ»[2].

وللنسائي في اليوم والليلة من حديث رجلين من الصحابة عن النبي ﷺ: «من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو على كل شيء قدير مخلصًا بها قلبه، يصدق بها لسانه، إلا فتق الله لها السماء فتقًا حتى ينظر إلى قائلها من أهل الأرض، وحق لعبد نظر الله إليه أن يعطيه سؤاله»[3].

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: «إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا. والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنّة»[4].

ولقد ضرب الله سبحانه في القرآن العظيم مثلاً واضحًا للمخلص في توحيده وللمشرك قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾ [الزمر: ٢٩].

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله في تفسيرها: «هذا مثل يضربه الله للعبد الموحد والعبد المشرك، بعبد يملكه شركاء يخاصم بعضهم بعضًا فيه، وهو بينهم موزع، ولكل منهم فيه توجيه، ولكل منهم عليه تكليف، وهو بينهم حائر لا يستقر على نهج ولا

---

(١) هو عتبان بن مالك بن العجلان الخزرجي السالمي الأنصاري. بدري عند الجمهور. كان إمام قومه في بني سالم. وذكر ابن سعد أن النبي ﷺ آخى بينه وبين عمر. وقد مات في خلافة معاوية. انظر الإصابة لابن حجر ٢/٢/٤٥٢.

(٢) صحيح مسلم كتاب المساجد ج١/٤٥٦ ح٢٦٣.

(٣) أورد هذا الحديث ابن رجب في كلمة الإخلاص ص٦١ وقال فيه الألباني: عزاه في الجامع الكبير ٢/١/٤٧٧ عن يعقوب بن عاصم قال: حدثني رجلان من الصحابة. ويعقوب هذا من رجال مسلم ووافقه ابن حبان فإن كان السند إليه صحيحًا فالحديث ثابت.

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم لشيخ الإسلام ابن تيمية ص٤٥١ تحقيق محمد الفقي. ط٢ سنة ١٣٦٩هـ مطبعة أنصار السنة.

يستقيم على طريق ولا يملك أن يرضي أهواءهم المتنازعة المتشاكسة.. وعبد يملكه سيد واحد، وهو يعلم ما يطلبه منه، ويكلفه به، فهو مستريح مستقر على منهج واحد صريح» «هل يستويان»؟ لا. لأن الذي يخضع لسيد واحد ينعم براحة الاستقامة والمعرفة واليقين، وتجمع الطاقة ووحدة الاتجاه، ووضوح الطريق. والذي يخضع لسادة مشتركين معذب مقلقل، لا يستقر على حال، ولا يرضى واحدًا منهم فضلاً عن أن يرضي الجميع. وهذا المثل يصور حقيقة التوحيد، وحقيقة الشرك في جميع الأحوال. فالقلب المؤمن بحقيقة التوحيد هو القلب الذي يسير على هدي من الله يستمد منه وحده ويتجه إليه وحده»(١).

ويقول الشيخ القاسمي رحمه الله: «إن القصد هو توحيد المعبود في توحيد الوجهة، ودرء الفرقة كما قال تعالى: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٣٩﴾ [يوسف: ٣٩](٢).

إن الإسلام لابد فيه من الاستسلام لله وحده، وترك الاستسلام لما سواه وهذا حقيقة «لا إله إلا الله» فمن أسلم لله ولغير الله فهو مشرك، والله لا يغفر أن يشرك به، ومن لم يستسلم له فهو مستكبر عن عبادته وقد قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾ [غافر: ٦٠](٣).

الشرط السابع: المحبة لهذه الكلمة، ولما اقتضته ودلت عليه، ولأهلها العاملين بها الملتزمين لشروطها، وبغض ما ناقض ذلك، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن

---

(١) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ج٥/٣٠٤٩ الطبعة المشروعة الناشر دار الشروق وانظر التفسير القيم لابن القيم ص٤٢٣ جمع محمد أويس الندوي تحقيق محمد حامد الفقي، الناشر لجنة التراث – بيروت.

(٢) محاسن التأويل للشيخ محمد جمال الدين القاسمي ج١٤/٥١٣٨ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. الطبعة الأولى ١٣٧٦هـ دار إحياء الكتب.

(٣) انظر اقتضاء الصراط المستقيم ص٤٥٤ والتحفة العراقية لابن تيمية ص٤١.

دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥][١].

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ﴾ [المائدة: ٥٤].

وفي الحديث: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار»[٢].

قال الشيخ حافظ الحكمي رحمه الله[٣]: وعلامة حب العبد ربّه: تقديم محابه وإن خالفت هواه، وبغض ما يبغض ربّه وإن مال إليه هواه، وموالاة من والى الله ورسوله. ومعاداة من عاداه واتباع رسوله ﷺ، واقتفاء أثره وقبول هداه[٤].

ويقول ابن القيم في النونية:

شـــرط المحـبة أن توافق من تحب ... عـــلى محبـــته بـــلا عصـــيان

فـــإذا ادعيـــت له المحـــبة مع خلا ... فـــك مـــا يحـــب فأنت ذو بهتان

أتحـــب أعـــداء الحبيـــب وتدعي ... حـــبًّا له مـــا ذاك في إمكـــان

وكـــذا تعـــادي جـــاهدًا أحـــبابه ... أيـــن المحـــبة يـــا أخـــا الشيطان

لـــيس العـــبادة غـــير توحيد المحبة ... مـــع خضـــوع القلـــب والأركان

---

(١) أعلام السنة المنشورة لحافظ الحكمي ص١٤ ط٣ سنة ١٣٩٩هـ الناشر إدارات البحوث العلمية بالرياض وانظر معارج القبول ج٣٨٣/١ والجامع الفريد ص٣٥٦.

(٢) صحيح البخاري كتاب الإيمان ج٦٠/١ ح١٦ وصحيح مسلم كتاب الإيمان ج٦٦/١ ح٤٣.

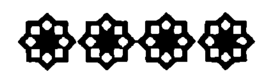
(٣) هو الشيخ العلامة حافظ بن أحمد الحكمي. عالم سلفي من منطقة تهامة ولد سنة ١٣٤٢هـ بقرية السلام بالقرب من جيزان. كان آية في الذكاء وسرعة الحفظ والفهم. تتلمذ على الشيخ الداعية عبد الله القرعاوي. وكان ذا علم وتقوى وعفة. وتوفي رحمه الله سنة ١٣٧٧هـ وعمره ٣٥ سنة. انظر ترجمته بقلم ابنه أحمد بن حافظ في أول معارج القبول الجزء الأول.

(٤) معارج القبول ٣٨٣/١.

إلى أن يقول:

ولقــد رأيــنا من فريق يدعي الإ ســلام شــركًا ظاهــر التبــيان

جعلــوا له شــركاء والوهم وسو وهــم بــه في الحب لا السلطان[1]



(١) النونية ص١٥٨.

الولاء والبراء من لوازم «لا إله إلا الله»

لما كان أصل الموالاة: الحب. وأصل المعاداة: البغض. وينشأ عنهما من أعمال القلوب والجوارح ما يدخل في حقيقة الموالاة والمعاداة كالنصرة والأنس والمعاونة، وكالجهاد، والهجرة، ونحو ذلك[1]. فإن الولاء والبراء من لوازم لا إله إلا الله. وأدلة ذلك كثيرة من الكتاب والسنة.

أما من الكتاب: فمن ذلك قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٢٨﴾ [آل عمران: ٢٨].

ويقول تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣١ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٣٢﴾ [آل عمران: ٣١، ٣٢].

ويقول تباركت أسماؤه عن أهداف أعداء الله: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [النساء: ٨٩].

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥١﴾ [المائدة: ٥١].

ويقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ﴾ [المائدة: ٥٤].

---

(١) الرسائل المفيدة للشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ ص٢٩٦ تصحيح عبد الرحمن الرويشد، طبع سنة ١٣٩٨هـ بدار العلوم بمصر.

أما الأحاديث والآثار فكثيرة واذكر منها:

١) ما رواه الإمام أحمد عن جرير بن عبد الله البجلي أن رسول الله ﷺ بايعه على أن تنصح لكل مسلم، وتبرأ من الكافر[١].

٢) روى ابن شيبة بسنده قال: قال رسول الله ﷺ: «أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله»[٢].

٣) روى الطبراني في الكبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله والمعاداة في الله، والحب في الله والبغض في الله»[٣].

٤) أخرج ابن جرير ومحمد بن نصر المروزي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «من أحب في الله وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك، وقد صارت مؤاخاة الناس على أمر الدنيا وذلك لا يجدي على أهله شيئًا»[٤].

يقول الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب في شرح قول ابن عباس هذا: قوله: «ووالى في الله» هذا بيان للازم المحبة في الله، وهو الموالاة فيه، إشارة إلى أنه لا يكفي في ذلك مجرد الحب، بل لابد مع ذلك من الموالاة التي هي لازم الحب. وهي النصرة والإكرام، والاحترام والكون مع المحبوبين باطنًا وظاهرًا. وقوله: «وعادى في

---

(١) المسند للإمام أحمد ج٤/٣٥٧، ٣٥٨، ط٢ سنة ١٣٩٨هـ الناشر المكتب الإسلامي وهو حديث حسن.

(٢) الإيمان لأبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة ت سنة ٢٣٥هـ ص٤٥، تحقيق الألباني وقال: أخرجه الطبراني في الكبير عن ابن مسعود مرفوعًا وهو حسن، المطبعة العمومية بدمشق وانظر المسند ٤/٢٨٦.

(٣) ذكره السيوطي في الجامع الصغير ١/٦٩، وقال الألباني: حديث حسن. انظر صحيح الجامع الصغير ٢/٣٤٣ ح٢٥٣٦.

(٤) حلية الأولياء عن ابن عباس ١/٣١٢ وجامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ص٣٠ ط ٣/١٣٨٢هـ الناشر مصطفى البابي الحلبي بمصر.

الله» هذا بيان للازم البغض في الله، وهو المعاداة فيه. أي إظهار العداوة بالفعل كالجهاد لأعداء الله، والبراءة منهم، والبعد عنهم باطنًا وظاهرًا، إشارة إلى أنه لا يكفي مجرد بغض القلب، بل لابد مع ذلك من الإتيان بلازمة كما قال تعالى:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤] (١).

قلت: ومما سبق يتضح أن الولاء في الله هو: محبة الله ونصرة دينه، ومحبة أوليائه ونصرهم. والبراء هو: بغض أعداء الله ومجاهدهم. وعلى ذلك جاءت تسمية الشارع الحكيم للفريق الأول بـــ: «أولياء الله»، والفريق الثاني بـــ: «أولياء الشيطان» قال تعالى:

﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء: ٧٦].

واعلم أن الله سبحانه لم يبعث نبيًا بهذا التوحيد إلا جعل له أعداء، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ﴾ [الأنعام: ١١٢].

وقد يكون لأعداء التوحيد علوم كثيرة، وكتب وحجج كما قال تعالى:

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟

(١) تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد للشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ص٤٢٢ الناشر إدارات البحوث العلمية بالرياض. بدون تاريخ.

بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [غافر: ٨٣].

والواجب على المسلم أن يتعلم من دين الله ما يصير له سلاحًا يقاتل به هؤلاء الشياطين، ومن ثم لا خوف ولا حزن لأن: ﴿كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾ [النساء: ٧٦].

والعامي من الموحدين يغلب الألف من علماء المشركين كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات: ١٧٣].

فجند الله هم الغالبون بالحجة واللسان، كما أهم الغالبون بالسيف والسنان[1].

وإذا كانت أهداف أعداء الإسلام من ملحدين ويهود ونصارى ومستغربين وصهيونية عالمية وشيوعية عالمية هي تمييع عقيدة المسلمين، وتذويب شخصيتهم المتفردة، لجعلهم حميرًا للشعب المختار كما تنص على ذلك بروتوكولات حكماء صهيون. فإنه يتضح لدى المسلم أهمية هذا الموضوع حتى يحذر هو ومن معه، بل يحذر المسلمون عامة، من الانزلاق في مهاوي الردى خاصة وإن الدعوات المشبوهة الملحدة تدعو إلى ما يسمى بالأخوة والمساواة وإن الدين لله والوطن للجميع! وسوف أتعرض لهذا بالتفصيل إن شاء الله في الباب الأخير.

فبان بهذه الأدلة الواضحة من الكتاب والسنة أن الولاء والبراء من لوازم « لا إله إلا الله » وهو أيضًا تحقيق معناها كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: إن تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله يقتضي أن لا يحب إلا لله، ولا يبغض إلا لله، ولا يوالي إلا لله، ولا يعادي إلا لله، وأن يحب ما أحبه الله ويبغض ما أبغضه الله[2] ويوالي المؤمنين في أي مكان حلوا ويعادي الكافرين ولو كانوا أقرب قريب.

---

(١) بتصرف: انظر كشف الشبهات للإمام محمد بن عبد الوهاب ص٢٠ ط١٣٨٨/٣هـ الناشر مؤسسة النور بالرياض. وانظر مجموعة الرسائل والمسائل النجدية ج٤/٤٦.

(٢) الاحتجاج بالقدر ص٦٢ طبعة سنة ١٣٩٣هـ المكتب الإسلامي.

الرد على من زعم أن كلمة التوحيد لفظ فقط
مع بيان المذهب الصحيح في الأحاديث الواردة بخصوصها

يقول العلامة ابن القيم رحمه الله: ليس التوحيد مجرد إقرار العبد بأنه: لا خالق إلا الله، وأن الله ربّ كل شيء ومليكه، كما كان عباد الأصنام مقرين بذلك وهم مشركون، بل التوحيد يتضمن من محبة الله، والخضوع له، والذل له، وكمال الانقياد لطاعته، وإخلاص العبادة له، وإرادة وجهه الأعلى بجميع الأقوال والأعمال، والمنع والعطاء، والحب والبغض، ما يحول بين صاحبه وبين الأسباب الداعية إلى المعاصي والإصرار عليها، ومن عرف هذا عرف قول النبي ﷺ: «إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله»[١]. وقوله: «لا يدخل النار من قال لا إله إلا الله»[٢]. وما جاء من هذا الضرب من الأحاديث، التي أشكلت على كثير من الناس، حتى ظنها بعضهم منسوخة! وظنها بعضهم قيلت قبل ورود الأوامر والنواهي واستقرار الشرع، وحملها بعضهم على نار المشركين والكفار، وأول بعضهم الدخول بالخلود وقال: المعنى لا يدخلها خالدًا، ونحو ذلك من التأويلات المستكرهة. فإن الشارع صلوات الله وسلامه عليه لم يجعل ذلك حاصلاً بمجرد قول اللسان فقط، فإن هذا خلاف المعلوم بالإضرار من دين الإسلام، لأن المنافقين يقولونها بألسنتهم، وهم تحت الجاحدين لها في الدرك الأسفل من النار.

بل لابد من قول القلب، وقول اللسان.

وقول القلب: يتضمن من معرفتها والتصديق بها، ومعرفة حقيقة ما تضمنته من النفي والإثبات، ومعرفة حقيقة الإلهية المنفية عن غير الله، المختصة به، التي يستحيل ثبوتها لغيره، وقيام هذا المعنى بالقلب علمًا ومعرفة ويقينًا وحالاً: ما يوجب تحريم قائلها على النار.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق الكلام عليه في شروط لا إله إلا الله.

وتأمل حديث البطاقة[١] التي توضع في كفة، ويقابلها تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل منها مد البصر، فتشغل البطاقة وتطيش السجلات، فلا يعذب صاحبها ومعلوم أن كل موحد له مثل هذه البطاقة، ولكن السر الذي ثقل بطاقة ذلك الرجل هو أنه حصل له ما لم يحصل لغيره من أرباب البطاقات.

وتأمل أيضًا ما قام بقلب قاتل المائة[٢] من حقائق الإيمان التي لم تشغله عند السياق عن السير إلى القرية فجعل ينوء بصدره، ويعالج سكرات الموت، لأن ذلك كان أمرًا آخر، وإيمانًا آخر ولذلك أُلحق بأهل القرية الصالحة. وقريب من هذا ما قام بقلب البغي[٣] التي رأت ذلك الكلب وقد اشتد به العطش، يأكل الثرى – فقام بقلبها ذلك الوقت – مع عدم الآلة، وعدم المعين، وعدم من ترائيه بعملها: وملء الماء في خفها، و لم تعبأ بتعرضها للتلف وحملها خفها بفيها وهو ملآن حتى أمكنها الرقي من البئر، ثم تواضعها لهذا المخلوق الذي جرت عادة الناس بضربه، فأمسكت له الخف بيدها حتى شرب من غير أن ترجو منه جزاء ولا شكورًا. فأحرقت أنوار هذا القدر من التوحيد ما تقدم منها من البغاء فغفر لها[٤].

وقد ورد في صحيح مسلم قوله ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله، حرم ماله ودمه وحسابه على الله»[٥]. يقول محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: وهذا من أعظم ما يبينّ معنى لا إله إلا الله فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصمًا للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسند عبد الله بن عمرو ج٢ ص٢١٣ ط٢ وسنده حسن وأخرجه الترمذي في الإيمان ٧/٢٩٥ ج٢٦٤١ ورجاله ثقات فالحديث صحيح.

(٢) صحيح البخاري كتاب الأنبياء ج٦/٥١٢ ح٣٤٧٠ وصحيح مسلم كتاب التوبة ج٤/ ٢١١٨ ح٢٧٦٦.

(٣) صحيح مسلم كتاب السلام ج٤/١٧٦١ ح٢٢٤٥.

(٤) مدارج السالكين لابن القيم ج١/٣٣٠-٣٣٢ بتصرف بسيط.

(٥) صحيح مسلم كتاب الإيمان ج١/٥٣ ح٢٣.

دون الله فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ودمه[١].

ومن هنا نعلم فساد عقيدة المرجئة[٢] الذين يقولون: إن الإيمان هو المعرفة فقط والكفر هو الجهل فقط وأخروا العمل عن الإيمان.

ومن المعلوم أن كفار مكة قد علموا مراد النبي ﷺ من كلمة لا إله إلا الله، فأبوا واستكبروا و لم يك ينفعهم إيمانهم بأن الله واحد رازق محيي مميت. ولما قال لهم النبي ﷺ قولوا: لا إله إلا الله قالوا:

﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝﴾ [ص: ٥].

فإذا عرفت أن جهال الكفار يعرفون ذلك، فالعجب ممن يدعي الإسلام، وهو لا يعرف من تفسير هذه الكلمة ما عرفه جهال الكفار، بل يظن أن ذلك هوالتلفظ بحروفها من غير اعتقاد القلب بشيء من المعاني، والحاذق من يظن أن معناها: لا يخلق ولا يرزق ولا يحيي ولا يميت ولا يدبر الأمر كله إلا الله، فلا خير في رجل جهال الكفار أعلم منه بمعنى لا إله إلا الله[٣]. ويتابع الإمام محمد بن عبد الوهاب رده عليهم فيقول: وهنا شبهة وهي قول من يقول: إن النبي ﷺ أنكر على أسامة قتل من قال: «لا إله إلا الله»[٤]. وكذلك قوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله»[٥]. وأحاديث أخر، في الكف عمن قالها؟!

---

(١) كتاب التوحيد ص١١٥ المطبوع مع فتح المجيد ط١٣٧٧/٧هـ بتحقيق محمد حامد الفقي الناشر مطبعة أنصار السنة بمصر.

(٢) المرجئة: من الإرجاء. بمعنى التأخير، وهم يقولون إن الإيمان هو الإقرار فقط. انظر مقالات الإسلاميين للأشعري ج٢١٤/١ والفرق بين الفرق للبغدادي ص٢٠٢.

(٣) مؤلفات الإمام محمد بن عبد الوهاب ج١٥٥/٥ ط١ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

(٤) في صحيح مسلم كتاب الإيمان ج٩٧/١ ح٩٧.

(٥) انظر صحيح مسلم كتاب الإيمان ج١ ص٥١ ح٢٠.

ومراد هؤلاء الجهلة: أن من قالها لا يكفر، ولا يقتل ولو فعل ما فعل[١] فيقال لهؤلاء المشركين الجهال: معلوم أن رسول الله ﷺ قاتل اليهود وسباهم وهم يقولون: «لا إله إلا الله» وأن أصحاب رسول الله ﷺ قاتلوا بني حنيفة وهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويصلون ويدعون الإسلام، وكذلك الذين حرقهم عليّ بن أبي طالب بالنار[٢]. وهؤلاء الجهلة مقرون أن من أنكر البعث كفر وقتل ولو قال لا إله إلا الله، وأن من جحد شيئًا من أركان الإسلام كفر وقتل ولو قالها:

فكيف لا تنفعه إذا جحد فرعًا من الفروع وتنفعه إذا جحد التوحيد الذي هو أصل دين الرسل ورأسه؟!

ولكن أعداء الله ما فهموا معنى الأحاديث. فمعلوم أن الرجل إذا أظهر الإسلام وجب الكف عنه حتى يتبين منه ما يخالف ذلك كما قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ [النساء: ٩٤].

أي فتثبتوا. فدلت الآية على وجوب الكف حتى يتثبت منه، فإذا تبين منه بعد ذلك ما يخالف الإسلام قتل لقوله تعالى: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ ولو كان لا يقتل إذا قالها لم يكن للتثبت معنى.

وأيضًا أمره ﷺ بقتل الخوارج: «أينما لقيتموهم فاقتلوهم لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد»[٣] مع كونهم من أكثر الناس عبادة وتهليلاً وتسبيحًا، حتى أن الصحابة يحقرون صلاتهم عندهم. وقد تعلموا العلم من الصحابة، فلم تنفعهم «لا إله إلا الله» ولا كثرة العبادة ولا ادعاء الإسلام لما ظهر منهم مخالفة الشريعة[٤] ا.هـ.

ويعلم كل ذي لب أنها لو كانت كلمة – مجرد كلمة – لكان أمرها على قريش

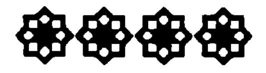
(١) وهذه هي دعوى المرجئة. إنه لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة.
(٢) هم الغلاة الذين ادعوا ألوهية علي رضي الله عنه.
(٣) صحيح مسلم كتاب الزكاة ج٢/٧٤٢ ح١٠٦٤.
(٤) كشف الشبهات ص٤٠.

سهلاً فتنطقها وتتخلص من هذا العناء وتسفيه الآلهة!

ولكنها تعلم أن هذه الكلمة لها مدلولها الذي يغير أوضاع قريش الجاهلية ولها مقتضياها التي تحطم طغيان قريش واستعبادها للناس.

ولها أهميتها في تحرير الناس من عبودية بعضهم لبعض إلى عبودية الواحد القهار وجعل التقوى هي الميزان والفخار الذي ينشده الناس، وليس العادات والتقاليد الجاهلية التي توارثها الأبناء عن الآباء والأجداد.

فحري بكل مسلم جاد في إسلامه أن يقدر لهذه الكلمة قدرها حتى يكون ممن عبد الله على بصيرة وعلم ويقين.



آثار الإقرار بلا إله إلا الله في حياة الإنسان

ذكر الأستاذ المودودي رحمه الله في كتابه القيّم «مبادئ الإسلام»[1] تسعة آثار لكلمة التوحيد أذكر ملخصها فيما يلي:

١) إن المؤمن بهذه الكلمة لا يكون ضيق النظر، بخلاف من يقول بآلهة متعددة. أو من يجحدها.

٢) إن الإيمان بهذه الكلمة ينشئ في النفس من الأنفة وعزة النفس ما لا يقوم دونه شيء، لأنه لا نافع إلا الله ولا ضار إلا الله، وهو المحيي المميت. وهو صاحب الحكم والسلطة والسيادة. ومن ثم ينزع من القلب كل خوف إلا منه سبحانه، فلا يطأطئ الرأس أمام أحد من الخلق، ولا يتضرع إليه، ولا يتكفف له، ولا يرتعب من كبريائه وعظمته. لأن الله هو العظيم القادر. وهذا بخلاف المشرك والكافر والملحد.

٣) ينشأ من الإيمان بهذه الكلمة مع أنفة النفس وعزتها: تواضع من غير ذل وترفع من غير كبر فلا يكاد ينفخ أوداجه شيطان الغرور ويزهيه بقوته وكفاءته لأنه يعلم ويستيقن أن الله الذي وهبه كل ما عنده قادر على سلبه إيّاه إذا شاء. أما الملحد فإنه يتكبر ويبطر إذا حصلت له نعمة عاجلة.

٤) المؤمن بهذه الكلمة: يعلم علم اليقين أنه لا سبيل إلى النجاة والفلاح إلا بتزكية النفس والعمل الصالح أما المشركون والكفار فإنهم يقضون حياتهم على أماني كاذبة. فمنهم من يقول: إن ابن الله قد أصبح كفارة عن ذنوبنا، عند أبيه، ومنهم من يقول: نحن أبناء الله وأحباؤه فلن يعذبنا بذنوبنا. ومنهم من يقول: إنا سنستشفع عند الله بكبرائنا وأتقيائنا، ومنهم من يقدم النذور والقرابين إلى آلهته زاعمًا أنه قد نال بذلك رخصة في العمل بما يشاء. أما الملحد الذي لا يؤمن بالله فيعتقد أنه حر في هذه الدنيا

---

(١) مبادئ الإسلام لأبي علي المودودي ص٨٠-٨٧ الناشر مؤسسة الرسالة سنة ١٣٩٧هـ.

غير مقيد بشرع الله وإنما إلهه هواه وشهوته وهو عبدهما.

٥) قائل هذه الكلمة لا يتسرب إليه اليأس، ولا يقعد به القنوط، لأنه يؤمن أن الله له خزائن السموات والأرض. ومن ثم فهو على طمأنينة وسكينة وأمل، حتى ولو طرد وأهين وضاقت عليه سبل العيش.

إن عين الله لا تغفل عنه ولا تسلمه إلى نفسه، وهو يبذل جهده متوكلاً على الله، بخلاف الكفار الذين يعتمدون على قواهم المحدودة، وسرعان ما يدب لهم اليأس، يساورهم القنوط عند الشدائد مما يفضي بهم أحيانًا إلى الانتحار.

٦) الإيمان بهذه الكلمة يربي الإنسان على قوة عظيمة من العزم والإقدام والصبر والثبات والتوكل حينما يضطلع بمعالي الأمور ابتغاء مرضاة الله. إنه يشعر أن وراءه قوة مالك السماء والأرض. فيكون ثباته ورسوخه وصلابته التي يستمدها من هذا التصور، كالجبال الراسية، وأنى للكفر والشرك بمثل هذه القوة والثبات؟

٧) هذه الكلمة تشجع الإنسان وتملأ قلبه جرأة. لأن الذي يجبن الإنسان ويوهن عزمه شيئان: حبه للنفس والمال والأهل، أو اعتقاده أن هناك أحدًا غير الله يميت الإنسان، فإيمان المرء بلا إله إلا الله ينزع عن قلبه كلاًّ من هذين السببين، فيجعله موقنًا أن الله هو المالك الوحيد لنفسه وماله فعندئذ يضحي في سبيل مرضاة ربّه بكل غال ورخيص عنده. وينزع الثاني بأن يلقي في روعه أنه لا يقدر على سلب الحياة منه إنسان ولا حيوان ولا قنبلة ولا مدفع، ولا سيف ولا حجر وإنما يقدر على ذلك الله وحده.

من أجل ذلك لا يكون في الدنيا أشجع ولا أجرأ ممن يؤمن بالله تعالى، فلا يكاد يخيفه أو يثبت في وجهه زحف الجيوش، ولا السيوف المسلولة، ولا مطر الرصاصات والقنابل، فإنه عندما يتقدم في سبيل الله للجهاد، يهزم قوة تزيد على قوته بعشر مرات وأنى بمثل هذا للمشركين والكفار الملحدين؟

٨) الإيمان بلا إله إلا الله يرفع قدر الإنسان وينشئ فيه الترفع والقناعة والاستغناء،

ويطهر قلبه من أوساخ الطمع والشره والحسد والدناءة واللؤم. وغيرها من الصفات القبيحة.

٩) وأهم شيء وأجدره في هذا الصدد: أن الإيمان بـ«لا إله إلا الله» يجعل الإنسان متقيدًا بشرع الله ومحافظًا عليه، فإن المؤمن يعتقد بيقين أن الله خبير بكل شيء، وهو أقرب إليه من حبل الوريد وأنه إن كان يستطيع أن يفلت من بطش أي كان، فإنه لا يستطيع أن يفلت من الله ﷻ.

وعلى قدر ما يكون هذا الإيمان راسخًا في ذهن الإنسان يكون متبعًا لأحكام الله، قائمًا عند حدوده لا يجرؤ على اقتراف ما حرم الله، ويسارع إلى الخيرات والعمل بما أمر الله.

ومن أجل ذلك جُعِلَ بلا إله إلا الله أول ركن وأهمه ليكون الإنسان مسلمًا. والمسلم هو: العبد المطيع المنقاد لله تعالى ولا يكون كذلك إلا إذا كان مؤمنًا من قلبه بأن لا إله إلا الله. وهذا هو أصل الإسلام، ومصدر قوته، وكل ما عداه من معتقدات الإسلام وأحكامه إنما هي مبنية عليه، ولا تستمد قوتها إلا منه، والإسلام لا يبقى منه شيء لو زال هذا الأساس[1].

ومن فضائلها ما ذكره ابن رجب، حيث أورد قول سفيان بن عيينة: ما أنعم الله على عبد من العباد نعمة أعظم من أن عرفهم لا إله إلا الله، وأن لا إله إلا الله لأهل الجنة كالماء البارد لأهل الدنيا، ولأجلها أعدت دار الثواب ودار العقاب، ولأجلها أمرت الرسل بالجهاد، فمن قالها عصم ماله ودمه، ومن أباها فماله ودمه هدر، وهي مفتاح الجنة، ومفتاح دعوة الرسل[2].

ولو أردت أن أذكر ما أورده العلماء، رحمهم الله تعالى حول فضلها وما في ذلك من الأحاديث النبوية وآثار السلف لطال المقام.

---

(١) مبادئ الإسلام ص٨٧.

(٢) كلمة الإخلاص ص٥٣.

نواقض «لا إله إلا الله»

(حرص الإسلام على بيان حقيقته وحقيقة ما يناقضه)

سبق الكلام على مفهوم «لا إله إلا الله» وشروطها، وحقيقتها، وآثارها. وهنا أذكر نواقضها، من أجل أن تتضح معالم الصورة الكاملة لحقيقة «لا إله إلا الله» ذلك أن معرفة الضد يميز الشيء المراد إيضاحه. كما قيل: «وبضدها تتميز الأشياء». ومعلوم أن الكفر والشرك والنفاق والردة هي نواقض الإسلام، بشتى صورها، وقبل إيراد ذلك، لابد من أن نورد – قاعدة جليلة لأهل السنة والجماعة، بها تنضبط المسائل أصولاً وفروعًا. وسيتضح من خلال هذه القاعدة الرد على فرقة المرجئة، الذين ميعوا وضيعوا مفهوم هذه العقيدة. والرد أيضًا على الخوارج الذين غلوا وحادوا عن الصراط. ودين الإسلام وسط بين الإفراط والتفريط.

وقد كثر كلام الناس حول هذا في القديم والحديث ولكل وجهة هو موليها، بيد أني وجدت للعلامة ابن القيم كلامًا قيمًا في هذا الموضوع – وهو القاعدة التي أشرت إليها آنفًا – سأورده كاملاً على الرغم من طوله: قال رحمه الله في كتاب الصلاة: «الكفر والإيمان متقابلان، إذا زال أحدهما خلفه الآخر». ولما كان الإيمان أصلاً له شعب متعددة، وكل شعبة منها تسمى إيمانًا: فالصلاة من الإيمان، وكذلك الزكاة والحج والصيام، والأعمال الباطنة كالحياء، والتوكل، والخشية من الله، والإنابة إليه، حتى تنتهي هذه الشعب إلى إماطة الأذى عن الطريق فإنه شعبة من شعب الإيمان.

وهذه الشعب منها ما يزول الإيمان بزوالها كشعبة الشهادة. ومنها ما لا يزول بزوالها كترك إماطة الأذى عن الطريق. وبينهما شعب متفاوتة تفاوتًا عظيمًا. منها ما يلحق بشعبة الشهادة ويكون إليها أقرب، ومنها ما يلحق بشعبة إماطة الأذى ويكون إليها أقرب. وكذلك الكفر ذو أصل وشعب، فكما أن شعب الإيمان إيمان فشعب الكفر كفر. والحياء شعبة من الإيمان، وقلة الحياء شعبة من شعب الكفر. والصدق

شعبة من شعب الإيمان، والكذب شعبة من شعب الكفر، والصلاة والزكاة والحج والصيام من شعب الإيمان وتركها من شعب الكفر والحكم بما أنزل الله من شعب الإيمان، والحكم بغير ما أنزل الله من شعب الكفر، والمعاصي كلها من شعب الكفر، كما أن الطاعات كلها من شعب الإيمان.

وشعب الإيمان قسمان: قولية وفعلية، وكذلك شعب الكفر نوعان: قولية وفعلية. ومن شعب الإيمان القولية شعب يوجب زوالها زوال الإيمان، فكذلك من شعبه الفعلية ما يوجب زوالها زوال الإيمان، وكذلك شعب الكفر القولية والفعلية. فكما يكفر الإتيان بكلمة الكفر اختيارًا – وهي شعبة من شعب الكفر – فكذلك يكفر بفعل شعبة من شعبه كالسجود للصنم، والاستهانة بالمصحف، فهذا أصل.

وها هنا أصل آخر: وهو أن حقيقة الإيمان مركبة من قول وعمل، **والقول قسمان**:

قول القلب: وهو الاعتقاد.

وقول اللسان: وهو التكلم بكلمة الإسلام.

والعمل قسمان: عمل القلب: وهو نيته وإخلاصه، وعمل الجوارح. فإذا زالت هذه الأربعة زال الإيمان بكماله. وإذا زال تصديق القلب لم تنفع بقية الأجزاء، فإن تصديق القلب شرط في اعتقادها وكونها نافعة، وإذا زال عمل القلب مع اعتقاد الصدق: فهذا موضع المعركة بين المرجئة وأهل السنة فأهل السنة: مجمعون على زوال الإيمان، وأنه لا ينفع التصديق مع انتفاء عمل القلب وهو محبته وانقياده، كما لم ينفع إبليس وفرعون وقومه واليهود والمشركين الذين كانوا يعتقدون صدق الرسول، بل ويقرون به سرًّا وجهرًا ويقولون: ليس بكاذب ولكنه لا نتبعه ولا نؤمن به.

وإذا كان الإيمان يزول بزوال عمل القلب فغير مستنكر أن يزول بزوال أعظم أعمال الجوارح ولاسيما إذا كان ملزومًا لعدم محبة القلب وانقياده، الذي هو ملزوم لعدم التصديق الجازم كما تقدم تقريره، فإنه يلزم من عدم طاعة القلب عدم طاعة الجوارح،

إذ لو أطاع القلب وانقاد أطاعت الجوارح وانقادت، ويلزم من عدم طاعته وانقياده عدم التصديق المستلزم للطاعة، وهو حقيقة الإيمان. فإن الإيمان ليس مجرد التصديق – كما تقدم – وإنما هو التصديق المستلزم للطاعة والانقياد. وهكذا الهدى ليس هو مجرد معرفة الحق وتبيينه، بل هو معرفته المستلزمة لاتباعه والعمل بموجبه، وإن سمي الأول هدي فليس هو الهدى التام المستلزم للاهتداء، كما أن اعتقاد التصديق - وإن سمي تصديقًا – فليس هو التصديق المسلتزم للإيمان. فعليك بمراجعة هذا الأصل ومراعاته.

وها هنا أصل آخر: وهو أن الكفر نوعان: كفر عمل، وكفر جحود وعناد.

فكفر الجحود: أن يكفر بما علم أن الرسول جاء به من عند الله جحودًا وعنادًا، من أسماء الرب وصفاته وأفعاله وأحكامه. وهذا الكفر يضاد الإيمان من كل وجه.

وأما كفر العمل: فينقسم إلى ما يضاد الإيمان، وإلى ما لا يضاده فالسجود للصنم، والاستهانة بالمصحف، وقتل النبي وسبه يضاد الإيمان.

وأما الحكم بغير ما أنزل الله[1]، وترك الصلاة فهو من الكفر العملي قطعًا، ولا يمكن أن ينفي عنه اسم الكفر بعد أن أطلقه الله ورسوله عليه. فالحكم بغير ما أنزل الله كافر وتارك الصلاة كافر بنص رسول الله ﷺ ولكن هو كفر عمل لا كفر اعتقاد. ومن الممتنع أن يسمي الله سبحانه الحاكم بغير ما أنزل الله كافرًا، ويسمي رسول الله ﷺ تارك الصلاة كافرًا[2]، ولا يطلق عليهما اسم الكفر. وقد نفى رسول الله ﷺ عن الزاني والسارق وشارب الخمر، وعمن لا يأمن جاره بوائقه. وإذا نفى عنه اسم الإيمان فهو كافر من جهة العمل، وانتفى عنه كفر الجحود والاعتقاد.

وكذلك قوله: «لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض»[3]. فهذا كفر عمل. وكذلك قوله: «من أتى كاهنًا فصدقه بما يقول أو أتى امرأته في دبرها فقد

---

(١) سيأتي بعد تمام هذا النص إن شاء الله مزيد من التفصيل في هذه الفقرة وبيان متى يكون ذلك مخرج من الملة ومتى لا يكون.

(٢) انظر صحيح مسلم كتاب الإيمان ج١/٨٨ ح٨٢.

(٣) صحيح مسلم كتاب الإيمان ج١/٨١ ح٦٥.

بريئ مما أنزل على محمد»[١] وقوله: «إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر فقد باء بها أحدهما[٢].

وقد سمى الله سبحانه وتعالى من عمل ببعض كتابه، وترك العمل ببعضه مؤمنًا بما عمل به وكافرًا بما ترك العمل به فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥)﴾ [البقرة: ٨٤، ٨٥].

فأخبر سبحانه أهم أقروا بميثاقه الذي أمرهم به والتزموه، وهذا يدل على تصديقهم به أهم لا يقتل بعضهم بعضًا، ولا يخرج بعضهم بعضًا من ديارهم، ثم أخبر أهم عصوا أمره وقتل فريق منهم فريقًا وأخرجوهم من ديارهم. فهذا كفرهم بما أخذ عليهم في الكتاب. ثم أخبر أهم يفدون من أسر من ذلك الفريق، وهذا إيمان منهم بما أخذ عليهم في الكتاب، فكانوا مؤمنين بما عملوا به من الميثاق، كافرين بما تركوه منه.

فالإيمان العملي يضاده الكفر العملي، والإيمان الاعتقادي يضاده الكفر الاعتقادي. وقد أعلن النبي ﷺ بما قلناه في قوله في الحديث الصحيح: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»[٣] ففرق بين قتاله وسبابه. وجعل أحدهما فسوقًا لا يكفر به، والآخر كفرًا. ومعلوم أنما أراد الكفر العملي لا الاعتقادي[٤]، وهذا الكفر لا يخرجه من الدائرة

(١) أبو داود في الطب ج٤/٢٢٥ ح ذا؟. وانظر مشكاة المصابيح ٢/١٢٩٤، ٤٥٩٩، وقال: الألباني إسناده صحيح.

(٢) صحيح مسلم كتاب الإيمان ج١/٧٩ ح٦٠.

(٣) صحيح مسلم كتاب الإيمان ج١/٨١ ح٦٤.

(٤) لعل ابن القيم يقصد قتال المسلمين مع بعضهم البعض كما حصل بين الصحاة رضي الله =

الإسلامية والملة بالكلية، كما لا يخرج الزاني والسارق والشارب من الملة وإن زال عنه اسم الإيمان.

وهذا التفصيل هو قول الصحابة الذين هم أعلم الأمة بكتاب الله وبالإسلام والكفر ولوازمهما فلا تتلقى هذه المسائل إلا عنهم، فإن المتأخرين لم يفهموا مرادهم فانقسموا فريقين: فريقًا أخرجوا من الملة بالكبائر، وقضوا على أصحابها بالخلود في النار[1]، وفريقًا جعلوهم مؤمنين كاملي الإيمان[2] فهؤلاء غلوا، وهؤلاء جفوا. وهدى الله أهل السنّة للطريقة المثلى والقول الوسط الذي هو في المذاهب كالإسلام في الملل. فها هنا كفر دون كفر ونفاق دون نفاق، وشرك دون شرك، وفسوق دون فسوق، وظلم دون ظلم. قال سفيان بن عيينة: عن هشام بن حجير عن طاووس عن ابن عباس في قوله:

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٤].

قال: هو بهم كفر، وليس كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله، وقال في رواية أخرى عنه: كفر لا ينقل عن الملة. وقال طاووس: ليس بكفر ينقل عن الملة[3]. وقال وكيع بن سفيان عن ابن جريج عن عطاء: كفر دون كفر وظلم دون ظلم وفسق دون فسق[4] وهذا الذي قاله عطاء بين في القرآن لمن فهمه، فإن الله سبحانه سمى الحاكم بغير ما أنزله كافرًا، وسمى جاحد ما أنزله على رسوله كافرًا. وليس الكافران على حد سواء.

=عنهم، أما من يريد قتل المؤمنين ويشن الحرب على الإسلام والمسلمين فهذا لاشك في كفره المخرج من الملة. كما هو حال أعداء الإسلام الذين لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة بل هدفهم ﴿ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء﴾ [النساء: ٨٩].

(١) يريد فرقة الخوارج.

(٢) يقصد المرجئة.

(٣) تفسير ابن كثير ج٣/١١١.

(٤) المصدر السابق ٣/١١١.

﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البقرة: ٢٥٤].

وسمى متعدي حدوده في النكاح والطلاق والرجعة والخلع ظالمًا فقال: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطلاق: ١].

وقال نبيه يونس: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وقال صفيه آدم: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣].

وقال كليمه موسى: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ [القصص: ١٦].

وليس هذا الظلم مثل ذلك الظلم.

ويسمى الكافر فاسقًا: كما في قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٦، ٢٧].

وقال: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [البقرة: ٩٩]. وهذا كثير في القرآن.

ويسمى المؤمن فاسقًا: كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾ [الحجرات: ٦]. نزلت في الحكم بن أبي العاص.

وليس الفاسق كالفاسق. وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾﴾ [النور: ٤].

وقال عن إبليس: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠].

وقال: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ﴾ [البقرة: ١٩٧]. وليس

الفسوق كالفسوق.

والكفر كفران، والظلم ظلمان، والفسق فسقان.

وكذا الجهل جهلان: جهل كفر كما في قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩]. وجهل غير كفر كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧].

وكذلك الشرك شركان: شرك ينقل عن الملة وهو الشرك الأكبر، وشرك لا ينقل عن الملة وهو الشرك الأصغر، وهو شرك العمل بالرياء. قال تعالى في الشرك الأكبر: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢]. وقال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج: ٣١]. وفي شرك الرياء: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

ومن هذا الشرك الأصغر قوله ﷺ: «من حلف بغير الله فقد أشرك» رواه أبو داود وغيره[1] ومعلوم أن حلفه بغير الله لا يخرجه عن الملة، ولا يوجب له حكم الكفار. ومن هذا قوله ﷺ: «الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل»[2].

فانظر كيف انقسم الشرك والكفر والفسوق والظلم والجهل إلى ما هو كفر ينقل عن الملة، وإلى ما لا ينقل عنها.

وكذا النفاق نفاقان: نفاق اعتقاد، ونفاق عمل.

---

(١) أبو داود كتاب الأيمان والنذور ج٣/٥٧٠ ح٣٢٥١ وأخرجه الترمذي في النذور والأيمان ٥/٢٥٣ ح١٥٣٥ واللفظ عنده فقد كفر أو أشرك وقال: حديث حسن وقال الشوكاني صححه الحاكم. انظر نيل الأوطار ٨/٢٥٧.

(٢) المسند ٤/٤٠٣. قال الألباني: صحيح، انظر صحيح الجامع الصغير ٣/٢٣٣ ح٣٦٢٤.

فنفاق الاعتقاد: هو الذي أنكره الله على المنافقين في القرآن وأوجب لهم الدرك الأسفل من النار.

ونفاق عمل: كقوله ﷺ في الحديث الصحيح: «آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»[1]. وفي الصحيح أيضًا: «أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا ائتمن خان». فهذا نفاق عمل، قد يجتمع مع أصل الإيمان، ولكن إذا استحكم وكمل فقد ينسلخ صاحبه عن الإسلام بالكلية، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم، فإن الإيمان ينهي المؤمن عن هذه الخلال، فإذا كملت في العبد ولم يكن له ما ينهاه عن شيء منها فهذا لا يكون إلا منافقًا خالصًا.

وكلام الإمام أحمد يدل على هذا، فإن إسماعيل بن سعيد الشالنجي[2] قال: سألت أحمد بن حنبل عن المصر على الكبائر يطلبها بجهده، إلا أنه لم يترك الصلاة والزكاة والصوم، هل يكون مصرًا من كانت هذه حاله؟ قال: هو مصر مثل قوله: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»[3]، يخرج من الإيمان ويقع في الإسلام، ونحو قوله: «لا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن»[4]. ونحو قول ابن عباس في قوله:

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝٤٤﴾ [المائدة: ٤٤].

---

(١) صحيح البخاري كتاب الإيمان ج١/٨٩ ح٣٣، ٣٤ وصحيح مسلم كتاب الإيمان ج١/ ٧٨ ح٥٨، ٥٩.

(٢) هو إسماعيل بن سعيد الشالنجي أبو إسحاق ذكره أبو بكر الخلال فقال: عنده مسائل كثيرة، ما أحسب أحدًا من أصحاب أبي عبد الله – لأحمد بن حنبل – روي عنه أحسن مما روي هذا، ولا أشبع ولا أكثر مسائل منه. وكان عالمًا بالرأي كبير القدر عندهم معروفًا، له كتاب ترجمة بالبيان على ترتيب الفقهاء. انظر طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ج١/١٠٤.

(٣) صحيح مسلم كتاب الإيمان ج١/٧٦ ح ٥٧.

(٤) صحيح مسلم كتاب الإيمان ج١/٧٦ ح ٥٧.

قال إسماعيل: فقلت له ما هذا الكفر؟ قال: لا ينقل عن الملة، مثل الإيمان بعضه دون بعض، فكذلك الكفر حتى يجيء من ذلك أمر لا يختلف فيه.

وها هنا أصل آخر: وهو أن الرجل قد يجتمع فيه كفر وإيمان، وشرك وتوحيد وتقوى وفجور، ونفاق وإيمان. وهذا من أعظم أصول أهل السنة، وخالفهم فيه غيرهم من أهل البدع كالخوارج والمعتزلة[1]، والقدرية[2].

ومسألة خروج أهل الكبائر من النار وتخليدهم فيها مبنية على هذا الأصل، وقد دل عليه القرآن والسنة والفطرة وإجماع الصحابة. قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

فأثبت لهم إيمانًا به سبحانه مع الشرك، وقال تعالى: ﴿۞قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [الحجرات: ١٤].

فأثبت لهم إسلامًا وطاعة لله ورسوله مع نفي الإيمان عنهم وهو الإيمان المطلق الذي يستحق اسمه بمطلقه ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الحجرات: ١٥].

وهؤلاء ليسوا منافقين في أصح القولين، بل هم مسلمون بما معهم من طاعة الله ورسوله، وليسوا مؤمنين. وإن كان معهم جزء من الإيمان أخرجهم من الكفار.

---

(١) المعتزلة: هم الذين قالوا بخلق القرآن وجحدوا الرؤية. ويكذبون بعذاب القبر والشفاعة، والحوض، ولا يرون الصلاة خلف أحد من أهل القبلة، ولا الجمعة إلا وراء من كان على أهوائهم. انظر في ذلك كتاب السنة للإمام أحمد ص٨١ وتلبيس إبليس لابن الجوزي ص٣٠.

(٢) القدرية: هم الذين يزعمون أن إليهم الاستطاعة والمشيئة والقدرة، وأنهم يملكون لأنفسهم الخير والشر والضر والنفع، والطاعة والمعصية، والهدى والضلال، وأن العباد يعملون بدءًا من غير أن يكون سبق لهم ذلك من الله عز وجل أو في علمه وقولهم يضارع قول المجوسية. انظر السنة للإمام أحمد ص٨١.

قال الإمام أحمد: من أتى هذه الأربعة أو مثلهن أو فوقهن – يريد الزنا والسرقة وشرب الخمر والانتهاب – فهو مسلم ولا أسميه مؤمنًا، ومن أتى دون ذلك – يريد دون الكبائر – سميته مؤمنًا ناقص الإيمان، فقد دل على هذا قوله ﷺ: «فمن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق». فدل على أنه يجتمع في الرجل نفاق وإسلام.

كذلك الرياء شرك، فإذا راءى الرجل في شيء من عمله اجتمع فيه الشرك والإسلام.

وإذا حكم بغير ما أنزل الله، أو فعل ما سماه رسول الله ﷺ كفرًا، وهو ملتزم للإسلام وشرائعه فقد قام به كفر وإسلام.

وقد بيّنا أن المعاصي كلها شعب من شعب الكفر، كما أن الطاعات كلها شعب من شعب الإيمان فالعبد تقوم به شعبة أو أكثر من شعب الإيمان، وقد يسمى بتلك الشعبة مؤمنًا، وقد لا يسمى. كما أنه قد يسمى بشعبة من شعب الكفر كافرًا، وقد لا يطلق عليه هذا الإسلام.

فها هنا أمران: أمر اسمي لفظي، وأمر معنوي حكمي.

فالمعنوي: هل هذه الخصلة كفر أم لا؟

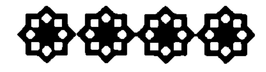
واللفظي: هل يسمى من قام به كافرًا أم لا؟

فالأمر الأول: شرعي محض، **والثاني**: لغوي وشرعي.

وها هنا أصل آخر: وهو أنه لا يلزم من قيام شعبة من شعب الإيمان بالعبد أن يسمى مؤمنًا وإن كان ما قام به إيمانًا، ولا من قيام شعبة من شعب الكفر به أن يسمى كافرًا، وإن كان ما قام به كفرًا. كما أنه لا يلزم من قيام جزء من أجزاء العلم به أن يسمى عالمًا: ولا من معرفة بعض مسائل الفقه والطب أن يسمى فقيهًا ولا طبيبًا، ولا يمنع ذلك أن تسمى شعبة الإيمان إيمانًا، وشعبة النفاق نفاقًا، وشعبة الكفر كفرًا.

وقد يطلق عليه الفعل كقوله: «فمن تركها فقد كفر» و«من حلف بغير الله فقد كفر» وقوله: «من أتى كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر ومن حلف بغير الله فقد كفر». رواه الحاكم في صحيحه بهذا اللفظ. فمن صدر منه خلة من خلال الكفر فلا يستحق اسم كافر على الإطلاق، وكذا يقال لمن ارتكب محرمًا أنه فعل فسوقًا وأنه فسق بذلك المحرم، ولا يلزمه اسم فاسق إلا بغلبة ذلك عليه[1] ا.هـ.

ولي على هذا النص تعليق:



(١) كتاب الصلاة: للعلامة محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية ص٢٥-٣١، الطبعة الثانية سنة ١٣٩١هـ المكتبة السلفية بمصر.

تعليق لابد منه

في النص المتقدم بعض العبارات التي قد توهم بعض الناس في قضية «الحاكمية» حيث ذكر ابن القيم أن الحكم بغير ما أنزل الله كفر دون كفر. وهنا لا بد من إيضاح هذه القضية حتى يزول ما قد يحصل من إشكال.

إن المجتمع الإسلامي منذ قيامه على يد رسول الله ﷺ قد قام على الحكم بشريعة الله، ومضي على ذلك خلفاؤه الراشدون، ثم الخلفاء الأمويون مضوا على ذلك وإن كان بدر منهم بعض الانحرافات، إلا أن الحكم الذي يتحاكم إليه الناس هو شرع الله، يظلهم برايته ويرعاهم بحكمته وعدالته. ثم جاءت الدولة العباسية وكان الشرع أيضًا هو نظام الحكم مع وجود ثغرات قوية بعض الشيء. ثم جاء التتار، وأتى «هولاكو» بالياسق – وسيرد كلام العلماء بخصوصه في مكانه المناسب إن شاء الله –.

ولما كان الأمر كذلك فإن كلام السلف ومنهم ابن القيم كلام لا غبار عليه، فإذا حكم الحاكم برشوة أو لقرابة، أو شفاعة أو ما أشبه ذلك فلا شك أن ذلك كفر دون كفر.

وأما ما جد في حياة المسلمين – ولأول مرة في تاريخهم – وهو تنحية شريعة الله ورميها بالرجعية والتخلف وأنها لم تعد تواكب التقدم الحضاري، والعصر المتطور فهذه ردة جديدة على حياة المسلمين. إذ الأمر لم يقتصر على تلك الدعاوى التافهة، بل تعداه إلى إقصائها فعلاً عن واقع الحياة واستبدال الذي هو أدنى بها، فحل محلها القانون الفرنسي أو الإنجليزي أو الأمريكي أو الاشتراكية الإلحادية ما أشبه ذلك من تلك النظم الجاهلية الكافرة.

ولي على هذا الكلام أدلة كثيرة منها:

١) ما أورده ابن القيم نفسه رحمه الله من قول الإمام أحمد الذي تقدم ص٥٤ وهو

قوله: حتى يجيء من ذلك أمر لا يختلف فيه.

نعم إنه أمر لا يختلف فيه أبدًا وهو أن تنحية الشريعة ورميها بالقصور والنقصان وأن القانون أكمل منها، وألين منها في مسايرة تطورات العصر كفر صريح.

٢) ما أورده ابن القيم أيضًا ص٥٥ من أن الكفر الذي هو كفر دون كفر ينطبق على الحاكم «الملتزم للإسلام وشرائعه» فهذا إذا خالف النص أو حاد عنه – كما تقدم شرحه – هو الذي ينطبق عليه هذا الحكم. وليس الأمر ساريًا على من يحل القانون محل شرع الله.

٣) قضية التحليل والتحريم، والتشريع للناس، اتفقت أقوال العلماء قديمًا وحديثًا على أن ذلك من خصائص رب العالمين ﷻ فمن ادعاها لنفسه فقد ألّه نفسه ونصبها ندًّا يُعبد من دون الله وسيرد إيضاح هذا قريبًا.

٤) إن إقصاء الشريعة الربانية وإحلال أهواء البشر محلها هذا من الأشياء التي كفّر العلماء قديمًا وحديثًا فاعلها لأنها من المعلوم من الدين بالضرورة. وهل يجادل أحد في ذلك والله يقول:

﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فكما أنه سبحانه – وباعتراف الناس – مؤمنهم وكافرهم – هو خالق السماء والأرض، فهو أيضًا صاحب الأمر والسلطان، والحكم والسيادة[1].

٥) يوضح كلمة الإمام أحمد رحمه الله وهي قوله: «حتى يجيء من ذلك أمر لا يُختلف فيه» علم من أعلام المسلمين هو الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله حيث يقول: «إن من الكفر الأكبر المستبين تنزيل القانون اللعين منزلة ما نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ ليكون من المنذرين بلسان عربي مبين»[2].

(١) انظر تفسير هذه الآية للشهيد سيد قطب رحمه الله في كتابه «ظلال القرآن» ج١٢٩٧/٣ طبع دار الشروق وتفسير ابن كثير.

(٢) تحكيم القوانين ص١ طبع سنة ١٣٨٠هـ مطابع الثقافة بمكة.

٦) ما ذكره أيضًا ابن القيم رحمه الله في كتاب «مدارج السالكين» حيث قال بعد أن أورد الأقوال في قضية الحكم قال: «والصحيح أن الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكفرين، الأصغر والأكبر بحسب حال الحاكم فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله في هذه الواقعة، وعدل عنه عصيانًا مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة، فهذا كفر أصغر. وإن اعتقد أنه غير واجب «وأنه مخير فيه مع تيقنه أنه حكم الله. فهذا كفر أكبر، وإن جهله وأخطأ: فهذا مخطيء له حكم المخطئين»[(١)].

٧) ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتاب «منهاج السنّة» حيث قال: «ولا ريب أن من لم يعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله على رسوله فهو كافر. فمن استحل أن يحكم بين الناس بما يراه هو عدلاً من غير اتباع لما أنزل الله فهو كافر. فإنه ما من أمة إلا وهي تأمر بالحكم بالعدل، وقد يكون العدل في دينها ما رآه أكابرهم، بل كثير من المنتسبين إلى الإسلام يحكمون بعاداقم التي لم ينزلها الله، كسواليف البادية[(٢)] وكانوا الأمراء المطاعين، ويرون أن هذا هو الذي ينبغي الحكم به دون الكتاب والسنّة، وهذا هو الكفر، فإن كثيرًا من الناس أسلموا ولكن لا يحكمون إلا بالعادات الجارية التي يأمر بها المطاعون، فهؤلاء إذا عرفوا أنه لا يجوز لهم الحكم إلا بما أنزل الله، فلم يلتزموا ذلك، بل استحلوا أن يحكموا بخلاف ما أنزل الله فهم كفار»[(٣)].

٨) يقول العلامة ابن القيم في تفسير قوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩٨﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨].

هذه التسوية إنما كانت في الحب والتأليه واتباع ما شرعوا، لا في الخلق والقدرة والربوبية، وهي العدل الذي أخبر به عن الكفار كقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ

(١) مدارج السالكين ج١/٣٣٧.

(٢) أي عادات وتقاليد أهل البادية.

(٣) مجموعة التوحيد الرسالة الثانية عشرة ص٢٧٨ ط دار الفكر.

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ [الأنعام: ١].

وأصح القولين: أن المعنى: ثم الذين كفروا برهم يعدلون، فيجعلون له عدلاً يحبونه ويقدسونه ويعبدونه، كما يعبدون الله ويعبدونه، ويعظمون أمره وهذه التسوية لم تكن منهم في الأفعال والصفات، بحيث اعتقدوا أنها مساوية لله سبحانه في أفعاله وصفاته، وإنما كانت تسوية منهم بين الله وبينها في المحبة والعبودية والتعظيم مع إقرارهم بالفرق بين الله وبينها، فتصحيح هذه: هو تصحيح شهادة أن لا إله إلا الله[١].

وإن مما يزيد إيضاح الحقيقة في أمر إحلال القانون والهوى محل الشرع، ما ذكره العلماء من أن كفر الاعتقاد ينقسم إلى خمسة أنواع[٢] هي:

١) **كفر تكذيب**: وهو اعتقاد كذب الرسل. وهذا القسم قليل في الكفار، فإن الله تعالى أيد رسله، وأعطاهم من البراهين والآيات على صدقهم ما أقام به الحجة وأزال به المعذرة. قال تعالى عن فرعون وقومه:

﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

وقال لرسوله ﷺ : ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٣٣﴾ [الأنعام: ٣٣].

٢) **كفر إباء واستكبار**: مثل كفر إبليس: ومن هذا كفر من عرف الرسول و لم ينقد له إباء واستكبارًا وهو الغالب على كفر أعداء الرسل كما قال تعالى عن فرعون وقومه:

﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ۝٤٧﴾ [المؤمنون: ٤٧].

---

(١) التفسير القيم ص٣٩٦.

(٢) أوردها العلامة ابن القيم في «مدارج السالكين» ج١/٣٣٧، ٣٣٨.

ومنه كفر أبي طالب فإنه صدقه و لم يشك في صدقه ولكن أخذته الحمية، وتعظيم آياته أن يرغب عن ملتهم.

٣) **كفر إعراض**: مثل من يعرض عن الرسول ﷺ لا يسمعه، ولا يصدقه، ولا يكذبه ولا يواليه ولا يعاديه ولا يصغي إلى ما جاء به ألبتة، كما قال أحد بني عبد ياليل للنبي ﷺ : والله أقول لك كلمة: إن كنت صادقًا فأنت أجل في عيني من أن أرد عليك وإن كنت كاذبًا فأنت أحقر من أن أكلمك[1].

٤) **كفر الشك**: حيث لا يجزم بصدقه، ولا يكذبه، بل يشك في أمره، وهذا لا يستمر شكه إلا إذا ألزم نفسه الإعراض عن النظر في آيات صدق الرسول ﷺ جملة، وأما مع التفاته إليها ونظره فيها فإنه لا يبقى معه شك لأنها مستلزمة للصدق.

٥) **كفر نفاق**: وهو أن يظهر بلسانه الإيمان وينطوي بقلبه التكذيب وهذا هو النفاق الأكبر.

وبعد أن وضحنا الكفر بنوعيه – نعوذ بالله منه – ننتقل إلى تبيان الشرك – نعوذ بالله منه – وهو كما ورد سابقًا في كلام ابن القيم ينقسم إلى أكبر مخرج من الملة، وإلى أصغر وهو الرياء.

أما الشرك الأكبر فدليله قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ١١٦].

وهو أربعة أنواع: كما ذكر ذلك الشيخ محمد بن عبد الوهاب وهي:

١) **شرك الدعوة**: قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا

(١) علق الشيخ محمد حامد الفقي على هذا بقوله «وهو كفر الملحدين اليوم من المتسمين بأسماء إسلامية، المقلدين للإفرنج من اليهود والنصارى، المنحلين عن كل خلق وفضيلة، زاعمين بجاهليتهم وسفههم أن هذا هو سبيل الرقي والمدنية «مدارج السالكين» ١/٢٢٨ الحاشية.

﴿... نَجَّنٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥].

٢) **شرك النية والإرادة والقصد**: قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥، ١٦].

٣) **شرك الطاعة**: قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

وفي الحديث: عن عدي بن حاتم حين سمع رسول الله ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم؟ فقال: «بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم»(١). قال حذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وغيرهما في تفسيرها: إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا.

٤) **شرك المحبة**: قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾(٢) [البقرة: ١٦٥].

أما النفاق: فمنه ما هو مخرج من الملة، وهذا هو النفاق الأكبر وفيه يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «والنفاق منه ما هو أكبر، يكون صاحبه في الدرك الأسفل من النار، كنفاق عبد الله بن أبيّ وغيره، بأن يظهر تكذيب الرسول، أو جحود بعض ما جاء به، أو بغضه، أو عدم اعتقاد وجوب اتباعه، أو المسرة بانخفاض دينه، أو المساءة بظهور دينه، ونحو ذلك مما لا يمكن صاحبه إلا عدوًّا لله ورسوله»(٣).

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير ج٨/٢٤٨ ح٣٠٩٤ تحقيق الدعاس قال الترمذي: هذا حديث غريب. وأورده ابن كثير في تفسير هذه الآية ج٤/٧٧ وعزاه للإمام أحمد وابن جرير. وقال الألباني حديث حسن. انظر غاية المرام في تخريج الحلال والحرام ص٢٠.

(٢) مجموعة التوحيد ص٣.

(٣) الفتاوى ج٢٨/٤٣٤.

وأما الردة: فهي الكفر بعد الإيمان فمن (قال الكفر أو فعله أو رضي به مختارًا كفر، وإن كان مع ذلك يبغض بقلبه، وبهذا قال علماء السنّة والحديث، وذكروا ذلك في كتبهم فقالوا: إن المرتد هو الذي يكفر بعد إسلامه إما نطقًا، وإما فعلاً وإما اعتقادًا. وقرروا أن من قال الكفر كفر وإن لم يعتقده و لم يعمل به إذا لم يكن مكرهًا.

وكذلك إذا فعل الكفر كفر وإن لم يعتقده ولا نطق به، وكذلك إذا شرح بالكفر صدره أي فتحه ووسعه وإن لم ينطق بذلك و لم يعمل به. وهذا معلوم قطعًا من كتبهم ومن له ممارسة في العلم فلابد أن يكون قد بلغ طائفة من ذلك[1].

ومن باب التفضيل والتوضيح وذكر التفصيل بعد الإجمال: إليك نواقض الإسلام العشرة كما قررها أهل العلم.



(١) الدفاع للشيخ حمد بن عتيق ص٢٨ وانظر التشريع الجنائي ٢/٧٠٨ وكتاب الردة بين الأمس واليوم ص٣٣.

نواقض الإسلام

ذكر أهل العلم أن هناك عشرة نواقض هامة هي:

١) الشرك في عبادة الله وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ١١٦].

٢) من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم الشفاعة. كفر إجماعًا.

٣) من لم يكفر المشركين، أو شك في كفرهم، أو صحح مذهبهم. كفر إجماعًا.

٤) من اعتقد أن غير هدي النبي ﷺ أكمل من هديه، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه، كالذين يفضلون حكم الطاغوت على حكمه فهو كافر.

٥) من أبغض شيئًا مما جاء به الرسول ﷺ ولو عمل به كفر إجماعًا. والدليل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٩﴾ [محمد: ٩].

٦) من استهزأ بشيء من دين الله، أو ثوابه، أو عقابه، كفر والدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦].

٧) السحر، ومنه الصرف، والعطف فمن فعله أو رضي به كفر والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢].

٨) مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥١﴾ [المائدة: ٥١].

٩) من اعتقد أن بعض الناس لا يجب عليه اتباع النبي ﷺ وأنه يسعه الخروج من شريعته كما وسع الخضر الخروج من شريعة موسى عليهما السلام، فهو كافر.

١٠) الإعراض عن دين الله لا يتعلمه، ولا يعمل به، والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [السجدة: ٢٢].

ولا فرق في جميع هذه النواقض بين الهازل والجاد والخائف إلا المكره، وكلها من أعظم ما يكون خطرًا، ومن أكثر ما يكون وقوعًا، فينبغي للمسلم أن يحذرها ويخاف منها على نفسه[1].

ويجدر بنا ونحن نستعرض هذه النواقض أن نقف عند اثنين منها، نظرًا لأهميتها وخطورهما على حياة المسلمين وليتضح سبب الإسهاب في قضية الحاكمية وعلاقة الولاء والبراء بذلك:

الأول: (من اعتقد أن غير هدي النبي ﷺ أكمل من هديه، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه كالذين يفضلون حكم الطاغوت على حكمه فهو كافر).

إن تنحية شريعة الله عن مجرى الحياة، واستيراد قوانين البشر القاصرة: ردة جديدة برزت في القرون الأخيرة من حياة المسلمين، ذلك أن المجتمع الإسلامي عاش قرونًا طوالاً يستظل بشرع الله وتهيمن الشريعة على حياة أفراده حكامًا ومحكومين — مع وجود بعض المعاصي سواء كانت كبائر أم صغائر — ولكن نظام حياة الناس، والتشريع المنفذ في أمورهم هو شرع الله وحكمه، وكذلك جهاد الكفار ونشر كلمة الإسلام في الأرض كانت كل هذه الأمور في ازدياد وتوسع. أما رمي الشريعة الإسلامية بالقصور والرجعية وعدم مسايرة تطورات العصر فهذا شيء لم يحدث إلا بعد أن مكن المسلمون الاستعمار العالمي من ذلك وبعد أن نسوا الله فأنساهم أنفسهم.

ولقد جاء القرآن الكريم والسنة المطهرة بنصوص كثيرة صريحة واضحة حول قضية الحكم وأنها من عقيدة المسلم، ومن أهم أمور الدين قال تعالى:

---

(١) الدرر السنية ٨٩/٨، ٩٠ وانظر مؤلفات الإمام محمد بن عبد الوهاب ج٥/٢١٢-٢١٤.

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٤].

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المائدة: ٤٥].

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة: ٤٧].

وقال: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٥٠].

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ﴾ [الشورى: ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور: ٤٧-٥١].

ويقول سبحانه: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥].

ثم يبين سبحانه وتعالى زيف زعم من يدعي الإيمان ويريد التحاكم إلى الطاغوت فيقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ

ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ ﴾ [النساء: ٦٠، ٦١].

ولقد أحسن أحد العلماء في وصف من طمست بصيرته فاستبدل بالشريعة القانون حيث قال: إن مثل هذا مثل «الجعل يتأذى من رائحة المسك والورد الفواح، ويحيا بالعذرة والغائط في المستراح»(١). ولقد قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [المجادلة: ٢٠].

ومن أعظم المحادة لله ورسوله التولي عن حكم الله وشرعه وسنة نبيه ﷺ وما هذه الذلة التي يعيشها المسلمون اليوم في الأرض إلا نتيجة طبيعية لترك شرع الله فهاهم أولاء اليوم كثير ولكنهم غثاء كغثاء السيل، طمعت فيهم أحقر الأمم وسيطرت عليهم أراذل الناس، ولقد صدقت فيهم نبوة محمد ﷺ حيث قال: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها» فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: «بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن» فقال قائل: يا رسول الله: وما الوهن؟ قال: «حب الدنيا وكراهية الموت»(٢).

وإن جزءًا كبيرًا من هذا الانحراف الذي سيطر اليوم على حياة المسلمين يتحمله الذين يتزيون بزي العلماء ويحسنون للناس أن يستبدلوا بشرع الله أهواء البشر، إن هؤلاء ليحملون أوزراهم كاملة ومن أوزار الذين يضلونهم إلى يوم القيامة والإسلام بريء من هؤلاء. ويرحم الله علماء السلف الذين كانوا حماة على ثغور الإسلام حتى لا يؤتى الإسلام من قبل أحدهم.

فهذا الإمام الجليل الحافظ ابن كثير رحمه الله يذكر في كتابه «تفسير القرآن العظيم»

---

(١) الرسائل المنبرية ج١/١٣٩.

(٢) سنن أبي داود كتاب الملاحم ج٤/٤٨٤ ح٤٢٩٧. وقال في مشكاة المصابيح ورواه البيهقي في دلائل النبوة. ثم قال الشيخ الألباني وهو حديث صحيح. انظر مشكاة المصابيح ١٤٧٥/٣.

ما حل بالأمة الإسلامية أيام التتار، وذلك عند قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

قال: ينكر الله تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات، ما يضعونها بآرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكيز خان، الذي وضع لهم الياسق «وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى، من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت في بنيه شرعًا متبعًا، يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، ومن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله، حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير»(١).

ويوضح الشيخ محمد بن إبراهيم(٢) رحمه الله الحالات التي إن فعلها الحاكم دخلت في الكفر المخرج من الملة وهي:

١) إذا جحد الحاكم بغير ما أنزل الله أحقية حكم الله ورسوله. وهو معنى ما روي عن ابن عباس، واختاره ابن جرير، وجحود ما أنزل الله من الحكم الشرعي لا نزاع فيه بين أهل العلم، فإن الأصول المتقررة المتفق عليها بينهم، إن من جحد أصلاً من أصول الدين أو فرعًا مجمعًا عليه، أو أنكر حرفًا مما جاء به الرسول ﷺ قطعيًا فإنه كافر كفرًا ينقل عن الملة(٣).

---

(١) تفسير ابن كثير ج٣/١٢٣.

(٢) هو الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ مفتي الديار السعودية ولد سنة ١٣١١هـ ونشأ في بيت علم وفضل. وحفظ القرآن وهو في الحادية عشرة من عمره، وكف بصره وهو في الرابعة عشرة من عمره فصبر واحتسب. وتتلمذ على الشيخ سعد بن عتيق. وتوفي في رمضان سنة ١٣٨٩هـ عن عمر يناهز الثمانين عامًا. انظر ترجمته في كتاب علماء نجد للبسام ٨٨/١.

(٣) تحكيم القوانين ص٥.

٢) إن لم يجحد الحاكم بغير ما أنزل الله أن حكم الله ورسوله حق، ولكنه اعتقد أن حكم غير الرسول ﷺ أحسن من حكمه، وأتم وأشمل لما يحتاجه الناس وما استجد لهم من حوادث نشأت عن تطور الزمان، وتغيُر الأحوال فهذا أيضًا لا ريب في كفره لتفضيله أحكام المخلوقين التي هي زبالة الأذهان وحثالة الأفكار على حكم الحكيم الخبير. فإنه ما من قضية كائنة ما كانت إلا وحكمها في كتاب الله تعالى وسنّة رسوله ﷺ نصًّا أو ظاهرًا أواستنباطًا أو غير ذلك، علم ذلك من علمه وجهله من جهله.

٣) أن لا يعتقد كونه أحسن من حكم الله ورسوله، لكن اعتقد أنه مثله، فهذا كالنوعين السابقين كافر كفرًا ينقل عن الملة لما في ذلك من تسوية المخلوق بالخالق.

٤) من اعتقد جواز الحكم بما يخالف حكم الله ورسوله فهو كالذي قبله.

٥) من أعظم ذلك وأظهرها معاندة للشرع ومكابرة لأحكامه، ومشاقة لله ولرسوله: إيجاد المحاكم الوضعية التي مراجعها القانون الوضعي، كالقانون الفرنسي أو الأمريكي أو البريطاني أو غيرها من مذاهب الكفار، وأي كفر فوق هذا الكفر؟! وأي مناقضة للشهادة بأن محمدًا رسول الله بعد هذه المناقضة؟!(١).

٦) ما يحكم به كثير من رؤساء العشائر والقبائل من البوادي ونحوهم من حكايات آبائهم وأجدادهم وعاداتهم التي يسمونها «سلومهم» يتوارثون ذلك منهم ويحكمون به رغبة وإعراضًا عن حكم الله.

(أما الكفر الذي لا ينقل عن الملة: والذي ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما بأنه كفر دون كفر وقوله أيضًا: «ليس بالكفر الذي تذهبون إليه» فذلك مثل، أن تحمله شهوته وهواه على الحكم في القضية بغير ما أنزل الله مع اعتقاده أن حكم الله ورسوله هو الحق، واعترافه على نفسه بالخطأ ومجانبة الهدى. وهذا وإن لم يخرجه كفره عن الملة فإنه معصية عظمى أكبر من الكبائر كالزنا وشرب الخمر والسرقة وغيرها فإن معصية

(١) المصدر السابق ص٧.

سماها الله في كتابه كفرًا أعظم من معصية لم يسمها الله كفرًا[1].

وإن الذي جعلنا نسهب في ذكر شئون الحاكمية وتفصيل أحوالها هو خطورتها وعظمها. فإن موالاة الحاكم بغير ما أنزل الله وإقرار تشريعه للناس من عند نفسه وتحليله وتحريمه ما لم يأذن به الله، مناقضة للشهادة بأن الله هو الإله الذي تألهه القلوب بالحب والتعظيم والطاعة والانقياد، ومناقضة للشهادة بأن محمدًا رسول الله فهو المطاع فيما أمر ونهى عنه وزجر ولو فهم الناس هذا لما بقي لطاغية في الأرض حق الوجود والتشريع. وإقرار الكفر وتنحية شرع الله المحكم.

الثاني: من الأمور التي يجب أن نتدبرها بروية — من نواقض الإسلام — مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين، والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

وهذا من أعظم النواقض التي وقع فيها سواد الناس اليوم في الأرض، وهم بعد ذلك يحسبون على الإسلام ويتسمون بأسماء إسلامية فلقد صرنا في عصر يستحي فيه أن يقال للكافر: يا كافر!! بل زاد الأمر عتوًّا بنظرة الإعجاب والإكبار والتعظيم والمهابة لأعداء الله، وأصبحوا موضع القدوة والأسوة لضعاف الإيمان، ينظرون إلى أعداء الله نظرة انبهار ملؤها التمني أن يكونوا مثلهم حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلوه.

مظاهرة أخذت صورًا شتى فمن الميل القلبي إلى انتحال مذاهبهم الإلحادية إلى مجاراتهم في تشريعاتهم، إلى كشف عورات المسلمين لهم، إلى كل صغير وكبير في حياتهم. وسيأتي تفصيل الحديث في هذا الأمر — إن شاء الله — في فصل صور الموالاة.

من هنا فإن إدراك حقيقة هذه العقيدة ونواقضها، أمر كفيل بأن يجعل المسلم على بصيرة من أمره في عقيدة الولاء والبراء. حسب المقياس الشرعي الصحيح، وليس حسب مقياس أهواء البشر. إنه لا ولاء إلا لله ولرسوله ودينه والمؤمنين. والبراء من كل متبوع أو مرغوب أو مرهوب يحاد الله ورسوله.

---

(١) المصدر السابق ص٨.

الباب الأول

مفهوم الولاء والبراء

الفصل الأول: تعريفه وأهميته في الكتاب والسنة

الولاء في اللغة: جاء في لسان العرب: الموالاة – كما قال ابن الأعرابي –: أن يتشاجر اثنان فيدخل ثالث بينهما للصلح، ويكون له في أحدهما هوى فيواليه أو يحابيه. ووالى فلان فلانًا: إذا أحبه.

والمولى: اسم يقع على جماعة كثيرة، فهو: الرب، والمالك، والسيد، والمنعم، والمعتق، والناصر، والمحب، والتابع، والجار، وابن العم، والحليف، والعقيد، والصهر، والعبد، والمعتق، والمنعم عليه. ويلاحظ في هذه المعاني أنها تقوم على النصرة والمحبة[1].

والولاية – بالفتح – في النسب والنصرة والعتق والموالاة – بالضم – من والى القوم. قال الشافعي في قوله ﷺ: «من كنت مولاه فعلي مولاه»[2] يعني بذلك ولاء الإسلام، كقوله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [محمد: ١١].

والموالاة ضد المعاداة،والولي ضد العدو، قال تعالى:

﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ [مريم: ٤٥].

---

(١) لسان العرب لابن منظور ج٣/٩٨٥-٩٨٦ وانظر القاموس المحيط ٤/٢٩٤ط٣.

(٢) أخرجه أحمد في المسند عن البراء ٤/٢٨١ وأيضًا عن زيد بن أرقم ٤/٣٦٨، ٣٧٠، ٣٧٢ والترمذي في المناقب ج٩/٣٠٠ ح٣٧١٤ وقال حديث حسن صحيح غريب. وقال الألباني صحيح. انظر صحيح الجامع الصغير ٦/٣٥٣ ح٦٣٩٩.

قال ثعلب: كل من عبد شيئًا من دون الله فقد اتخذه وليًا. وقوله تعالى:

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وليهم في نصرهم على عدوهم،وإظهار دينهم على دين مخالفيهم.

وقيل: وليهم أي: يتولى ثوابهم ومجازاتهم بحسن أعمالهم.

والوَلْيُ: القرب والدنو[١]. والموالاة: المتابعة.

والتولي: يكون بمعنى الإعراض، ويكون بمعنى الاتباع. قال تعالى:

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

أي: إن تعرضوا عن الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: ٥١].

معناه: من يتبعهم وينصرهم[٢].

قال صاحب «المصباح المنير» الولي: فعيل بمعنى فاعل، من وليه إذا قام به، ومنه قوله تعالى:

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٧].

ويكون الولي: بمعنى مفعول، في حق المطيع، فيقال: المؤمن ولي الله. ووالاه موالاة وولاء: من باب «قاتل» أي تابعه[٣].

تعريف البراء في اللغة: قال ابن الأعرابي: برئ إذا تخلص،وبرئ، إذا تنزه وتباعد،

(١) لسان العرب ٩٨٦/٣.

(٢) لسان العرب ؟/٩٨٨.

(٣) المصباح المنير للفيومي ٨٤١/٢.

وبرئ: إذا أعذر وأنذر، ومنه قوله تعالى:

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ [التوبة: ١]: أي إعذار وإنذار.

وفي حديث أبي هريرة ﷺ لما دعاه عمر إلى العمل فأبى قال عمر: إن يوسف قد سأل العمل، فقال أبو هريرة: إن يوسف مني بريء وأنا منه براء[١]. أي بريء عن مساواته في الحكم وإن أقاس به، ولم يرد براءة الولاية والمحبة لأنه مأمور بالإيمان به، انتهى من النهاية.

والبراء والبريء سواء.

وليلة البراء: ليلة يتبرأ القمر من الشمس، وهي أول ليلة من الشهر[٢].

تعريف الولاء بالمعنى الاصطلاحي: الولاية هي النصرة والمحبة والإكرام والاحترام والكون مع المحبوبين ظاهرًا وباطنًا. قال تعالى:

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ﴾ [البقرة: ٢٥٧][٣].

فموالاة الكفار تعني التقرب إليهم وإظهار الود لهم، بالأقوال والأفعال والنوايا[٤].

تعريف البراء بالمعنى الاصطلاحي: هو البعد والخلاص والعداوة بعد الإعذار والإنذار.

شرح تعريف الولاء والبراء: قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الولاية: ضد العداوة. وأصل الولاية: المحبة والقرب، وأصل العداوة: البغض والبعد.. والولي: القريب يقال:

---

(١) هذا الأثر ذكره ابن الأثير في كتابه النهاية في غريب الحديث ١١٢/١ تحقيق الزاوي والطناحي.

(٢) لسان العرب ١٨٣/١ والقاموس المحيط ٨/١.

(٣) شرح الطحاوية ص٤٠٣ وتيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد ص٤٢٢.

(٤) كتاب الإيمان لنعيم ياسين ص١٤٥.

هذا يلي هذا: أي يقرب منه، ومنه قوله ﷺ: «ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فهو لأولى رجل ذكر»[١] أي لأقرب رجل إلى الميت.

فإذا كان ولي الله هو الموافق المتابع له فيما يحبه ويرضاه، ويبغضه ويسخطه ويأمر به وينهى عنه، كان المعادي لوليه معاديًا له. كما قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١].

فمن عادى أولياء الله فقد عاداه، ومن عاداه فقد حاربه ولهذا جاء في الحديث: «ومن عادى لي وليًا فقد بارزني بالمحاربة»[٢].

ومسمى الموالاة (لأعداء الله): يقع على شعب متفاوتة منها ما يوجب الردة وذهاب الإسلام بالكلية، ومنها ما هو دون ذلك من الكبائر والمحرمات[٣]. ولما عقد الله الأخوة والمحبة والموالاة والنصرة بين المؤمنين، ونهى عن موالاة الكافرين كلهم من يهود ونصارى وملحدين ومشركين وغيرهم كان من الأصول المتفق عليها بين المسلمين: أن كل مؤمن موحد تارك لجميع المكفرات الشرعية تجب محبته وموالاته ونصرته، وكل من كان بخلاف ذلك وجب التقرب إلى الله ببغضه ومعاداته، وجهاده باللسان واليد بحسب القدرة والإمكان.

وحيث إن الولاء والبراء تابعان للحب والبغض، فإن أصل الإيمان أن تحب في الله أنبياءه وأتباعهم، وتبغض في الله أعداءه وأعداء رسله[٤].

---

(١) هذا الحديث أخرجه البخاري في كتاب الفرائض ١١/١٢ ح٦٧٣٢ ومسلم في الفرائض ٣/ ١٢٣٣ ح ١٦١٥.

(٢) الفرقان لابن تيمية ص٧ أما الحديث فقد رواه البخاري في كتاب الرقائق باب التواضع ١١/ ٣٤١ ج٦٥٠٢.

(٣) انظر الرسائل المفيدة للشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ ص٤٣.

(٤) انظر الفتاوى السعدية للشيخ عبد الرحمن بن سعدي ٩٨/١.

وقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: «من أحب في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئًا»[1].

وإذا كان حبر هذه الأمة يذكر أن مؤاخاة الناس في زمانه قد أصبحت على أمر الدنيا وأن ذلك لا يجدي على أهله شيئًا، وهذا في القرن الذي هو خير القرون: فجدير بالمؤمن أن يعي ويعرف من يحب ومن يبغض، ومن يوالي ومن يعادي ثم يزن نفسه بميزان الكتاب والسنة ليرى أواقف هو في صف الشيطان وحزبه أم في صف عباد الرحمن وحزب الله الذين هم المفلحون، وما عداهم فأولئك هم الذين خسروا الدنيا والآخرة!

وإذا أصبحت المؤاخاة والمحبة على أمر الدنيا – كما قال الصحابي الجليل عبد الله ابن عباس – فإن تلك المحبة والمؤاخاة ولا تلبث أن تزول بزوال العرض الزائل وحينئذ لا يكون للأمة شوكة ومنعة أمام أعدائها.

وفي عصرنا الحاضر عصر المادة والدنيا قد أصبحت محبة الناس في الأغلب على أمر الدنيا وذلك لا يجدي على أهله شيئًا.

ولن تقوم للأمة الإسلامية قائمة إلا بالرجوع إلى الله والاجتماع على الحب فيه والبغض فيه والولاء له والبراء ممن أمرنا الله بالبراء منه، وعندئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

---

(١) سبق تخريجه ص ٣٣.

أهمية هذا الموضوع في الكتاب والسنّة ونصيبه من الدراسة والتأليف

إنه من الجدير بالذكر أن هذا الموضوع – الولاء والبراء – رغم أهميته ووضوحه في الكتاب والسنّة إلا أن نصيبه من الدراسة والتأليف في الكتب العقدية القديمة قليل جدًّا. وذلك راجع في نظري إلى ثلاثة أمور:

١) إن هذا المفهوم العقدي كان من الوضوح والنصاعة عند المسلمين الأولين بمكان، حيث إنهم – من خلال سيرهم وتاريخهم الوضيء – كانوا على درجة عالية جدًّا من الصفاء العقيدي، والتميز الواضح، وقيامهم أيضًا – بالجهاد في سبيل الله. كل ذلك جعل هذا الأمر واضحًا وجليًا في حسهم وأيضًا رجوعهم للكتاب والسنّة في كل شيء وهذا الأمر فيهما واضح جدًّا.

٢) إن طبيعة المجتمع الإسلامي الأول خاصة بعد الخلافة الراشدة لم تبرز فيه مشاكل عقدية حول هذا الموضوع وإنما نشأت حول صفات الله ﷻ، وقامت الفرق المختلفة بالخوض فيها. فكان لابد أن يتصدى أهل السنّة والجماعة لمعالجة ذلك الانحراف بأن يبينوا للناس أن لله صفات تليق بجلاله وعظمته. نثبتها له كما جاءت في الكتاب والسنّة من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تشبيه ولا تمثيل.

من هنا زخرت مؤلفاتهم رحمهم الله بالحديث في هذا الشأن، ولا تجد لهم ذكرًا لقضية الولاء والبراء إلا في كلمات موجزة صغيرة كقولهم: «ونحن أصحاب رسول الله ﷺ، ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم، وبغير الخير يذكرهم»[١].

٣) وبعد دخول علم الكلام في مؤلفات المسلمين العقائدية، وتعكير صفوها بما ليس منها: لم يعد لهذا الموضوع ذكر ألبتة: وليس هو المنفرد بهذا الإقصاء، بل إنه تابع

---

(١) الطحاوية مع شرحها ص٥٢٨ ط٤.

لإقصاء موضوع: «لا إله إلا الله وما تقتضيه من توحيد الألوهية وما يضاد ذلك من نواقض الإسلام، التي لو شغل المسلمون أنفسهم ببيانها وعرضها للناس عرضًا صحيحًا سليمًا بدلاً من تحويلها إلى قضايا ذهنية تجريدية لا علاقة لها بالسلوك الواقعي ولا بمعاني الإسلام الحقيقية لكان ذلك أجدى وأنفع للناس، وأقوم للقيام بما أراده الله منهم. ولو أن الأمة الإسلامية تقيدت بقول رسولها ﷺ: «تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك»[1]. وعضت على ذلك بالنواجذ ما طمع فيها شرق ولا غرب، ولا تخبطت في متاهات التبعية العمياء للإلحاد والفكر الجاهلي سواء كان شرقيًا أم غربيًا على حد سواء.

وحين اقتصر المسلمون الأوائل على الوحيين العزيزين خرج منهم جيل فريد ليس له مثال لا سابق ولا لاحق، جيل اعتز بانتمائه لدينه الخالص، ففتح الدنيا ومزق ظلام الكفر والشرك وصدع باسم الله فى الأرض من مشارف فرنسا غربًا إلى حدود الصين شرقًا.

ولعله من المناسب هنا أن نتحدث – ولو قليلاً – عن طريقة القرآن والسنة فى عرض العقيدة بصفة عامة وجناية علم الكلام على المسلمين لنقف من خلال هذه النبذة على مدى الهوة بين صفاء النبع العقيدي الرباني وبين جهالات علم الكلام.

لقد أدرك سلف هذه الأمة رحمهم الله أن كتاب الله العزيز هو: كتاب هداية وليس كتاب فلسفة ونظريات فارغة لا تمس الواقع. وأيقن ذلك الجيل أن الله هو خالق النفس البشرية وأنه هو العليم وحده بما يصلحها، فلما أنزل كتابه على رسوله ﷺ كان هو النور الهادي للنفوس، ومصدر كل خير لها، وهو أيضًا النذير لها من كل ما يوردها موارد الهلاك والخسران. وميزة الخطاب القرآني: أنه يخاطب «الإنسان»

---

(١) مسند أحمد ١٢٦/٤ وجامع بيان العلم لابن عبد البر ٢٢٢/٢ وسنن ابن ماجه: المقدمة ١/ ١٦ ح٤٣ وفي سنده عبد الرحمن بن عمرو السلمي لم يوثقه غير ابن حبان. وذكره المنذري في الترغيب والترهيب ٤٦/١ عن أبي عاصم في كتاب السنة وقال إسناده حسن. انظر جامع الأصول ٢٩٣/١ «حاشية».

كوحدة متصلة فيها الروح والجسد وفيها العقل والعاطفة، وفيها حب الخير وكره الشر:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٧-١٠].

هكذا هي الطريقة القرآنية فى عرضها للعقيدة أنها (طريقة لا تخاطب الذهن المجرد ولكنها تخاطب «الإنسان» كله، وتخاطبه — أول ما تخاطبه — عن طريق الوجدان ولا يمنع هذا أن تدعو عقله للمشاركة فى الأمر، ولكنها لا تخاطبه منفردًا إنما تخاطبه دائمًا والوجدان مستجاش، فيأخذ دوره فى التلقي منفعلاً بالقضية، متحركًا للإيمان بها، لا مجرد مُسَاجِلٍ فيها بالمنطق والبرهان: والقرآن حين يصنع ذلك فهو يستجيب للفطرة البشرية كما خلقها الله فالله الذي خلق هذه الفطرة هو الذي أنزل هذا القرآن مفصلاً على قدها، مستجيبًا لها، ومحييًا لها، وباعثًا ومقومًا فى آن. والعقل جزء من هذه الفطرة ولا شك، وله دوره فى قضية الإيمان.. ولكن الله يعلم الشروط اللازمة لهذا العقل حين يتناول قضية من قضايا «الحياة» إنه يمكن أن يعمل وحده حين يكون دوره هو التعرف على سنة من سنن الكون لا مجال فيها للوجدان، أما فى قضية الإيمان فإنه لا يستقل بهذا الأمر وحده، بل تشاركه العاطفة والوجدان[١].

وإذا تصفحنا التاريخ الإسلامي لنبحث عن تاريخ الانحراف فى الدراسات العقدية لوجدنا أن ذلك قد وقع فى العهد الأموي بشكل بسيط ولكنه بلغ قمته فى العهد العباسي إبّان ترجمة العلوم اليونانية والهندية والفارسية إلى اللغة العربية. فبعد أن اتسعت الفتوحات وامتدت رقعة الدولة الإسلامية ودخل فى الإسلام أناس أظهروا الإسلام وأبطنوا النفاق والزندقة حصل خلط فى المترجمات، فلم يفرق بين الغث والسمين من تلك العلوم الأجنبية.

ولما أصبح شغل أكثر الناس هو الترف العقلي: رأوا أن يستوردوا غثاء الجاهلية

---

(١) دراسات قرآنية للأستاذ محمد قطب ص١٤٩ بقليل من التصرف.

الإغريقية وسمي ذلك عند المخدوعين به «فلسفة»!! وانبهروا بهذا المستورد الدخيل وما فيه من عجمة وتعقيد ولعب بالألفاظ ودلالتها. وقادهم هذا الانبهار إلى إلباس التصور الإسلامي قناعًا غريبًا عليه. غريبًا عليه في ذاته، وغريبًا عليه في عرضه، وغريبًا أيضًا على أهله. وسر ذلك: أن (هناك جفوة أصيلة بين منهج الفلسفة ومنهج العقيدة وبين أسلوب الفلسفة وأسلوب العقيدة، وبين الحقائق الإيمانية الإسلامية وتلك المحاولات الصغيرة المضطربة المفتعلة التي تتضمنها الفلسفات والمباحث اللاهوتية البشرية)(١).

وحريّ بنا أن نسأل: ما هو سر محاولة التوفيق بين الفلسفة البشرية الجاهلية التي نمت وترعرعت في جو وثني كافر، وبين المورد العذب دين الله «الإسلام».

هل كان ذلك نتيجة للتقليد الأعمى والسعي وراء كل ناعق؟

أم أنه كان نتيجة للقعود عن الجهاد ونشر العقيدة في ربوع الأرض؟

أم هو الترف العقلي ومجابهة أصحاب الجدل بنفس أسلوبهم؟

أم أن وراء ذلك كيدًا من أعداء الإسلام في محاولة تشويه صفاء هذه العقيدة وخلطها بالشوائب الغريبة عنها؟!

والذي يظهر لي – والله أعلم – أن هذه الأسباب مجتمعة لها دورها كل بحسب أهميته إلا أنه من خلال تتبع قصة الترجمة في عهدها الأول يظهر لي: أن كيد أعداء الدين وافق هوى عند بعض المسلمين خاصة بعض الحكام في العهد العباسي – كالمأمون مثلاً – فحدث ما حدث من ترجمة لكتب المباحث السوفسطائية اليونانية وغيرها.

ويصدق ذلك: أن المأمون بعث إلى حاكم صقلية المسيحي يطلب منه أن يبادر بإرسال مكتبة صقلية الشهيرة الغنية بكتب الفلسفة!!

---

(١) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته للأستاذ سيد قطب ص١٠، ١١ دار الشروق.

وتردد الحاكم فى إرسالها، وجمع رجالات دولته واستشارهم حول هذا الطلب فأشار عليه المطران الأكبر بقوله: «ارسلها إليه، فوالله ما دخلت هذه العلوم فى أمة إلا أفسدها»، فأذعن الحاكم لمشورته وعمل بها. ثم أحضر المأمون حنين بن إسحاق[١] - وكان فتى لسنًا - وأمره بنقل ما يقدر عليه من كتب حكماء اليونان إلى العربية، فامتثل لأمره. وكان المأمون يعطيه من الذهب زنة ما ينقله من الكتب إلى العربية مثلاً بمثل. مما جعل حنينًا يكتب على ورق غليظ ويباعد بين الأسطر ويكتب بالحروف الكبيرة[٢]!!؟ وصدق - والله - المطران القبرصي: إن هذه الكتب ما دخلت أمة إلا أفسدها ترى من أين جاءت محنة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله فى مسألة خلق القرآن؟ ومن أين جاء اضطهاد علماء السنة ومحاربتهم وظهور المبتدعة أيام المأمون وغيره؟ ومن أين جاءت المصطلحات المبتدعة كالجوهر والعرض والواجب والممكن وغيرها؟ إنه لم يأت كل ذلك إلا من ترجمة علم الكلام الجاهلي وخلطه بالعقيدة الإسلامية ليصنع من ذلك كله ما سمي بـــ«الفلسفة الإسلامية»!!

وإذا علمنا: أن المترجمين كان جلهم نصارى[٣]. وقد كتبوا فى الترجمة العربية ما يعتقدونه ويدينون. فكيف يوثق بنصراني يعتقد التثليث وهو يترجم للمسلمين كتبًا يتعلموها ويعلموها أبناءهم ويستفيدون منها فى مؤلفاتهم؟ لقد صدق الشاعر حين قال:

---

(١) هو حنين بن إسحاق، طبيب، مؤرخ، مترجم، كان أبوه صيدلانيًا من أهل الحيرة، أخذ العربية عن الخليل بن أحمد، وأخذ الطب عن يوحنا بن ماسويه وغيره، وتمكن من اللغات اليونانية والسريانية والفارسية فانتهت إليه رئاسة المترجمين في عهد المأمون الذي عينه رئيسًا لديوان الترجمة وبذل له الأموال والعطايا.
لخص كثيرًا من كتب أبقراط وجالينوس، وكان يحفظ إلياذة هوميروس ومترجماته تزيد على المائة. انظر الأعلام للزركلي ج٢/٢٨٧ ط٤.

(٢) انظر كتاب «عصر المأمون» ص٣٧٥، ٣٧٧ للدكتور أحمد مزيد رفاعي ط٢/١٣٤٦هــ الناشر دار الكتب المصرية.

(٣) انظر في هذا كتاب الجانب الإلهي للأستاذ محمد البهي ص١٧٧.

ومـــن جعـــل الغـــراب له دلـــيلاً يمـــر بـــه عـــلى جـــيف الكـــلاب

ولمزيد من إيضاح وبيان البون الشاسع بين طريقة القرآن والسنة في عرض العقيدة وبين علم الكلام نذكر الأمور التالية في المباينة بينهما، لا من باب المقارنة فلا وجه للمقارنة في الحقيقة، إذ الأمر كما يقول الشاعر:

ألم تـــر أن الســـيف يـــنقص قـــدره إذا قـــيل إن السيف أمضى من العصا

وإنما من باب التنبيه والتذكير[1].

١) **في المصدر**: فمصدر العقيدة القرآنية: الله رب العالمين. أما مصدر «علم الكلام» فعقول البشر القاصرة الهزيلة.

٢) **في المنهج والسبيل**: فغاية علم الكلام: إثبات وحدانية الخالق، وأنه لا شريك له ويظن المتكلمون أن هذا هو المراد بـ«لا إله إلا الله» بينما المراد منها ما سبق أن شرحناه في التمهيد ثم أن علم الكلام يسعى لتحقيق «المعرفة» في الوقت الذي نجد فيه الطريقة القرآنية تهدف إلى «الحركة» من وراء المعرفة، فتحول تلك المعرفة إلى قوة دافعة لتحقق مدلولها في عالم الواقع وتستجيش الضمير الإنساني ليحقق وجوده في الأرض حسب الخطة التي رسمها له التصور الرباني، وحينئذ ترجع البشرية إلى ربها، وتحيا حياة كريمة رفيعة تتفق مع الكرامة التي كتبها الله للإنسان[2].

ثم إن المنهج القرآني يدعو إلى «عبادة الله وحده» قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وأوصى المصطفى ﷺ معاذاً حين بعثه إلى اليمن: أن يدعوهم إلى عبادة الله وحده، فإذا عرفوا ذلك دعاهم للفرائض[3] ولم يأمره أن يدعوهم أولاً إلى «الشك»

---

(١) ينظر في هذا الموضوع كتاب «العقيدة في الله» للأستاذ عمر سليمان الأشقر ص٢٧ إلى ص٣٨ الطبعة الأولى سنة ١٣٩٩هـ الناشر مكتبة الفلاح بالكويت.

(٢) انظر خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ص١٠، ١١.

(٣) الحديث موجود في البخاري كتاب الزكاة ج٣/٣٢٢ ح١٤٥٨ ومسلم في كتاب الإيمان =

أو «النظر» كما هي طريقة المتكلمين!!

والله سبحانه عندما يبعث الناس لا يسألهم عن العلوم الحسية والبدهية، والمنطق، والطبيعي، والجوهر والعرض – بل يسألهم عن استجابتهم للرسل أو عدمها:

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك: ٨-١١][١].

ووحدانية الخالق التي هي غاية علم الكلام: لم تنفع المشركين الذين حاربهم رسول الله ﷺ فإنهم كانوا يقرون بها كما أخبر الله عنهم:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [لقمان: ٢٥].

٣) **قوة التأثير**: الذي هو طابع العقيدة الربانية: مما يجعل لها سلطانًا قويًا على نفوس معتنقيها. بعكس الفلسفة والكلام اللذين يدلان على جهل أصحابهما كما قال أحدهم – وهو سقراط – (الشيء الذي لا أزال أعلمه جيدًا هو أنني لست أعلم شيئًا)[٢].

٤) **الأسلوب**: فالعقيدة الربانية تخاطب الكينونة الإنسانية بأسلوبها الخاص، وهو أسلوب يمتاز بالحيوية والإيقاع. واللمسة المباشرة والإيحاء بالحقائق الكبيرة، مع بساطة في العرض ووضوح في البيان وإعجاز في اللفظ والمعنى.

مما يجعل إدراك هذه العقيدة سهلاً لكافة المستويات البشرية. وهذا كله بخلاف

=ج١/٥٠ ح١٩.

(١) «العقيدة في الله» للأشقر ص٣١.

(٢) المصدر السابق ص٣٢.

الفلسفة والكلام، وبخلاف تلك المصطلحات المعقدة التي لا تزيد الشك إلا شكًا وحيرة وضلالاً[١].

وأسلوب المتكلمين يسير على نمط واحد في كل قضية يتحدث عنها فهو لا يخرج عن قوله: «فإن قيل لنا كذا: قلنا لهم كذا».

أما الأسلوب القرآني فإنه يعرض العقيدة على نمطين:

الأول: توحيد في الإثبات والمعرفة. أي إثبات حقيقة الرب وصفاته وأفعاله وأسمائه كما أخبر به عن نفسه وكما أخبر رسوله الكريم، وهذا موجود في أول سورة الحديد وطه، وآخر الحشر، وأول السجدة، وأول آل عمران، وسورة الإخلاص بكاملها[٢].

الثاني: توحيد في الطلب والقصد: وهذا ما تضمنته سورة:

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون: ١].

و﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝٦٤﴾ [آل عمران: ٦٤].

وأول سورة تنزيل الكتاب وآخرها وأول سورة يونس وأوسطها وآخرها وأول سورة الأعراف وآخرها وجملة سورة الأنعام.

ويعرّف الأول: بأنه توحيد علمي خبري، والثاني بأنه: توحيد إرادي طلبي[٣].

ونظرة واحدة إلى سيرة المصطفى ﷺ في عرضه لهذه العقيدة وتربيته الفذة

---

(١) انظر خصائص التصور الإسلامي والعقيدة للأشقر ص٣٥.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص٨٨ طبع المكتب الإسلامي.

(٣) المصدر السابق ص٨٨.

لصحابته كافية في الدلالة على أن من سلك طريقًا غير طريق القرآن والسنّة في عرض العقيدة فقد سلك «سبلاً» لا تلتقي مع صراط الله المستقيم.

روى الأعمش عن أبي وائل عن ابن مسعود ﷺ قال: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن[١].

وقال أبو عبد الرحمن السلمي[٢]: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا: أنهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعًا[٣].

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله: «لقد كان تلقي صحابة رسول الله ﷺ لهذه العقيدة أشبه ما يكون بتلقي الجندي في الميدان «الأمر اليومي» ليعمل به فور تلقيه، ولذلك لم يكن أحدهم ليستكثر منه في الجلسة الواحدة لأنه كان يحس أنه إنما يستكثر من واجبات وتكاليف يجعلها على عاتقه، فكان يكتفي بعشر آيات حتى يحفظها ويعمل بها كما جاء في حديث ابن مسعود»[٤].

هكذا كان صدر هذه الأمة مقتصرًا على كتاب الله وسنّة رسوله في عقيدته. ولكن الانحراف الذي طرأ على المسائل العقدية في العصور المتأخرة سببه حركة الترجمة والانبهار بفلسفة اليونان وعلومهم. ولو كان هناك وعي وتفكير في الأشياء المترجمة لاقتصر على ترجمة العلوم البحتة كالهندسة والكيمياء والطب وغيرها من العلوم النافعة وبشرط أن تكون صياغة ترجمتها متفقة مع عقيدة المسلمين. ولكن الخطأ الذي حصل كان ترجمة جميع العلوم ومنها «الإلهيات» عند أرسطو وأفلاطون وغيرهما!

---

(١) مقدمة الحافظ ابن كثير لتفسيره ج١/١٣.

(٢) هو عبد الله بن حبيب السلمي القارئ. لأبيه صحبة. روي عن مجموعة من كبار الصحابة وهو تابعي ثقة توفي سنة ٧٢هـ وقيل ٨٥هـ انظر تهذيب التهذيب ١٨٣/٥.

(٣) المصدر السابق ١٣/١.

(٤) معالم في الطريق ص١٥.

إنه خطأ فاحش وقع فيه من وقع وإلا فما هو الدافع لاستيراد ما عند الوثنيين واستخدام أهل الكتاب في ذلك؟

وصدق حبر هذه الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما حين قال محذرًا: « .. أولا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم فلا والله ما رأينا رجلاً منهم يسألكم عن الذي أنزل إليكم»[١].

والذي حصل كما يقول الشيخ محمد الغزالي: «إن صفو هذه العقيدة قد تعكر بالفكر الأجنبي الذي أقحم على الحياة الإسلامية وبضروب الجدل التي زجى بها المتبطلون أوقات فراغهم»[٢].

ولكن رحمة الله بعباده وتكفله جل جلاله بحفظ هذا الدين تجلت في إيجاد علماء أعلام، في كل عصر ومصر، قاموا بواجب الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله وتبصير الأمة بما شردت عنه، وزهدت فيه.

لذلك حين رأى كثير من الأئمة - رحمهم الله - هذا الداء الدخيل يحل على المسلمين في تصورهم وعقيدتهم قاموا بواجبهم الجهادي نحوه.

فهذا الإمام الجليل الشافعي - رحمه الله - يقول: «حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال ويطاف بهم في العشائر والقبائل ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة، وأقبل على الكلام»[٣].

ويقول أبو يوسف صاحب أبي حنيفة - رحمهما الله -: «العلم بالكلام هو الجهل، والجهل بالكلام هو العلم»[٤].

ثم عقب شارح الطحاوية على ذلك بقوله: «كيف يرام الوصول إلى علم الأصول

---

(١) صحيح البخاري كتاب التوحيد ١٣/٤٩٦ ح٧٥٢٣.

(٢) الإسلام والطاقات المعطلة ص١١٢ ط٢.

(٣) شرح الطحاوية ص٧٢.

(٤) المصدر السابق ص٧٣.

بغير اتباع ما جاء به الرسول»[١].

وذكر ابن الجوزي رحمه الله: «أن أصل الدخل في العلم والاعتقاد: من الفلسفة وذلك أن خلقًا من العلماء في ديننا لم يقنعوا بما قنع به رسول الله ﷺ من الانعكاف على الكتاب والسنّة، بل أوغلوا في النظر في مذاهب أهل الفلسفة وخاضوا في الكلام الذي حملهم على مذاهب ردية أفسدوا بها العقائد»[٢].

أما شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فيقول:

«هؤلاء أهل الكلام المخالفون للكتاب والسنّة الذين ذمهم السلف والأئمة، إنهم لم يقوموا بكمال الإيمان ولا بكمال الجهاد، بل أخذوا يناظرون أقوامًا من الكفار وأهل البدع الذين هم أبعد عن السنّة منهم، بطريق لا يتم إلا برد بعض ما جاء به الرسول، وهذا لا يقطع أولئك الكفار بالعقول فلا آمنوا بما جاء به الرسول حق الإيمان، ولا جاهدوا الكفار حق الجهاد. وأخذوا يقولون: إنه لا يمكن الإيمان بالرسول ولا جهاد الكفار، والرد على أهل الإلحاد والبدع إلا بما سلكناه من المعقولات!!، وإن ما عارض هذه المعقولات من السمعيات يجب رده تكذيبًا، أو تأويلاً، أو تفويضًا. لأنها أصل السمعيات، وإذا حقق الأمر عليهم وجد الأمر بالعكس»[٣].

وكلمة أخيرة نذكرها للعبرة والعظة، وهي كلمة لأحد أولئك الذين خاضوا في بحر الكلام اللجي ثم خرجوا منه يطلبون النجاة. إنها كلمة أبي عبد الله محمد بن عمر الرازي حيث قال: «لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً. ورأيت أقرب الطرق. طريقة القرآن.. ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي[٤]. هذا وإنه لحري بالأمة، بعد أن عاشت قرونًا من الضياع

---

(١) المصدر السابق ص٧٣.

(٢) صيد الخاطر: تحقيق الطنطاوي ص٢٠٥ الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ.

(٣) موافقة صحيح المنقول الصريح المعقول ١/٢٣٨ تحقيق محيي الدين عبد الحميد ومحمد حامد الفقي.

(٤) شرح الطحاوية ص٢٢٧.

والتخبط أن تعود إلى المشكاة الربانية كتاب الله وسنّة رسوله، فتتدبر معانيها، وتعمل بما فيها ففي ذلك النجاح والفلاح وطمأنينة القلب:

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝٢٨﴾ [الرعد: ٢٨].

وعلى الرغم من أنه سيتضح للقارئ - إن شاء الله - من خلال قراءة هذا البحث: طريقة القرآن والسنّة في غرس عقيدة «الولاء والبراء في النفوس، وذلك من خلال سيرة رسول الله ﷺ في العهدين المكي والمدني ومن خلال الأمثلة والصور الكثيرة في هذا الشأن إلا أنني أرى أنه لا بأس بأن أورد هنا طرفًا من هذا الموضوع خاصة وأنني قد تكلمت حول عقم علم الكلام وجنايته على الأمة الإسلامية.

إن من أولى البدهيات في هذا الشأن أن الإسلام قد حرص على أن يكون انتماء المسلم لدينه فقط منذ أول لحظة يعلن فيها «لا إله إلا الله محمد رسول الله». والبراءة من كل معبود أو متبوع أو مطاع سوى الله تعالى.

والأدلة على ذلك كثيرة جدًّا في كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ.

قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وقال: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠٣﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ويقول سبحانه: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧١﴾ [الأنعام: ٧١].

﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢].

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥].

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: ٣٣].

فهذه النصوص الكريمة تثبت مدى منة الله سبحانه وتعالى بإنعامه على العالمين بهذا الدين، فالولاء له مصدر القوة والعزة.

فمن استمسك بهذا الولاء، وحققه فقد استمسك بالعروة الوثقى. أما الحديث - فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية[(١)]، وفخرها بالآباء، مؤمن تقي، أو فاجر شقي، أنتم بنو آدم وآدم من تراب، ليدعن رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن»[(٢)]. وحرص المصطفى ﷺ على تربية أمته والبعد بها عن مفاخر الأنساب والأحساب التي لا تستمد قوها وحيويتها من هذا الدين القيم، فنجده عليه الصلاة والسلام يحثهم على أن يكون انتماؤهم للصف الإسلامي وحسب. ففي الحديث عن أبي عقبة - وكان مولى من أهل فارس - قال: شهدت مع رسول الله ﷺ أحدًا، فضربت رجلاً من المشركين، فقلت: خذها مني وأنا الغلام الفارسي! فالتفت إليّ رسول الله ﷺ وقال: «فهلا قلت خذها مني وأنا الغلام الأنصاري»[(٣)].

---

(١) العبية - كما قال الخطابي - الكبر والنخوة. انظر سنن أبي داود ٥/٣٤٠.

(٢) سنن أبي داود كتاب الأدب ج٥/٣٤٠ ح٥١١٦ وأخرجه الترمذي في المناقب ٩/٤٣٠ ح٣٩٥٠ وقال: حديث حسن.

(٣) سنن أبي داود كتاب الأدب ٥/٣٤٣ ح٥١٢٣ قال الألباني في المشكاة: في إسناده عنعنة محمد بن إسحاق ٣/١٣٧٤ وأخرجه ابن ماجة في الجهاد ٢/٩٣١ ح ٢٧٨٤.

ولقد كان ديدن العقيدة الإسلامية هو: إفراد الله تعالى بالتعلق والحب والتعظيم والطاعة والإنابة والخشوع والخوف والرجاء، وتجريد النفس من كل محبوب أو مرهوب أو مرغوب سوى الله تعالى، قال جل شأنه:

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ﴾ [يونس: ١٠٧].

وقال رسول الله ﷺ لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «... واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك»[١].

«فإذا جرد العبد التوحيد فقد خرج من قلبه خوف ما سواه وكان عدوه أهون عليه من أن يخافه مع الله، بل يفرد الله بالمخافة... ويتجرد لله محبة وخشية وإنابة وتوكلاً، واشتغالاً به عن غيره، فيرى أن إعماله فكره في أمر عدوه وخوفه منه، واشتغاله به من نقص توحيده[٢] وإلا فلو جرد توحيده لكان له فيه شغل شاغل، والله يتولى حفظه والدفع عنه، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا... ومعلوم أن التوحيد حصن الله الأعظم من دخله كان من الآمنين. قال بعض السلف: من خاف الله خافه كل شيء ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء»[٣].

هذا طريق من طرق منهج العقيدة في غرسها للولاء والبراء في النفوس.

وطريق آخر: وهو استخدام مشاهد يوم القيامة، لتصوير الخصومة والعداء بين الأتباع والمتبوعين — الذين سلكوا غير منهج الله في الدنيا ووالوا وعادوا حسب العادات ودين الآباء — وتبرؤ كل فريق من صاحبه.

قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ

---

(١) سنن الترمذي في أبواب صفة القيامة ٢٠٤/٧ ح ٢٥١٨ وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) يشترط في هذا عدم ترك الأسباب لأن فعل السبب من باب التوكل: «اعقلها وتوكل».

(٣) بدائع الفوائد لابن القيم ٢٤٥/٢ بتصرف.

ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧].

ولا شك أن هذه حال من اتخذ من دون الله ورسوله وليجة وأولياء، يوالي لهم ويعادي لهم، ويرضي لهم، ويغضب لهم، فإن أعماله كلها باطلة، يراها يوم القيامة حسرات عليه مع كثرتها، وشدة تعبه فيها ونصبه، إذ لم يخلص موالاته ومعاداته، ومحبته وبغضه، وانتصاره وإيثاره لله ورسوله.

ويوم القيامة ينقطع كل سبب ووسيلة وموالاة كانت لغير الله، ولا يبقى إلا من كان له سبب يصل بينه وبين ربه وهو حظه من الهجرة إلى الله ورسوله وعبادة الله وحده وما يلزم ذلك من الحب والبغض والعطاء والمنع والولاء والعداء والقرب والبعد وتجريد متابعة رسول الله ﷺ والإعراض والترك لما خالف سنته وهديه[1].

ومن منهج القرآن أيضًا في موضوع الولاء والبراء ضرب المثل، وهذا كثير في القرآن الكريم وأبرز مثال في هذه القضية هو إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن وأبو الأنبياء. فإنه هو القدوة الأولى في الولاء والبراء. ونظرًا لأهمية ذلك أترك الحديث عنه إلى فصل مستقل في هذا الباب إن شاء الله.

وإذا وجدت محبة الله في القلب، تحمل المؤمن حينئذ وتقبل تكاليف هذه المحبة ولوازم عبادته لله تعالى ومن ذلك جهاد أعداء الله وبغضهم وهجرهم والصبر على الأذى في سبيل الله.

ثم يمضي القرآن الكريم في أسلوب عرض هذه العقيدة مستخدمًا التهديد والوعيد بعد البيان والإيضاح وإقامة الحجة على الناس فيقول عز وجل:

---

(١) انظر الرسالة التبوكية لابن القيم ص٥١.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

أما المستجيبون لأمر الله فإن الله يحبهم وهو ناصرهم ومولاهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٠].

﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

ومن لوازم محبة الله اتباع رسول الله ﷺ ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «فاتباع سنّة رسوله ﷺ واتباع شريعته باطنًا وظاهرًا هو موجب محبة الله، كما أن الجهاد في سبيل الله، وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه هو حقيقتها»[1].

ويقول الحسن البصري رحمه الله: زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[2] لقد ربى الكتاب والسنة الأمة على الحب في الله والبغض في الله، والولاء في الله والبراء في الله، حتى وصلت إلى حد أن لو قذفت في النار لكان أحب إليها من أن تعود في الكفر بعد إذ أنقذها الله منه.

ولئن كان الولاء والبراء قد غاب اليوم في واقع حياة المسلمين – إلا من رحم ربك – فإن هذا الغياب لا يغير من الحقيقة الناصعة الجلية شيئًا لأن هذا الأمر العظيم كما يقول الشيخ حمد بن عتيق[3]: «ليس في كتاب الله تعالى حكم فيه من الأدلة أكثر ولا

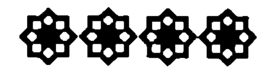
---

(١) التحفة العراقية ص٧٦.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٢٥.

(٣) ستأتي ترجمته قريبًا.

أبين من هذا الحكم بعد وجوب التوحيد وتحريم ضده»[1]. وما سر استيراد مذاهب البشر الإلحادية وأفكارهم القاصرة إلا نتيجة حتمية لغياب ولائهم لله ورسوله وعدم براءتهم من الطواغيت المقنعة ببهرج الباطل وزيف الحقيقة.



(١) النجاة والفكاك ص١٤.

الفصل الثاني

أولياء الرحمن وأولياء الشيطان وطبيعة العداوة بينهما

إن وجود أولياء الرحمن وأولياء الشيطان أمر قديم نشأ منذ خلق آدم عليه السلام وأمر الله للملائكة بالسجود له فسجدت إلا إبليس أبى واستكبر.

وقد تحدث القرآن الكريم عن قصة هذه العداوة بين آدم وإبليس في صور شتى من أبرزها سورة البقرة وسورة الأعراف وسورة طه وغيرها.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: ٣٤-٣٨].

وفي سورة الأعراف يأتي بيان عدم سجود إبليس ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف: ١٢].

لقد كان أمر الله لإبليس أن يسجد فكان رده لعنه الله الامتناع والاستكبار مستخدمًا في ذلك قياسه الفاسد: إن النار أشرف من الطين! وهو بهذا ينصب نفسه ندًّا لله سبحانه وتعالى: الله يقول كذا. فيقول إبليس أنا أرى كذا. ولذلك استحق اللعنة والطرد من رحمة الله.

وانقسام الناس إلى فريق الهدى وفريق الضلال بدأ بهذه البداية كما ذكر ذلك المولى سبحانه ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾﴾ [التغابن: ٢].

فأما الفريق الذي أجاب دعوة الرسل وآمن بكتب الله المنزلة ورسله المبعوثين رحمة للناس فهؤلاء أولياء الرحمن.

وأما الفريق الذي أعرض واستكبر فهم أولياء الشيطان.

وقبل الحديث عن الفريقين لابد أن نعلم أن الله سبحانه وتعالى قد أقام الحجة على عباده فبين لهم عداوة الشيطان – حتى بعد قصته مع آدم –.

فهو سبحانه لم يذكر قصة آدم وعداوة إبليس له عدة مرات في القرآن فحسب، بل زاد الأمر بيانًا فحذر بني آدم في مواضع كثيرة من القرآن أن يستمعوا لغواية الشيطان ويعرضوا عن طريق الله المستقيم قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾ [البقرة: ٢٠٨].

ثم يأتي التذكير مع التحذير في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف: ٢٧].

ولم يقتصر البيان القرآني الكريم على هذا بل قد كشف للناس المخطط الشيطاني، حتى يبصر كل ذي عينين ويتفكر أولو الألباب فقال تعالى عن إبليس: ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: ١١٨-١٢٠].

ثم يذكر الله للناس مشهدًا من مشاهد يوم القيامة حين يندم أولياء الشيطان ولات ساعة مندم فيقول سبحانه: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ

مُّسْتَقِيمٌ (٦١)﴾ [يس: ٥٩-٦١].

ومشهدًا آخر لإبليس حين يتبرأ من أتباعه: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢)﴾ [إبراهيم: ٢٢].

إنه ليس بعد بيان الله بيان. والأشياء لأصلها تعود كما يقولون فما دام أن إبليس عدو لآدم فلا شك أن أتباع إبليس وحزبه أعداء لأولياء الرحمن وأتباع المرسلين. ومن ثم فلا التقاء بين الفريقين ولا هوادة بينهما.

إنها الحرب والعداوة والحسد والاستهزاء والسخرية والمكر والخديعة وكل ما يوحي به إبليس لأتباعه ذلك سلاح حزب الشيطان.

وحزب الشيطان أناس يتربصون بالمؤمنين يحاولون ما استطاعوا أن يصدوهم عن ذكر الله، ولقد أخبرنا الله ﷻ بذلك في مواضع عدة من كتابه الكريم فقال سبحانه عن سخرية أعداء الله بحزب الله:

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢١٢)﴾ [البقرة: ٢١٢].

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (٦٦)﴾ [الأعراف: ٦٦].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ (٣٢)﴾ [المطففين: ٢٩-٣٢].

وانظر إلى تصوير القرآن لعداوة حزب الشيطان، وما تنطوي عليه نفوسهم ضد المؤمنين في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾ [الحج: ٧٢].

وهاهنا حقيقة هامة هي: أن العداوة التي وقعت بين آدم عليه السلام وبين إبليس هي عداوة قائمة بين إبليس وبني آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وتاريخ البشرية كله ما هو إلا مصداق لحقيقة انقسام الناس إلى فريق الهدي والرشاد وفريق الهوى والشهوة والشيطان.

﴿خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢].

وعلى ذلك فإنه لا التقاء بين الفريقين في الدنيا ولا في الآخرة ولذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ومن سنّة الله: أنه إذا أراد إظهار دينه، أقام من يعارضه فيحق الحق بكلماته، ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق»[(١)].

وانظر إلى عداوة قوم نوح عليه السلام له وقوم عاد وقوم صالح وشعيب وإبراهيم وموسى وعيسى ثم محمد ﷺ، ثم العداوة التي تقابل بها الجاهلية أهل الإيمان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وإذا كان أولياء الرحمن مصرين على اتباع هدي ربهم فإن أولياء الشيطان يصرون أيضًا على التردي في حمأة الجهل والضلال، عابدين للطاغوت سواء كان هذا الطاغوت ندًّا يعبد أو شهوة يراد إشباعها أو جنسًا أو لغة أو سلطة أو أرضًا أو دين الآباء الأولين. وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/٥٧.

فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

أما حزب الرحمن فهم «الذين ينتمون إليه سبحانه، ويستظلون برايته، ويتولونه ولا يتولون أحدًا غيره، وهم أسرة واحدة وأمة واحدة من وراء الأجيال والقرون، ومن وراء المكان والأوطان ومن وراء القوميات والأجناس، ومن وراء الأرومات والبيوت»[١].

وقد جاء الدين الإسلامي بفيصل التفرقة بين الحق والباطل، وبين الإسلام والجاهلية فلم يجعل التقاء الناس على أساس العرق أو اللون أو الجنس أو التراب – كما تفعل ذلك الجاهليات القديمة والحديثة على السواء – بل جعل التقاء الناس على العقيدة في الله، وجعل المفاضلة بينهم بالعمل الصالح قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقال ﷺ: «لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأسود على أبيض ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى. كلكم لآدم وآدم من تراب»[٢].

وقال أيضًا: «إن الله أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمن تقي أو فاجر شقي»[٣]. ولقد تبرأ المصطفى ﷺ من أقرباء له ليسوا على دينه، ليضع من نفسه قدوة للمؤمنين فقال فيما رواه عمرو بن العاص رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول جهارًا من غير سر: «إن آل فلان – أناس من أقاربه – ليسوا لي بأولياء، إنما وليي الله وصالح المؤمنين» متفق عليه[٤].

---

(١) في ظلال القرآن ١/٤١٣.

(٢) مسند الإمام أحمد عن أبي نضرة ٥/٤١١ وإسناده صحيح إلا أنه مرسل لأن أبا نضرة ليس صحابيًا.

(٣) سبق تخريجه ص٩٣.

(٤) صحيح البخاري كتاب الأدب ١٠/٤١٩ ح٥٩٩٠ ومسلم في الإيمان ١/١٩٧ ح٢١٥.

وقال ﷺ: «إن أولى الناس بي المتقون من كانوا وحيث كانوا»[1] وهذا موافق لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [التحريم: ٤].

من هنا: كان المؤمنون هم أولياء الله لأنهم استجابوا لما أراد الله فتلقوا منه وحده، وعبدوه وحده، وخافوه وحده. بعكس الفريق الثاني فإنهم كلما دعاهم رسول من رسل الله قالوا:

﴿بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠﴾ [البقرة: ١٧٠].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٠٤﴾ [المائدة: ١٠٤].

ومن صفات أولياء الرحمن: الاستجابة والانقياد لحكم الله وشرعه واتباع أمره قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥١﴾ [النور: ٥١].

أما أولياء الشيطان: فمن سماتهم الإعراض عن حكم الله وشرعه، واتباع الهوى والشيطان قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ﴾ [النساء: ٤٦].

وقال: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ٢٢﴾ [السجدة: ٢٢].

يقول العلامة ابن القيم: «كل من كذب رسول الله ﷺ، وأعرض عن متابعته، وحاد عن شريعته، ورغب عن ملته، واتبع غير سنته، ولم يتمسك بعهده، ومكن

---

(١) مسند أحمد ٥/٢٣٥ وهو حديث صحيح. انظر تخريج كتاب فقه السيرة للغزالي ص٤٨٥ وصحيح الجامع الصغير ٢/١٨١ ح٢٠٠٨.

الجهل من نفسه، والهوى والفساد من قلبه، والجحود والكفر من صدره، والعصيان والمخالفة من جوارحه فهو ولي الشيطان»(١).

ومن سمات أولياء الشيطان: أنهم إذا جاء الحق معارضًا في طريق رياستهم طحنوه، وداسوه بأرجلهم، فإن عجزوا عن ذلك دفعوه دفع الصائل، فإن عجزوا عن ذلك حبسوه في الطريق، وحادوا عنه إلى طريق أخرى، وهم مستعدون لدفعه بحسب الإمكان، فإذا لم يجدوا منه بدًّا أعطوه السكة والخطبة، وعزلوه عن التصرف والحكم والتنفيذ، وإن جاء الحق ناصرًا لهم، وكان لهم صالوا به وجالوا، وأتوا إليه مذعنين لا لأنه حق بل لموافقته غرضهم وأهوائهم.

﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ۝ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ۝ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝﴾ [النور: ٤٨-٥٠](٢).

طبيعة العداوة بين الفريقين

بعد أن بيّنا سمات الفريقين، نتحدث الآن عن العداوة بينهما، ومعرفة هذه العداوة أمر لابد منه لتمييز الخبيث من الطيب.

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

ومعرفة العداوة بين الفريقين أمر هام يكشف ألعوبة بعض المتسمين بأسماء إسلامية وهم يسعون لتذويب المسلم في خضم الجو الجاهلي المعاصر وتمييع ولائه لربّه ودينه وإخوانه المسلمين، وأمانة براءته وعداوته لكل عدو لهذا الدين.

هذه الحقيقة الهامة الناصعة يحاول أعداؤنا تزييفها: بأن الكفار أصدقاء أوفياء شرفاء

---

(١) هداية الحيارى ٧.

(٢) مدارج السالكين ١/٥٣.

يجب أن يكون لهم الحب والتقدير، والإجلال والإكبار والتعظيم، يقولون إننا متأخرون وهؤلاء القوم متقدمون يجب أن نسلك مسلكهم، وننهج نهجهم نقتفي آثارهم في كل وضع وحال، نأخذ حضارتهم بكاملها حلوها ومرها، حقها وباطلها، بل إنه لا بطال فيها[١].

ولكن هيهات خسئوا وخابوا، إن حزب الله هم الأعلون عند الله قدرًا، وهم الأعلون ولو كانوا أقل عددًا، وحزب الشيطان هم الخاسرون ولو كانوا عدد الحصى.

ولابد أن يسبق حديث العداوة بين الفريقين، نبذة بسيطة عن عداوة إبليس للإنسان حتى نعلم مداخل الشيطان لهذه النفس البشرية، ومدى تلبيسه الحق بالباطل على أوليائه فيبينّ الحق للمؤمن فيأخذ الحذر على نفسه ومن معه، ويعبد الله على بصيرة منه ونور من شرعه.

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله أن عداوة الشيطان للإنسان تتمثل في ست مراتب أذكرها هنا بالاختصار:

١) **الكفر والشرك، ومعاداة الله ورسوله**، فإذا ظفر الشيطان بذلك من ابن آدم برد أنينه، واستراح من تعبه معه، وهو أول ما يريد من العبد، فإن ظفر به صبره من عسكره ونوابه، فصار من دعاة إبليس، فإن يئس من ذلك نقله للمرتبة الثانية من الشر وهي:

٢) **البدعة**: لأنها أحب إليه من: الفسوق والعصيان، وذلك أن ضررها في نفس الدين وهو ضرر متعد، وهي مخالفة لدعوة الرسل، فإن كان الشخص ممن يعادي أهل البدع والضلال نقله إلى المرتبة الثالثة وهي:

٣) **الكبائر على اختلاف أنواعها**، فيحرص أن يوقعه فيها، خاصة إذا كان عالمًا متبوعًا لينفر الناس عنه. ومن المعلوم أن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم، هذا إذا أحبوا إشاعتها، فكيف إذا تولوا هم إذاعتها؟ فإن عجز

---

(١) ممن تزعم هذا الاتجاه طه حسين وأضرابه.

عن هذه نقله للتي بعدها وهي:

٤) **الصغائر التي إذا اجتمعت ربما أهلكت صاحبها،** كما قال النبي ﷺ: «إيّاكم ومحقرات الذنوب، فإن مثل ذلك قوم نزلوا بفلاة من الأرض»[1]. وذكر حديثًا معناه أن كل واحد منهم جاء بعود حطب حتى أوقدوا نارًا عظيمة فطبخوا واشتووا. ولا يزال يسهل عليه أمر الصغائر حتى يستهين بها، فيكون صاحب الكبيرة الخائف أحسن حالاً منه، فإن أعجزه العبد عن هذه نقله للخامسة.

٥) **إشغاله بالمباحات التي لا ثواب فيها ولا عقاب،** بل عاقبتها فوت الثواب الذي ضاع عليه باشتغاله بها، فإن أعجزه العبد عن هذه بأن كان حافظًا لوقته شحيحًا به، يعلم مقدار أنفاسه وانقطاعها وما يقابلها من النعيم والعذاب نقله للتي بعدها.

٦) **إشغاله بالعمل المفضول عن الفاضل** ليزيح عنه الفضيلة ويفوته ثواب العمل الفاضل، ويفتح له أبواب خير كثيرة، كما ورد أنه يأمر بسبعين بابًا من أبواب الخير إما ليتوصل إلى باب واحد من الشر وإما ليفوت بها خيرًا أعظم من تلك السبعين وأجل وأفضل. وهذا أمر لا يتوصل إلى معرفته إلا بنور الله يقذفه في قلب العبد، يكون سببه تجريد متابعة الرسول ﷺ وشدة عنايته بمراتب الأعمال عند الله، وأحبها إليه، وأرضاها له، وهذا لا يعرفه إلا من كان من ورثة الرسول ﷺ ونوابه في الأمة، وخلفائه في الأرض والله يمن بفضله على من يشاء من عباده[2].

وما دام أن هذا هو كيد الشيطان للإنسان فما هو سبب العداوة ومثيرها بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان؟

والجواب على ذلك أحد أمور أربعة أو الأربعة مجتمعة.

١) **الكبر:** فأولياء الشيطان استكبروا على الحق وعلى الرسول وعلى الرسالة. قال

(١) الحديث في مسند أحمد ٥/٣٣١ وهو حديث صحيح انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ح ٣٨٩ وصحيح الجامع ٢/٣٨٦ ح٢٦٨٣، ٢٦٨٤.

(٢) بدائع الفوائد ٢/٢٦٠، ٢٦٢ بتصرف.

الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾ [غافر: ٥٦].

﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة: ٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾﴾ [لقمان: ٧].

٢) **استحباب الحياة الدنيا على الآخرة**، واللصوق بالشهوات واللذائذ قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [النحل: ١٠٧].

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾ [إبراهيم: ٣].

وإذا وجد الكبر وحب الدنيا على الآخرة أو أحدهما: فإن أرباب ذلك ينزعجون من جود عباد الله المخلصين، حتى ولو لم يظهر لهم منهم أي احتكاك فإن وجودهم بهذا النقاء وبهذه الطهارة وبذلك الاستعلاء أمر يغيظ أعداء الله قال تعالى:

﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ﴾ [النساء: ٨٩].

ذلك أن وجود الفريق الطاهر يشعر الفريق الدنس بخبث طويته وقبيح فعله، فمن هنا يبدأ كيد أعداء الله لأولياء الله بكل ما تعني كلمة «كيد» سواء كان ذلك بالسخرية أو الاستهزاء، أو العذاب والاضطهاد، أو التربص للمؤمنين بكل ما يسوء.

٣) **الحسد**: فثائرة أولياء الشيطان لا تهدأ، ولذلك يكنون للمؤمنين الحسد والحقد، وقد بين الله ذلك في كتابه العزيز بقوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ

ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ [البقرة: ١٠٩].

أجل هذه هي أمنيتهم أن يكفر عباد الله ليتساووا معهم في الكفر والضلال، وقد بين الله عظيم حقدهم وحسدهم لو ظهروا على المؤمنين فقال تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة: ٨].

٤) **سلب الهيمنة والولاء:** وهذا أمر يختص بـ«الملأ» أي السادة والطواغيت الذين يستعبدون الناس، حيث يتقدم الناس لهم بالإجلال والتعظيم والرغبة والرهبة، والخوف والرجاء. فإذا جاء دين الله وشرعه الذي يحرر الناس من عبودية العبيد إلى عبادة الواحد القهار فإن «الملأ» يثورون ويعادون دعاة الخير، لأنهم يشعرون حينئذ أن سلطانهم قد سلب وأن شرفهم قد زال، وأن الناس لم يعودا يخشونهم أو يرهبونهم، لأن دين الله قد حررهم وأعزهم وعبّدهم لله فخوفهم من الله، وحبهم لله، وولاؤهم لله، وبغضهم في الله.

ودليل هذا فعل كسرى حين جاءه كتاب رسول الله ﷺ يدعوه إلى الدخول في الإسلام فاستكبر في نفسه وكأنه يقول: أمر عجيب! الأعراب الذين كانوْا رعاة لنا يأتون إليّ لأدخل في دينهم الجديد؟ وظن أن ملكه سيزول إذا دخل في الدين الجديد، فما كان منه إلا أن مزق الكتاب. قد استجاب الله دعوة نبيّه ﷺ فمزق الله ملك كسرى شر ممزق، فهكذا الطواغيت التي لا تدين لله بالولاء والسلطة والحاكمية تعادي أولياء الرحمن وتصب عليهم أشد أنواع العذاب كما قال تعالى:

﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ [البروج: ٨].

والجاهلية لا تكره الإسلام لأنها – في دخيلة نفسها – لا تعرف ما فيه من الحق والخير، أو لأنها بينها وبين نفسها – تعتقد حقًا أن باطلها الذي تعيش فيه أصوب وأقوم من الإسلام! كلا! فهي تكرهه وهي عالمة بما فيه من الحق والخير وبأنه هو الذي

يقوّم ما اعوج من شئون الحياة، وإنما تكرهه لأنها حريصة على هذا العوج لا تريد تقويمه، وتود أن تبق الأمور على اعوجاجها ولا تستقيم! تكرهه لأنها هي الجاهلية.. وهو الإسلام!

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧](1).

أما طبيعة عداوة أولياء الرحمن لأعدائهم: فهي جزء من عقيدتهم وأحسب أني فصلت القول في هذا في التمهيد حين تكلمت عن لوازم لا إله إلا الله – إنهم يبغضون في الله من حاد الله ورسوله قال تعالى:

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)﴾ [المجادلة: ٢٢].

إنهم لا يلتقون مع أعدائهم في منتصف الطريق بل يقولون كما قال إمامهم إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: «إنه لا يستقيم للإنسان إسلام – ولو وحد الله وترك الشرك – إلا بعداوة المشركين والتصريح لهم بالعداوة والبغض كما قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا﴾ [المجادلة: ٢٢](2).

وما دمنا قد عرفنا منطلق العداوة وحقيقتها فيجب أن نعلم أن هذا هو «القاسم المشترك» بين أعداء الإسلام بشتى أصنافهم كفار ومشركين ومنافقين وكل من كره

---

(١) جاهلية القرن العشرين للأستاذ محمد قطب ص٣٢٢.

(٢) مجموعة التوحيد ص١٩ (ستة مواضع في السيرة) ط دار الفكر.

الإسلام وعاداه.

إن طبيعة المنهج الإسلامي التي يعرفها جيدًا أصحاب المناهج الأخرى طبيعة الإصرار على إقامة مملكة الله في الأرض، وإخراج الناس كافة من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، وتحطيم الحواجز المادية التي تحول بين الناس كافة وبين حرية الاختيار الحقيقة.. ثم إنها طبيعة التعارض بين منهجين للحياة، لا التقاء بينهما في صغيرة ولا كبيرة وحرص أصحاب المناهج الأرضية على سحق المنهج الربّاني الذي يهدد وجودهم ومناهجهم وأوضاعهم قبل أن يسحقهم، فهي حتمية لا اختيار فيها في الحقيقة لهؤلاء ولا لهؤلاء.. وهذه الظاهرة يقررها القرآن بقوله:

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ﴾[1].

ونذكر بعض عداوات هذه الأصناف حسبما نص عليه القرآن الكريم فأما الكفار فقد قال الله تعالى عنهم:

﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٨﴾ [الصف: ٨].

وقال في شأن المشركين: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۗ﴾ [البقرة: ١٠٥].

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ۝٩﴾ [الصف: ٩].

وأما عداوة أهل الكتاب: فالله يقول عنهم: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ﴾ [البقرة: ١٢٠].

﴿۞لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ﴾ [المائدة: ٨٢].

---

(١) انظر طريق الدعوة ١/٨٠.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾﴾ [النساء: ٤٤].

﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾ [آل عمران: ١١٩].

أما عداوة المنافقين: فقد نبّه القرآن الكريم على ذلك في مواضع كثيرة ومن ذلك ما ورد في أول سورة البقرة حيث ذكرهم في ثلاث عشرة آية من آية ٨ – ٢٠ «وذلك لكثرتهم وعموم الابتلاء بهم، وشدة فتنتهم على الإسلام وأهله، فإن بلية الإسلام بهم شديدة جدًّا، لأنهم منسوبون إليه، وإلى نصرته وموالاته وهم أعداؤه في الحقيقة، يخرجون عداوته في كل قالب، يظن الجاهل أنه علم وإصلاح وهو غاية الجهل والإفساد.

فلله كم معقل للإسلام قد هدموه! وكم من حصن له قد قلعوا أساسه وخربوه، وكم من لواء مرفوع قد وضعوه... اتفقوا على مفارقة الوحي فهم على ترك الاهتداء به مجتمعون:

﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [المؤمنون: ٥٣].

رأس مالهم الخديعة والمكر، وبضاعتهم الكذب والختر، وعندهم العقل المعيشي: إن الفريقين عنهم راضون وهم بينهم آمنون.

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [البقرة: ٩].

من علقت مخالب شكوكهم بأديم إيمانه مزقته كل تمزيق، ومن تعلق شرر فتنتهم بقلبه ألقاه في عذاب الحريق، خرجوا في طلب التجارة البائرة في بحار الظلمات فركبوا مراكب الشبه والشكوك، تجري بهم في موج الخيالات، فلعبت بسفنهم الريح العاصف، فألقتها بين سفن الهالكين.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ۝١٦﴾ [البقرة: ١٦][1].

وقد نزل بخصوصهم سورة كاملة في القرآن هي سورة «المنافقون» وقد ورد فيها صريح عداوتهم للمؤمنين في قوله تعالى عنهم:

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٨﴾ [المنافقون: ٧، ٨].

وما دمنا قد عرفنا عداوات هذه الأصناف للإسلام، فإنه لجدير بنا أن نؤكد خطورة عداوة اليهود والنصارى لأنهم هم المسيطرون اليوم على معظم بقاع الأرض، وهم الذين يشنون غزوهم بشتى الأساليب، وهم رمز «البهرج والانبهار» أمام المخدوعين من أبناء المسلمين.

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله: «إن حقيقة المعركة التي يشنها اليهود والنصارى في كل أرض وفي كل وقت ضد الجماعة المسلمة هي من أجل العقيدة. وهم قد يختصمون فيما بينهم ولكنهم يلتقون دائمًا في المعركة ضد الإسلام والمسلمين.

وقد يرفعون لهذه المعركة أعلامًا شتى — في خبث ومكر وتورية — لأنهم قد جربوا حماسة المسلمين لدينهم وعقيدتهم حين واجهوهم تحت راية العقيدة، فخوفًا من حماس العقيدة الإسلامية وجيشانها: أعلنوا الحرب باسم الأرض والاقتصاد والسياسة والمراكز العسكرية، وألقوا في روع المخدوعين منا: إن حكاية العقيدة قد صارت حكاية قديمة لا معنى لها! ولا يجوز رفع رايتها، وخوض المعركة باسمها، فهذه سمة المتخلفين المتعصبين! وذلك ليأمنوا جيشان العقيدة من جديد، بينما هم في قرارة نفوسهم جميعًا:

---

(١) مدارج السالكين ١/٣٤٧، ٣٤٩ بتصرف.

يخوضون المعركة أولاً وقبل كل شيء لتحطيم هذه الصخرة العاتية التي نطحوها طويلاً فأدمتهم جميعًا!

فإذا نحن خدعنا بخديعتهم فلا نلومن إلا أنفسنا، ونحن نبتعد عن توجيه الله لنبيه ﷺ ولأمته وهو سبحانه أصدق القائلين: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

هذا هو الثمن الوحيد الذي يرتضونه وما سواه فمرفوض ومردود. ولكن الأمر الحازم والتوجيه الصادق ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ على سبيل القصر والحصر هدى الله هو الهدى وما عداه فليس بهدى[1].

وخلاصة القول:

إن حقيقة العداوة وطبيعتها هو اختلاف الدينين، وافتراق المنهجين. فإما دين الله واتباع شرعه وموالاة عباده المؤمنين.

وإما دين الباطل واتباع الهوى والشهوات والشيطان والانضمام إلى حزب الشيطان. فعلى أولياء الله أن يعتزوا بدينهم، وأن يستعلوا فوق وطأة الباطل فإنهم هم المنصورون، وإذا كان أعداء الله يتباهون بقوتهم وكثرة عددهم وعدتهم فإن المؤمنين يفخرون بنصر الله وكريم معيته وعونه لهم.

فقد ورد في صحيح البخاري عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «يقول الله تعالى: من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي

(١) بتصرف في ظلال القرآن ١/١٠٨.

عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته ولابد له منه»[1].

ويقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨].

﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾ [الأنفال: ١٢].

﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾ [محمد: ٣٥].

وإذا قلبنا صفحات التاريخ وجدنا مصداق ذلك، ففي غزوة بدر نصر الله القلة المؤمنة على الكثرة الكافرة، وأعزّ دينه ونصر حزبه، وفتوحات المسلمين شرقًا وغربًا وتحطيم عروش كسرى وقيصر ليست بغائبة عن الأذهان.

ونصر الله وتأييده للمؤمنين في معركتهم مع التار ومع الصليبيين الحاقدين. وغيرها من مئات الحوادث سواء كانت على مستوى الفرد أم الجماعة خير شاهد على ما نقول.

وسيبقى النصر والعون والمدد لأولياء الله إن شاء الله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وما على المؤمنين إلا الصدق مع الله والإخلاص في العمل ابتغاء مرضاته هو وحده، والعمل وفق كتابه وسنة نبيه ولن يضيع الله أجر من أحسن عملاً.

❁❁❁❁

(١) سبق تخريجه ص٩١.

الفصل الثالث

عقيدة أهل السنّة والجماعة في الولاء والبراء

لابد أن نذكر معتقد أهل السنة والجماعة في الولاء والبراء حتى يخرج بذلك أرباب البدع والأهواء التي لا تستند إلى دليل قوي من كتاب الله أو سنّة رسوله ﷺ.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: على المؤمن أن يعادي في الله، ويوالي في الله، فإن كان هناك مؤمن فعليه أن يواليه – وإن ظلمه – فإن الظلم لا يقطع الموالاة الإيمانية.

قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩].

فجعلهم إخوة مع وجود القتال والبغي، وأمر بالإصلاح بينهم، فليتدبر المؤمن: إن المؤمن تجب موالاته وإن ظلمك واعتدى عليك، والكافر تجب معاداته وإن أعطاك وأحسن إليك. فإن الله سبحانه بعث الرسل، وأنزل الكتب ليكون الدين كله لله، فيكون الحب لأوليائه والبغض لأعدائه، والإكرام والثواب لأوليائه والإهانة والعقاب لأعدائه.

وإذا اجتمع في الرجل الواحد: خير وشر، وفجور وطاعة، ومعصية وسنّة وبدعة استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير، واستحق من المعاداة والعقاب بحسب ما فيه من الشر، فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة كاللص تقطع يده لسرقته، ويعطي من بيت المال ما يكفيه لحاجته. هذا هو الأصل الذي اتفق عليه أهل السنّة والجماعة، وخالفهم الخوارج والمعتزلة ومن وافقهم(١).

ولما كان الولاء والبراء مبنيين على قاعدة الحب والبغض كما أسلفنا فيما سبق فإن

---

(١) انظر مجموع الفتاوى ٢٨/٢٠٨، ٢٠٩.

الناس في نظر أهل السنة والجماعة – بحسب الحب والبغض والولاء والبراء – **ثلاثة أصناف**:

الأول: من يحب جملة. وهو من آمن بالله ورسوله، وقام بوظائف الإسلام ومبانيه العظام علمًا وعملاً واعتقادًا. وأخلص أعماله وأفعاله وأقواله لله، وانقاد لأوامره وانتهى عمّا نهى الله عنه ورسوله، وأحب في الله، ووالى في الله وأبغض في الله، وعادى في الله، وقدم قول رسول الله ﷺ على قول كل أحد كائنًا من كان[١].

الثاني: من يحب من وجه ويبغض من وجه، فهو المسلم الذي خلط عملاً صالحًا وآخر سيئًا، فيحب ويوالي على قدر ما معه من الخير، ويبغض أكثر مما يصلح... وإذا أردت الدليل على ذلك فهذا عبد الله بن حمار[٢]. وهو رجل من أصحاب رسول الله ﷺ كان يشرب الخمر، فأتي به إلى رسول الله ﷺ فلعنه رجل وقال: ما أكثر ما يؤتى به، فقال النبي ﷺ: «لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله»[٣] مع أنه ﷺ لعن الخمر وشاربها وبائعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه[٤].

الثالث: من يبغض جملة وهو من كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ولم يؤمن بالقدر خيره وشره، وأنه كله بقضاء الله وقدره وأنكر البعث بعد الموت، أو ترك أحد أركان الإسلام الخمسة، أو أشرك بالله في عبادته أحدًا من الأنبياء والأولياء والصالحين، وصرف لهم نوعًا من أنواع العبادة كالحب والدعاء، والخوف والرجاء والتعظيم والتوكل، والاستعانة والاستعاذة والاستغاثة والذبح والنذر والإنابة والذل

---

(١) إرشاد الطالب لابن سحمان ص١٣.

(٢) عبد الله بن حمار. هكذا أورده ابن سحمان والموجود في صحيح البخاري ٧٥/١٢ أنه عبد الله، كان يلقب حمارًا وقال ابن حجر: كان يهدي إلى النبي ﷺ ويضحكه في كلامه. انظر الإصابة ذ/٢٧٥ تحقيق البجاوي.

(٣) صحيح البخاري كتاب الحدود باب ما يكره من لعن شارب الخمر وأنه ليس بخارج من الملة ٧٥/١٢ ح٦٧٨٠.

(٤) سنن أبي داود كتاب الأشربة ٨٢/٤ ح٣٦٧٤ وابن ماجه في الأشربة ١٢٢/٢ ح٣٣٨٠ قال الألباني: صحيح. انظر صحيح الجامع الصغير ١٩/٥ ح٤٩٦٧.

والخضوع والخشية والرغبة والرهبة والتعلق، أو ألحد في أسمائه وصفاته واتبع غير سبيل المؤمنين، وانتحل ما كان عليه أهل البدع والأهواء المضلة، وكذلك كل من قامت به نواقض الإسلام العشرة أو أحدها(١).

فأهل السنة والجماعة – إذن – يوالون المؤمن المستقيم على دينه ولاء كاملاً ويحبونه وينصرونه نصرة كاملة، ويتبرءون من الكفرة والملحدين والمشركين والمرتدين ويعادونهم عداوة وبغضًا كاملين. أما من خلط عملاً صالحًا وآخر سيئًا فيوالونه بحسب ما عنده من الإيمان، ويعادونه بحسب ما هو عليه من الشر.

وأهل السنة والجماعة يتبرءون ممن حاد الله ورسوله ولو كان أقرب قريب ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

ويمتثلون لله تعالى في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٣، ٢٤].

ويلخص الإمام ابن تيمية مذهب أهل السنة والجماعة فيقول:

الحمد والذم والحب والبغض والموالاة والمعاداة إنما تكون بالأشياء التي أنزل الله بها سلطانه، وسلطانه كتابه، فمن كان مؤمنًا وجبت موالاته من أي صنف كان، ومن كان كافرًا وجبت معاداته من أي صنف كان.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ

---

(١) إرشاد الطالب ص١٩.

رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المائدة: ٥٥، ٥٦].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ﴾ [المائدة: ٥١].

وقال: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ﴾ [التوبة: ٧١].

ومن كان فيه إيمان وفيه فجور أعطي من الموالاة بحسب إيمانه، ومن البغض بحسب فجوره، ولا يخرج من الإيمان بالكلية بمجرد الذنوب والمعاصي كما يقول الخوارج والمعتزلة.

ولا يُجعل الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون بمنزلة الفساق في الإيمان والدين والحب والبغض والموالاة والمعاداة.

قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ٩، ١٠].

فجعلهم إخوة مع وجود الاقتتال والبغي.

... ولهذا كان السلف مع الاقتتال يوالي بعضهم بعضًا موالاة الدين لا يعادون كمعاداة الكفار، فيقبل بعضهم بشهادة بعض، ويأخذ بعضهم العلم من بعض، ويتوارثون ويتناكحون، ويتعاملون بمعاملة المسلمين بعضهم مع بعض مع ما كان بينهم من القتال والتلاعن وغير ذلك[1].

الولاء والبراء القلبي:

ومن عقيدة أهل السنة والجماعة في هذا الموضوع أن الولاء القلبي وكذلك العداوة يجب أن تكون كاملة.

---

(١) مجموع لابن تيمية ص١٠٨ - ٢٠١ الطبعة الأولى سنة ١٣٤٩هـ مطبعة المنار بمصر.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: فأما حب القلب وبغضه، وإرادته وكراهته، فينبغي أن تكون كاملة جازمة، لا توجب نقص ذلك إلا بنقص الإيمان، وأما فعل البدن فهو بحسب قدرته، ومتى كانت إرادة القلب وكراهته كاملة تامة وفعل العبد معها بحسب قدرته فإنه يعطي ثواب الفاعل الكامل.

ذلك أن من الناس من يكون حبه وبغضه وإرادته وكراهته بحسب محبة نفسه وبغضها، لا بحسب محبة الله ورسوله، وبغض الله ورسوله وهذا نوع من الهوى، فإن اتبعه الإنسان فقد اتبع هواه:

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠] (١).

موقف أهل السنة والجماعة من أصحاب البدع والأهواء:

يدخل في معتقد أهل السنّة والجماعة البراءة من أرباب البدع والأهواء.

والبدعة: مأخوذة من الابتداع وهو الاختراع، وهو الشيء يحدث من غير أصل سبق ولا مثال احتذي ولا ألف مثل ومنه قولهم: ابتدع الله الخلق أي خلقهم ابتداء ومنه قوله تعالى:

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٧].

وقوله: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩].

أي لم أكن أول رسول إلى أهل الأرض.

وهذا الاسم يدخل فيما تخترعه القلوب، وفيما تنطق به الألسنة وفيما تفعله الجوارح (٢).

قال ابن الجوزي: «البدعة عبارة عن فعل لم يكن فابتدع. والأغلب في المبتدعات

---

(١) شذرات البلاتين ١/٣٥٤ «الأمر بالمعروف لابن تيمية».

(٢) كتاب الحوادث والبدع للطرطوشي ٣٨، ٣٩ تحقيق محمد الطالبي.

أنها تصادم الشريعة بالمخالفة وتوجب التعاطي عليها بزيادة أو نقصان»[1].

ولقائل أن يقول: ما شأننا الآن وأصحاب البدع لا سيما وأنت تتكلم عن ولاء الكفار والبراء منهم وموالاة المؤمنين ونصرهم؟

والجواب على ذلك: أولاً: أن البدعة خطرها عظيم وكبير، والدليل على ذلك أنها تنقسم إلى رتب متفاوتة ما بين الكفر الصريح إلى الكبيرة والصغيرة، وفي هذا يقول الإمام الشاطبي:

البدعة تنقسم إلى رتب متفاوتة منها ما هو كفر صراح، كبدعة الجاهلية التي نبه عليها القرآن بقوله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾ [الأنعام: ١٣٩].

وقوله: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة: ١٠٣].

وكذلك بدعة المنافقين حين اتخذوا الدين ذريعة لحفظ النفس والمال وما أشبه ذلك مما لا يشك أنه كفر صراح[2].

وقضية التحليل والتحريم خصوصية لله ﷻ فمن ادعى التحليل والتحريم فقد شرّع ومن شرّع فقد أله نفسه. وكما أن الله سبحانه وتعالى هو الخالق فهو أيضًا صاحب الأمر والسلطان، قال تعالى:

﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ

---

(١) تلبيس إبليس ص٢٦.

(٢) الاعتصام ٣٧/٢.

لِتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ [النحل: ١١٦].

فهذه البدعة الكفرية وأمثالها لأصحابها منا العداء والبغض والكره والجهاد بعد الإعذار والإنذار، والبراءة منهم لا تختلف عن البراءة من الكافر الأصلي، فقد قال ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد»[1].

قال البغوي: «وقد اتفق علماء السنة على معاداة أهل البدعة ومهاجرتهم»[2].
ونعود لرتب البدع كما ذكرها الشاطبي فقال: «ومن البدع ما هو من المعاصي التي ليست بكفر أو يختلف فيها هل هي كفر أم لا؟ كبدعة الخوارج والقدرية والمرجئة ومن أشبههم من الفرق الضالة».

ومنها: ما هو معصية ويتفق على أنها ليست بكفر، كبدعة التبتل[3] والصيام قائما في الشمس والخصاء بقصد قطع شهوة الجماع.

ومنها: ما هو مكروه كالاجتماع للدعاء عشية عرفة، وذكر السلاطين في خطبة الجمعة على ما قاله ابن عبد السلام الشافعي[4] وما أشبه ذلك[5].

فأرباب هذه البدع يتبرأ منهم أهل السنة والجماعة.

ثانيًا: لخطورة البدع على الدين أورد هنا نماذج من أقوال سلف الأمة في التحذير من البدع وأصحابها. ومن ذلك ما قاله الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه

---

(١) رواه البخاري في الصلح ٣٠١/٥ ح٢٦٩٧ ومسلم كتاب الأقضية ١٣٤٣/٣ ح١٧١٨.
(٢) شرح السنة ٢٢٧/١.
(٣) التبتل: هو الانقطاع عن الدنيا إلى الله. انظر مختار الصحاح ص٥٣.
(٤) هو سلطان العلماء عبد العزيز بن عبد السلام السلمي الدمشقي فقيه شافعي بلغ رتبة الاجتهاد ولد سنة ٥٧٧هـ وتوفي سنة ٦٦٠هـ من مؤلفاته التفسير الكبير، والإلمام في أدلة الأحكام، وقواعد الشريعة وقواعد الأحكام والفتاوى. انظر الأعلام للزركلي ٢١/٤ ط٤ وفيه أن له ترجمة في فوات الوفيات ٢٨٧/١ وطبقات السبكي ٨٠/٥ والنجوم الزاهرة ٢٠٨/٧ وذيل الروضتين ٢١٦ ومفتاح السعادة ٢١٢/٢.
(٥) الاعتصام ٣٧/٢.

حيث يقول:

«من كان مستنًا فليستن بمن قد مات: أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا خير هذه الأمة، أبرها قلوبًا، وأعمقها علمًا وأقلها تكلفًا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيّه ﷺ ونقل دينه، فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم، فهم كانوا على الهدي المستقيم»[(١)]. وقال سفيان الثوري رحمه الله: البدعة أحب إلى إبليس من المعصية، المعصية يتاب منها، والبدعة لا يتاب منها[(٢)].

وقال الإمام مالك رحمه الله: من أحدث في هذه الأمة شيئًا لم يكن عليه سلفها فقد زعم أن رسول الله ﷺ خان الدين، لأن الله تعالى يقول:

﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ [المائدة: ٣].

فما لم يكن يومئذ دينًا لا يكون اليوم دينًا[(٣)].

وذكر الشاطبي رحمه الله أن مفاسد البدع تنحصر في أمرين:

١) أنها مضادة للشارع، ومراغمة له، حيث نصب المبتدع نفسه منصب المستدرك على الشريعة لا منصب المكتفي بما حد له.

٢) أن كل بدعة – وإن قلت – تشريع زائد أو ناقص، أو تغيير للأصل الصحيح، وكل ذلك قد يكون على الانفراد، وقد يكون ملحقًا بما هو مشروع فيكون قادحًا في المشروع، ولو فعل أحد مثل هذا في نفس الشريعة عامدًا، لكفر، إذ الزيادة والنقصان فيها أو التغيير – قل أو كثر – كفر[(٤)]. ويعضد هذا النظر عموم الأدلة في ذم البدع ومنها: قوله ﷺ: «كل بدعة ضلالة»[(٥)] وقوله ﷺ: «من دعا إلى ضلالة

---

(١) شرح السنة للبغوي ١/٢١٤.
(٢) شرح السنة ١/٢١٦.
(٣) الاعتصام ٢/٥٣.
(٤) الاعتصام ٢/٦١ بتصرف بسيط.
(٥) صحيح مسلم كتاب الجمعة ٢/٥٩٢ ح٨٦٧.

كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا»[١].

وقال أحد علماء السلف: «لا تجالسوا أصحاب الأهواء - أو قال - أصحاب الخصومات فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم، ويلبسوا عليكم بعض ما تعرفون»[٢].

فالخلاصة: إنه من معتقد أهل السنّة والجماعة البراء من المبتدعين خاصة أصحاب البدع الكفرية ولذلك سيرد مزيد من تفصيل هذا في الباب الثاني إن شاء الله.



(١) صحيح مسلم كتاب العلم ٤/٢٠٦٠ ح٢٦٧٤.

(٢) شرح السنة ١/٢٢٧.

الفصل الرابع

أسوة حسنة في الولاء والبراء من الأمم الماضية

أ) إبراهيم الخليل عليه السلام:

لقد كان نبي الله إبراهيم عليه السلام: أسوة حسنة وقدوة طيبة في ولائه لربّه ودينه وعباد الله المؤمنين، وبرائه ومعاداته لأعداء الله ومنهم أبوه.

لقد كانت سيرة نبي الله إبراهيم عليه السلام مع قومه كأي نبي رسول، حيث دعاهم بالتي هي أحسن إلى عبادة الله وتوحيده، وإفراده بالعبادة، والكفر بكل طاغوت يعبد من دون الله.

قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا (٤١) إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا (٤٢) يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا (٤٣) يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا (٤٤) يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا (٤٦) قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا (٤٧) وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا (٤٨) فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا (٤٩)﴾ [مريم: ٤١-٤٩].

تلك هي نقطة البدء في دعوة خليل الرحمن، دعوة بالحسنى، مبتدئًا بأقرب الناس إليه، فإن لم يكن هناك تجاوب مع هذه الدعوة فالاعتزال لهذا الباطل وأصحابه على في ذلك ردعًا وزجرًا وتفكرًا في هذا الأمر الجديد، ونجاة للداعي من مشاركة أهل الباطل في باطلهم إذا كان لابد له من مخالطتهم ومعاشرتهم وعدم تمكنه من الهجرة من أرضهم.

ثم يمضي القرآن في بيان دعوة إبراهيم عليه السلام مبينًا أنه استخدم مع قومه كل حجة ودليل: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ۝ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ۝ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ۝ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ۝ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ۝ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ۝ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ۝ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ۝ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝﴾ [الشعراء: ٦٩-٧٧].

ولما لم يجدوا حجة وإنما هو التقليد الأعمى لفعل الآباء والأجداد قال لهم إبراهيم عليه السلام أنا عدو آلهتكم هذه، وهذا كما قال نوح عليه السلام فيما أخبر الله عنه بقوله:

﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ۝﴾ [يونس: ٧١].

وقال هود عليه السلام ﴿إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝﴾ [هود: ٥٤-٥٦].

وقال تعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤] (١).

وعقيدة إبراهيم عليه السلام هذه هي التي عبر عنها علماؤنا الأجلاء علماء سلف هذه الأمة بقولهم: لا موالاة إلا بالمعاداة. كما قال العلامة ابن القيم رحمه الله: «لا تصح الموالاة إلا بالمعاداة كما قال تعالى عن إمام الحنفاء المحبين، أنه قال لقومه:

﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ۝ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ۝ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا

(١) انظر تفسير الآيات السابقة في ابن كثير ج٦/١٥٦.

رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٧].

فلم تصح لخليل الله هذه الموالاة والخلة إلا بتحقيق هذه المعاداة. فإنه لا ولاء إلا لله، ولا ولاء إلا بالبراءة من كل معبود سواه قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨].

أي جعل هذه الموالاة لله والبراءة من كل معبود سواه كلمة باقية في عقبه يتوارثها الأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض، وهي كلمة لا إله إلا الله، وهي التي ورثها إمام الحنفاء لأتباعه إلى يوم القيامة(١).

ويقول الإمام الطبري: قد كانت لكم يا أمة محمد أسوة حسنة في فعل إبراهيم والذين معه في هذه الأمور من مباينة الكفار، ومعاداتهم، وترك موالاتهم إلا في قول إبراهيم:

﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: ٤].

فإنه لا أسوة لكم فيه في ذلك لأن ذلك كان من إبراهيم عن موعدة وعدها إيّاه، قبل أن يتبين له أنه عدو لله فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، فتبرءوا من أعداء الله، ولا تتخذوا منهم أولياء حتى يؤمنوا بالله وحده ويتبرءوا من عبادة ما سواه، وأظهروا لهم العداوة والبغضاء(٢).

وقد كان من نتيجة هذه المعاداة وهذا البراء القوي أن أجمع الطغاة على قتل إبراهيم — كما هو حال كل طاغية على مر عصور التاريخ في إبادة الدعاة إلى الله، لا لشيء إلا لأنهم يدعونهم إلى عبادة الله وحده.

---

(١) الجواب الكافي ص٢١٣ وانظر تفسير ابن كثير ج٧/٢١٢ ومجموعة التوحيد ص١٣٣.
(٢) تفسير الطبري ٦٢/٢٨.

﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ [البروج: ٨].

وجمعوا له نارًا عظيمة فكانت رعاية الله وحفظه تحوطان خليله الصادق عليه الصلاة والسلام فصارت النار بردًا وسلامًا عليه.

﴿قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الصافات: ٩٧، ٩٨].

لقد عدلوا عن الجدال والمناظرة لما انقطعوا وغلبوا، ولم تبق لهم حجة ولا شبهة إلى استعمال قوتهم وسلطانهم لينصروا ما هم عليه من سفههم وطغيانهم فكادهم الرب ﷻ، وأعلى كلمته ودينه وبرهانه كما قال تعالى:

﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء: ٦٨-٧٠][1].

وتأتي التوجيهات الربانية لخاتم الأنبياء محمد ﷺ باتباع ملة أبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٣].

﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [آل عمران: ٩٥].

﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ [البقرة: ١٣٥].

﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عمران: ٦٨].

---

(١) قصص الأنبياء، للحافظ ابن كثير ١٨١/١ ،انظر تفاصيل القصة في نفس المصدر.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: ١٢٥].

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨].

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠].

فهذا الإخبار من الله لأمة محمد ﷺ عن فعل إبراهيم عليه السلام من أجل الاقتداء به في الإخلاص، والتوكل على الله وحده، وعبادة الله وحده والبراءة من الشرك وأهله ومعاداة الباطل وحزبه.

ب) أمثلة أخرى على طريق الحق والهدى:

كما سبق أن ذكرنا أن دعوة الأنبياء واحدة. دعوة لعبادة الله وحده وإفراده بالدينوية والتأله والحب والرضى بحكمه وشرعه، والبراءة من كل طاغوت معبود من دون الله سواء بالرغبة أو الرهبة.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

فإننا نجد أمثلة مشرقة ونماذج إيمانية رفيعة على طريق العقيدة الغرّاء.

إنهم المؤمنون، أينما وحيثما كانوا وحلوا وفي أي عصر ومصر عاشوا. يوردها ربنا تبارك وتعالى في محكم تنزيله، حتى تكون لنا أسوة حسنة. وتسلية لرسوله الكريم ﷺ عمّا كان يلاقيه هو وصحابته الأخيار.

وما أحوج الداعية المسلم – وهو الحريص على حب الخير لكل الناس – أن يتدبر هذه الأمثلة والنماذج الإيمانية فسيجد فيها العزاء والتسلية فيما يلاقيه من مشقة وعنت. وإذا كانت هذه سنة الله في أنبيائه وعباده الصالحين أن يتعرضوا للأذى

والعنت – وهم أكرم خلق الله على الله – فمن باب أولى أن يلاقي دعاة الهدى والخير صنوفًا شتى من الأذى والسخرية والاستهزاء والعذاب وسيجدون معية الله تصحبهم وترعاهم وحفظه وقدره يحوطهم. وكل ما يلقونه إنما هو ابتلاء واختيار كما قال تعالى:

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وحين يثبت المؤمنون على الحق، ويتوكلون على الله حق توكله، ويخافونه وحده، ولا يخافون إلا الله، فسيكون هذا دافعًا عظيمًا لدخول الناس في دين الله، والاهتداء بهديه، والاقتداء بهؤلاء الصادقين الذين ضحوا بكل غال ونفيس، وزهدوا فيما عند الناس راغبين ومؤملين فيما عند الله.

ومن هذه الأمثلة التي نريد الحديث عنها باختصار، نوح عليه الصلاة والسلام فقد دعا قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا فلم يؤمن معه إلا القليل، والموقف الذي نريد أن نتحدث عنه من مواقفه عليه السلام هو موقفه مع ابنه الذي عصاه وأبى أن يستجيب لدعوة أبيه. قال تعالى:

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [هود: ٤٢-٤٧].

إن الوشيجة التي يتجمع عليها الناس في هذا الدين ليست وشيجة الدم والنسب، وليست وشيجة الأرض والوطن، وليست وشيجة القوم والعشيرة. وليست وشيجة اللون واللغة. ولا الجنس والعنصر، ولا الحرفة والطريقة إنها وشيجة العقيدة.

أما الوشائج الأخرى فقد توجد ثم تنقطع العلاقة بين الفرد والفرد.

ويبين الله لنوح لماذا لا يكون ابنه من أهله؟ ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ فوشيجة الإيمان قد انقطعت بينكما ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾، ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ ولو كان هو ابنك من صلبك[1].

وهنا يأتي الإذعان الكامل والخوف من الله سبحانه وطلب مرضاته ورحمته فيقول عبده الصالح نوح:

﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٤٧)﴾.

لقد استعلى نبي الله على العاطفة ورضي بحكم الله، فلا لجاجة ولا التواء، ولا معذرة ولا تأويل، بل تسليم مطلق، واتباع لما يحب الله ويرضى، وإعراض عما يكره ويبغض وولاء لمن يحب الله وبراء وعداء لمن حاد الله ولو كان أقرب قريب.

ولم يكن شأن نبي الله نوح عليه السلام هذا مقصورًا على هذا الابن الكافر، بل أيضًا مع زوجته، ويا له من امتحان عظيم في الزوجة والابن!

هذه الزوجة تحدث عنها القرآن وعن نظيرة لها وشبيهة بفعلها وهي زوجة لوط عليه السلام، فقد ابتلى هذان النبيان بزوجتين فاسدتين ضربهما الله لنا مثلاً في كتابه العزيز فقال:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ

---

(١) في ظلال القرآن ٤/١٨٨٧.

مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [التحريم: ١٠].

على أن مما يجب التنويه عنه هنا – استطرادًا – أن هذه الخيانة في الدين، وليست فى الفاحشة، فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع فى الفاحشة لحرمة الأنبياء عليهم السلام.

أما امرأة نوح فكانت تفشي سره، إذا آمن معه أحد أخبرت الجبابرة من قومها، وامرأة لوط تخبر قومها بضيوف زوجها من أجل فعل السوء القبيح[(١)].

وعلى النقيض من هذا الفعل المشين من هاتين المرأتين يضرب لنا القرآن مثلاً عاليًا فى الإيمان والاستعلاء على الكفار من قبل امرأة مؤمنة هي زوجة فرعون اللعين قال تعالى:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [التحريم: ١١].

إن هذه المرأة لم يصدها طوفان الكفر الذي تعيش فيه، فى قصر فرعون عن طلب النجاة وحدها، وقد تبرأت من قصر فرعون طالبة إلى ربّها بيتًا فى الجنة وتبرأت من صلتها بفرعون فسألت ربّها النجاة منه، وتبرأت من عمله مخافة أن يلحقها من عمله شيء وهي ألصق الناس به. ﴿وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾. وتبرأت من قوم فرعون وهي تعيش بينهم ﴿وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. إنه مثل للاستعلاء على عرض الحياة الدنيا فى أزهى صوره، فقد كانت امرأة فرعون، أعظم ملوك الأرض يومئذ!! فى قصر فرعون أمتع مكان تجد فيه امرأة ما تشتهي! لقد استعلت على هذا بالإيمان و لم تعرض عنه فحسب، بل اعتبرته شرًا ودنسًا وبلاء تستعيذ بالله منه.

إنها امراة واحدة فى مملكة عريضة قوية. وقفت وحدها فى وسط ضغط المجتمع

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ١٩٨/٨.

وضغط القصر، وضغط الملك، وضغط الحاشية، ورفعت رأسها للسماء! إنه التجرد الكامل من كل هذه المؤثرات والأواصر[١].

إن وقوف هذه المرأة أمام ذلك الجبار من الأهمية بمكان، علّ فى ذلك ما يدفع تثبيط الشيطان وحزبه لبعض دعاة الإسلام وهم يخافون أن يمسهم الناس بشيء لم يكتبه الله عليهم.

ألا فلنأخذ من قرآننا عبرة وعظة، وشحنة عمل، ومنهاج دنيا وآخره حتى نقوم بما كلفنا الله به وشرفنا بالانتساب إليه وهي الدعوة إلى الله.

يقول قتادة: كان فرعون أعتى أهل الأرض وأبعده، فوالله ما ضر امرأته كفر زوجها حين أطاعت ربّها لتعلموا أن الله حكم عدل، لا يؤاخذ أحدًا إلا بذنبه[٢].

وهناك أيضًا نموذج آخر، وعَلَم من أعلام دعاة صراط الله المستقيم. إنه مثلٌ رفيع فى الولاء لله ودينه وعباده الصالحين فى النصرة والجهاد بقدر الطاقة لإعلاء كلمة الله، والبراءة من الكفار بعد إقامة الحجة والبرهان عليهم، إنه مؤمن آل فرعون.

لننظر فى موقفه وفي ولائه حين عزم الطاغية فرعون على قتل رسول الله موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام. لقد قال مؤمن آل فرعون كما حكاه القرآن عنه:

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَـٰدِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾ [غافر: ٢٨].

واسم هذا الرجل حبيب النجار والمشهور أنه كان قبطيًا من آل فرعون. وكان

---

(١) بتصرف: في ظلال القرآن ٣٦٢٢/٦.

(٢) تفسير ابن كثير ١٩٩/٨.

يكتم إيمانه عن قومه القبط، و لم يظهره إلا هذا اليوم حين قال فرعون:

﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٢٦].

فأخذت الرجل غضبة لله ﷻ و «أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»[(١)].

ولا أعظم من هذه الكلمة وهي قوله: ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾[(٢)].

فانظر إلى ولاء هذا الرجل المؤمن لنبي الله موسى ونصرته له، وتدبر براءه من الطاغية حتى وهو يصب عليه العذاب.

وأخيرًا نقف مع الفتية الصلحاء «أصحاب الكهف» الذين تركوا الأهل والولد والوطن والعشيرة حين علموا أنه لا طاقة لهم بمواجهة ومجابهة قومهم فنجوا بأنفسهم إلى ذلك الكهف الذي تجلت فيه معجزة عظيمة يسوقها الله لنا عبرة وعظة في حفظه لعباده الصالحين.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدًى ۝١٣ وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذًا شَطَطًا ۝١٤ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝١٥ وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقًا ۝١٦﴾ [الكهف: ١٣ - ١٦].

لقد كان موقف هؤلاء الفتية صريحًا وواضحًا وحاسمًا. وحين يتباين الطريقان

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم ٥١٤/٤ ح٤٣٤٤ والترمذي في كتاب الفتن ٣٨٨/٦ ح٢١٧٥ وقال حديث حسن غريب من هذا الوجه، وابن ماجه في الفتن ١٣٢٩/٢ ح٤٠١١ ومسند أحمد ١٩/٣ والنسائي في البيعة ١٦١/٧ وقال الألباني صحيح: انظر المشكاة ١٠٩٤/٢.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ١٣٠/٧.

ويختلف المنهجان لا يعود هناك سبيل إلى الالتقاء ولا المشاركة في الحياة. بل لابد من الفرار بالعقيدة.

إنهم ليسوا رسلاً إلى قومهم فيواجهوهم بالعقيدة الصحيحة ويدعوهم إليها، ويتلقوا ما يتلقاه الرسل، إنما هم فتية تبين لهم الهدى في وسط ظالم كافر، ولا حياة لهم في هذا الوسط إن هم أعلنوا عقيدتهم وجاهروا بها. وهم أيضًا لا يطيقون صدارات قومهم، وعبادة آلهتهم على سبيل التقية وإخفاء عبادتهم لله.

على أن الأرجح أن أمرهم قد كشف فلابد من الفرار بدينهم إلى الله، وقد فروا إلى كهف خشن ضيق، مؤثرين له على كل زينة من زينة الحياة الدنيا.

إنهم يستروحون رحمة الله ويحسونها ظليلة فسيحة ممتدة «ينشر» تلقي ظلال السعة والبحبوحة والانفساح فإذا الكهف فضاء فسيح رحيب، تنتشر فيه الرحمة وتتسع خيوطها.

إنه الإيمان! وما قيمة الظواهر؟ وما قيمة القيم والأوضاع والمدلولات التي تعارف عليها الناس في حياتهم الأرضية؟

إن هنالك عالمًا آخر في جنبات القلب المغمور بالإيمان، المأنوس بالرحمن. عالمًا تظلله الرحمة والرفق والاطمئنان والرضوان[1].

وهكذا تتعدد الأمثال في جميع الوشائج والروابط، وشيجة الأبوة في قصة نوح ووشيجة البنوة والوطن في قصة إبراهيم، ووشيجة الأهل والعشيرة والوطن جميعًا في قصة أصحاب الكهف، ورابطة الزوجية في قصص امرأتي نوح ولوط وامرأة فرعون.

هكذا يمضي الموكب الكريم حتى تجيء الأمة الوسط، فتجد هذا الرصيد من الأمثال والنماذج والتجارب، فتمضي على النهج الرباني للأمة المؤمنة.

وتفترق العشيرة الواحدة والبيت الواحد حيث تفترق العقيدة ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا

---

(١) الظلال ٤/٢٢٦٢ بتصرف بسيط.

يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

لقد جمعت هذه العقيدة صهيبًا الرومي وبلالاً الحبشي، وسلمان الفارسي وأبا بكر العربي القرشي تحت راية لا إله إلا الله محمد رسول الله «وتوارت عصبية القبيلة والجنس والأرض وقال لهم ﷺ: «دعوها فإنها منتنة»[١]. وقال: «ليس منا من دعا إلى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية»[٢] فانتهى أمر هذا النتن، وماتت نعرة الجنس. واختفت لوثة القوم، واستروح البشر أرج الآفاق العليا، ومنذ ذلك اليوم لم يعد وطن المسلم هو الأرض وإنما وطنه هو «دار الإسلام»، تلك الدار التي تسيطر عليها عقيدته، وتحكم فيها شريعة الله وحدها[٣].

وتبقى سيرة المصطفى ﷺ وسيرة صحابته الأخيار منار هدي وإصلاح لمن سلك ذلك السبيل، ورضي بذلك النهج القويم.

أما من حاد عن ذلك وابتعد فالله ليس بوليه، وإنما وليه «الطاغوت» ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة: ٢٥٧].

❁❁❁❁

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير ٨/٦٤٨ ح٤٩٠٥ وصحيح مسلم كتاب البر والصلة ٤/ ١٨٨٨ ح٢٥٨٤.

(٢) صحيح مسلم كتاب الإمارة ج٣/١٤٧٦ ح١٨٤٨ وح١٨٥٠ وأبي داود كتاب الأدب ٥/ ٣٤٢ ح٥١٢١.

(٣) انظر معالم في الطريق ص١٤٣.

الفصل الخامس

الولاء والبراء في العهد المكّي

كان الحديث في الفصل السابق عن أمثلة مشرقة، وصور مضيئة من ولاء وبراء الأنبياء والرسل، والصالحين عبر تاريخ البشرية الطويل.

ونتحدث هنا عن الولاء والبراء من خلال سيرة نبينا محمد ﷺ، مستمدين ذلك من الوحيين كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ وكتب السير والمغازي.

وقد اعتمدنا في تقسيم الآيات إلى مكّي ومدني، على ما ذكره علماء التفسير وعلوم القرآن من أن المكّي: على الأشهر — هو ما نزل قبل الهجرة، والمدني ما نزل بعدها[1].

وسبق أن قلنا في التمهيد: إن المسلم منذ أن يعلن شهادة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» فإن ذلك يعني إفراد الله ﷻ بالوحدانية والألوهية والربوبية وخلع كل ولاء وعبودية وطاعة وخضوع وخوف ورجاء لأي معبود أو متبوع أو مطاع من دون الله. وقصر هذا الولاء والحب والتعظيم لله ﷻ.

وقد نزل الوحي الإلهي أول ما نزل على المصطفى ﷺ في غار حراء بقوله سبحانه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ١-٥].

ثم بعد ذلك نزل قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ [المدثر: ١، ٢].

وبدأ المصطفى ﷺ يدعو الناس سرًّا إلى الإسلام وأسلم معه نفر قليل، منهم

---

(١) انظر الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٣٧/١ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

أبو بكر الصديق، وعليّ بين أبي طالب وخديجة بنت خويلد زوجته ﷺ جميعًا. وبدأ رسول الله ﷺ يغرس في نفوس أصحابه محبة الله ومحبة رسوله والاجتماع على ذلك وإخلاص الحب والولاء والنصرة للمؤمنين وبغض الكفر والشرك وأهله وهذا هو لازم كلمة التوحيد «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

وهنا نشأت الوشيجة الجديدة وشيجة العقيدة في نفوس المؤمنين وبدأ يقر في نفوسهم أن هذه هي الرابطة الحقيقية، هي الرابطة التي تطمئن لها نفس المؤمن ومع نمو هذه الغرسة الجديدة بدأت تذبل شجرة العصبية الجاهلية، والروابط الجاهلية، وبدأت نظرة الريب والاحتقار لتلك الروابط تكبر يومًا فيومًا في نفس كل من آمن بالله ورسوله.

الملتقى الأول وأولى خطوات الطريق

اختار المصطفى ﷺ دار الأرقم لتلقين من آمن معه أمور هذا الدين. ولقد كانت هذه الدار هي الملتقى الأول لأولئك القادة العظام، كانت هي الدار التي بدأ يشع منها ذكر الله وتوحيده في الأرض.

ترى ما هو حال المسلمين آنذاك؟ وماذا بعد النطق بالشهادتين؟

يجيب على ذلك الأستاذ سيد قطب رحمه الله فيقول: إنه لم يكن للإسلام والمسلمين في مكة شريعة ولا دولة، ولكن الذين كانوا ينطقون بالشهادتين كانوا يسلمون قيادهم من فورهم للقيادة المحمدية، ويمنحون ولاءهم من فورهم للعصبية المسلمة. وكان الرجل حين يدخل في الإسلام يخلع على عتبته كل ماضيه في الجاهلية، ويبدأ عهدًا جديدًا، منفصلاً كل الانفصال عن حياته التي عاشها في الجاهلية. إنه يقف من كل ما عهده في جاهليته موقف المستريب الشاك الحذر المتخوف.

لقد كانت هناك عزلة شعورية كاملة بين ماضي المسلم في جاهليته وحاضره في إسلامه، ونشأت عن هذه العزلة، عزلة في صلاته بالمجتمع الجاهلي من حوله وروابطه الاجتماعية أيضًا.

إنه قد انفصل نهائيًا من بيئة الجاهلية، واتصل نهائيًا ببيئته الإسلامية، حتى لو كان يأخذ من بعض المشركين ويعطي في عالم التجارة والتعامل اليومي.

فالعزلة الشعورية شيء، والتعامل اليومي شيء آخر.

وحين انخلع المسلم من عقيدة الشرك إلى عقيدة التوحيد، ومن تصور الجاهلية إلى تصور الإسلام فإنه أيضًا كان ينسلخ من القيادة الجاهلية، وينزع ولاءه من الأسرة والعشيرة والقبيلة، ويترجم ذلك إلى واقع وحقيقة يقوم عليها الإسلام. وهذا هو الذي أزعج «الملأ» من قريش!

أزعجهم زحف الإسلام، وأزعجهم القرآن، ولم يزعجهم من قبل أن «الحنفاء» اعتزلوا معتقدات المشركين وعباداتهم، واعتقدوا بألوهية الله وحده، وقدموا له الشعائر وحده فهذا لا يهم الطاغوت، كما يفهم بعض الطيبين الخيرين اليوم الذين لا يدركون ولا يعرفون حقيقة الإسلام.

إنما الإسلام هو تلك الحركة المصاحبة للنطق بالشهادتين ثم الانخلاع من المجتمع الجاهلي وتصوراته وقيمه وقيادته وسلطانه وشرائعه. والولاء لقيادة الدعوة الإسلامية التي تريد أن تحقق الإسلام في عالم الواقع، ولذلك قاوم «الملأ» من قريش هذه الدعوة بشتى الأساليب[1] والتقى المؤمنون على حب الله ورسوله، فكان لقاء عميقًا لأن كلا منهم جاء إلى الله ورسوله يتلقى منه، ويهتدي بهديه، ويتوجه إليه، وأحس كل منهم نحو أخيه برباط من نوع جديد، يربطه بأخوته في الله، أنه يحبه كنفسه مع أنه ليس من قبيلته ولا بينهما آصرة دم[2].

وأخذ القرآن الكريم ينزل حسب النوازل والحوادث على ما يشاء الله ﷻ لتربية الأمة على أسس العقيدة فكان الولاء والبراء يزيد كلما ازدادت التكاليف وكان من الطرق التي سلكها القرآن في عرض هذه العقيدة ضرب المثل، لأنه كما يقال: بالمثال

---

(١) بتصرف: في ظلال القرآن ١٥٠٣/٣ ومعالم في الطريق ص١٧، ٥٠.

(٢) انظر منهج التربية الإسلامية للأستاذ محمد قطب ٣٨/٢ - ٤٠.

يتضح المقال. ومعلوم أن كلام الله واضح ولكن سياق المثل يستثير في الإنسان نوعًا من التفكر وتدبر العبرة والعظة لتغيير المسار الخاطئ والاتجاه في الطريق الصحيح.

ومن هذه الأمثلة في موضوعنا قوله تعالى:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [العنكبوت: ٤١].

وبتقرير هذه الحقيقة الضخمة في النفوس، كان المؤمنون أقوى من جميع القوى التي وقفت في طريقهم، وداسوا بها على كبرياء الجبابرة في الأرض، ودكوا بها المعاقل والحصون.. إن قوة الله وحدها هي القوة، وولاية الله وحدها هي الولاية وما عداها فهو واهن ضئيل هزيل، مهما علا واستطال، ومهما تجبر وطغى ومهما ملك من وسائل البطش والطغيان والتنكيل[١].

ومكث المصطفى ﷺ في دعوته للناس بالسر ثلاث سنوات، كما قال ذلك علماء السير والمغازي[٢].

وبعد أن فشا ذكر الإسلام في مكة، وتحدث الناس به أمر الله ﷻ رسوله ﷺ أن يصدع بما جاءه منه، وأن يبادئ الناس بأمره، وأن يدعو إليه ونزل قوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [الحجر: ٩٤].

وقال الله له: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤، ٢١٥][٣].

وهنا بدأ الابتلاء للمسلمين، وهذا الابتلاء الذي ظاهره الشدة هو في حقيقته نعمة،

---

(١) انظر في ظلال القرآن ٥/٢٧٣٧.

(٢) انظر السيرة النبوية لابن هشام ١/٢٨٠.

(٣) السيرة لابن هشام ١/٢٨٠

لأنه يتضح من خلاله: الصادق من الكاذب، والخبيث من الطيب. قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: ١-٣].

وحدث لأصحاب رسول الله ﷺ من الابتلاء والشدة الشيء الكثير، حتى إنهم كانوا يذهبون للشعاب يستخفون بصلاتهم عن قومهم[١].

ردود الفعـــل

ماذا فعل المؤمنون تجاه العذاب الذي صبه عليهم أعداء الله؟ ما هو رد فعل المسلمين تجاه ما فعل بهم عامة وما فعل ببلال وآل ياسر وغيرهم من المستضعفين خاصة؟

إنه الصبر على الأذى والهجر الجميل. قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝١١﴾ [المزمل: ١٠، ١١].

وصبر المصطفى ﷺ وكانت تربيته الربانية كفيلة بتطهير نفوس المؤمنين معه فكانوا كل يوم يزدادون من سمو الروح ونقاء القلب ونظافة الخلق والتحرر من سلطان الماديات والشهوات شيئًا كثيرًا.

كان ﷺ يأخذهم بالصبر على الأذى والصفح الجميل، وقهر النفس مع أنهم قوم قد رضعوا حب الحرب، وكأنهم ولدوا مع السيف، وهم أمة من أيامها حرب البسوس وداحس والغبراء. وما يوم الفجار ببعيد!!.

ولكن رسول الله ﷺ قهر طبيعتهم الحربية، وكبح نخوتهم العربية فانقهروا لأمره، وكفوا أيديهم وتحملوا من قريش ما تسيل منه النفوس، في غير جبن وفي غير عجز[٢]. هذا بالنسبة لموقف المسلمين من أعدائهم.

---

(١) المصدر السابق ٢٨٢/١.

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبي الحسن الندوي ص٩٧ بتصرف.

أما ولاؤهم فيما بينهم، فنقول: إن المصطفى ﷺ قد حرص على غرس ركيزتين أساسيتين في نفوسهم هما:

١) الإيمان بالله، ذلك الإيمان المنبثق من معرفته سبحانه، وتمثل صفاته في الضمائر، وتقواه، ومراقبته، مع اليقظة والحساسية التي بلغت في نفوسهم حدًّا غير معهود إلا في النادر من الأحوال.

٢) الحب الفياض، والتكافل الجاد العميق، حيث بلغت فيه الجماعة المسلمة مبلغًا لولا أنه وقع بالفعل لعد من أحلام الحالمين(١).

٣) إن نقطة الحب في الله التي التقى عليها هؤلاء المؤمنون، كانت أيضًا لقاء على ما يتبع هذه الدعوة من جهد أو غرم، وما يستتبع ذلك من ألم أو سرور وجعل العاطفة الإنسانية تحب وتبغض تبعًا لما يصيب الإسلام من خير أو شر(٢).

ولكي يكون لهذا الكلام ما يدعمه من دليل، وحتى نعلم ما هي نتائج تربية «دار الأرقم» أذكر موقفًا واحدًا لصديق هذه الأمة، أبي بكر الصديق ﷺ.

وطئ أبو بكر ﷺ في مكة يومًا بعد ما أسلم، وضرب ضربًا شديدًا، ودنا منه عتبة ابن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفين، ويحرفهما لوجهه، ثم نزا على بطن أبي بكر حتى ما يعرف وجهه من أنفه، وحملت بنو تيم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله، ولا يشكون في موته، فتكلم آخر النهار فقال: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فمسوا منه بألسنتهم وعذلوه، ثم قاموا وقالوا لأمه أم الخير: انظري إن تطعميه شيئًا أو تسقيه إيّاه، فلما خلت به ألحت عليه وجعل يقول: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فقالت: والله ما لي علم بصاحبك فقال: اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه، فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت: إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله قالت: ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك ذهبت قالت:

---

(١) انظر طريق الدعوة في ظلال القرآن ١/١٨٨.

(٢) انظر هذا ديننا للشيخ محمد الغزالي ص١٧٨.

نعم. فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعًا دنفًا، فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح وقالت: والله أن قومًا نالوا منك هذا لأهل فسق وكفر، وإني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم، قال: فما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالت: هذه أمك تسمع!! قال: فلا شيء عليك منها، قالت: سالم صالح، قال: أين هو؟ قالت: في دار ابن الأرقم، قال: فإن لله علي أن لا أذوق طعامًا ولا أشرب أو آتي رسول الله ﷺ فأمهلها حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس خرجنا به يتكئ عليهما حتى أدخلناه على رسول الله ﷺ [(١)].

يا لله! رجل مضروب، مثخن بالجراح لا يتناول حتى شربة الماء وهو أشد ما يكون حاجة إليها حتى يرى رسول الله ﷺ ؟!

حقًا إنها تربية دونها كل تربية. وحقًا نقول إن ذلك الجيل الذي ربّاه المصطفى ﷺ جيل فريد على غير مثال سابق ولاحق.

سمات العلاقة بين المسلمين وأعدائهم في العهد المكي

إن المرحلة المكّية كانت تقتضي أن تكون العلاقة بين المسلمين والمشركين علاقة غير قتالية، علاقة بيان للحق، وصبر على الأذى فيه، واحتساب لكل ما عرفته رباع مكّة ورمضاؤها والطائف وفجاجها من أذى للمصطفى ﷺ وعذاب واضطهاد لبلال وعمار وخباب وآل ياسر وغيرهم ﷺ أجمعين.

ذلك أن ظروف تلك المرحلة كانت تقتضي اتخاذ الأساليب السلمية، وعرض الحقائق الإيمانية عرضًا مؤثرًا، عله يكون في هذا وفيما أبداه المؤمنون الصابرون من تحمل وصبر، ما يرجع لأهل اللب صوابهم، وما أجدر ذلك باستجابة القوم لولا اتباع الهوى وسلطان المصالح الزائلة من زعامة ووجاهة ومكاسب مادية، وما إلى ذلك[(٢)].

والتربية النبوية في هذا العهد ذات شأن عظيم ذلك أنها كانت تربية تقوم على ضبط النفس، والصبر على الأذى، وإعداد العدة مع حبس دواعي الانطلاق، وكف

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٣/٣٠ وانظر ماذا خسر العالم للندوي ص١١٣.

(٢) انظر: علاقة الأمة المسلمة بالأمم الأخرى للأستاذ أحمد محمود الأحمد ٨، ٩.

حدة الإقدام،واحتمال جهل الجاهلين وبغي الطاغين. وكل ذلك من غير ذلك ولا استخذاء، ولا يأس ولا وهن، بل أن عيونهم قريرة وقلوبهم مطمئنة إلى نصر الله ونفوسهم مستعلية على شرك المشركين وضلالهم وفتنتهم[١].

ومن المهم في هذا الموضوع أن نلاحظ الحكمة الربانية في عدم فرضية القتال في مكة فإنه إنما شرع في العهد المدني أما (حين كان المسلمون في مكّة فقد كان المشركون أكثر عددًا، فلو أمر المسلمون وهم أقل من العشر بقتال الباقين لشق عليهم، ولهذا بايع أهل يثرب ليلة العقبة رسول الله ﷺ وكانوا نيفًا وثمانين قالوا: يا رسول الله ألا نميل على أهل الوادي – يعنون أهل منى – ليالي منى فنقتلهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «إني لم أؤمر بهذا»[٢].

ونحن حين نلتمس الحكمة في هذه الحالة وفي غيرها من التكاليف الشرعية – كما يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله – لا نجزم بما نتوصل إليه، لأننا حينئذ نتألى على الله ما لم يبين لنا من حكمة. ونفرض أسبابًا وعللاً قد لا تكون هي الأسباب والعلل الحقيقية، أو قد تكون.

ذلك أن شأن المؤمن أمام أي تكليف، أو أي حكم من أحكام الشريعة هو التسليم المطلق لأن الله سبحانه هو العليم الخبير، وإنما نقول هذه الحكمة والأسباب من باب الاجتهاد وعلى أنه مجرد احتمال لأنه لا يعلم الحقيقة إلا الله، ولم يحددها هو لنا ويطلعنا عليها بنص صريح[٣].

وهذه الأسباب والعلل ذكرها الأستاذ سيد قطب رحمه الله في كتابيه القيمين: «في

---

(١) سبيل الدعوة الإسلامية. د. محمد أمين المصري ص١١١ - ١١٣ بتصرف.

(٢) تفسير ابن كثير ٤٣١/٥ والحديث في مسند أحمد ٤٦٢/٣ في سنده معبد بن كعب بن مالك، قال عنه ابن حجر في التقريب مقبول، وذكر في التهذيب أن له حديثًا واحدًا في صحيح البخاري وأخرج له مسلم. ووثقه ابن حبان.

(٣) انظر الظلال ٧١٤/٢.

ظلال القرآن» عند تفسير سورة النساء، وفي «معالم في الطريق»[(١)].

فضائل الجهاد في سبيل الله وسأوجزها فيما يلي:

١) إن الكف عن القتال في مكة ربما كان لأن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد، في بيئة معينة، لقوم معينين، وسط ظروف معينة، ومن أهداف التربية في مثل هذه البيئة: تربية الفرد العربي على الصبر على ما لا يصبر عليه عادة من الضيم حين يقع عليه أو على من يلوذون به: ليخلص من شخصه، ويتجرد من ذاته، فلا يندفع لأول مؤثر، ولا يهتاج لأول مهيج ومن ثم يتم الاعتدال في طبيعته وحركته. ثم تربيته على أن يتبع نظام المجتمع الجديد والتقيد بأوامر القيادة الجديدة، حيث لا يتصرف إلا وفق ما تأمره – مهما يكن مخالفًا لمألوفه وعادته – وقد كان هذا هو حجر الأساس في إعداد شخصية العربي المسلم لإنشاء «المجتمع المسلم».

٢) وربما كان ذلك أيضًا لأن الدعوة السلمية أشد أثرًا وأنفذ في مثل بيئة قريش ذات العنجهية والشرف، والتي قد يدفعها القتال معها – في مثل هذه الفترة – إلى زيادة العناد ونشأة ثارات دموية جديدة كثارات العرب المعروفة أمثال داحس والغبراء وحرب البسوس، وحينئذ يتحول الإسلام من دعوة إلى ثارات تنسى معها فكرته الأساسية.

٣) وربما كان ذلك أيضًا اجتنابًا لإنشاء معركة ومقتلة داخل كل بيت، فلم تكن هناك سلطة نظامية عامة هي التي تعذب المؤمنين، وإنما كان ذلك موكولاً إلى أولياء كل فرد ومعنى الإذن بالقتال – في مثل هذه البيئة – أن تقع معركة ومقتلة في كل بيت ثم يقال: هذا هو الإسلام!! ولقد قيلت حتى والإسلام يأمر بالكف عن القتال! فقد كانت دعاية قريش في المواسم، أن محمدًا يفرق بين الوالد وولده فوق تفريقه لقومه وعشيرته! فكيف لو كان كذلك يأمر الولد بقتل الوالد، والمولى بقتل الولي؟

٤) وربما كان ذلك أيضًا لما يعلمه الله من أن كثيرين من المعاندين الذي يفتنون

---

(١) الظلال ٢/٧١٤، ٧١٥ وفي المعالم ص٦٩ - ٧١.

المسلمين عن دينهم ويعذبونهم هم بأنفسهم سيكونون من جند الإسلام المخلص، بل من قادته. ألم يكن عمر بن الخطاب من بين هؤلاء؟

٥) وربما كان ذلك أيضًا لأن النخوة العربية في بيئة قبلية من عادتها أن تثور للمظلوم الذي يحتمل الأذى، ولا يتراجع وبخاصة إذا كان الأذى واقعًا على كرام الناس فيهم. وقد وقعت ظواهر كثيرة تثبت صحة هذه النظرة في هذه البيئة – فابن الدغنة(١) لم يرض أن يترك أبا بكر – وهو رجل كريم – يهاجر ويخرج من مكة، ورأى في ذلك عارًا على العرب! وعرض عليه جواره وحمايته... وآخر هذه الظواهر نقض صحيفة الحصار لبني هاشم في شعب أبي طالب.

٦) وربما كان ذلك أيضًا لقلة عدد المسلمين حينذاك وانحصارهم في مكة حيث لم تبلغ الدعوة إلى بقية الجزيرة، أو بلغت ولكن بصورة متناثرة، حيث كانت القبائل تقف على الحياد من معركة داخلية بين قريش وبعض أبنائها، لترى ماذا يكون مصير الموقف. ففي مثل هذه الحالة قد تنتهي المعركة المحدودة إلى قتل المجموعة المسلمة القليلة – حتى ولو قتلوا هم أضعاف من سيقتل منهم – ويبقى الشرك، ولا يقوم للإسلام في الأرض نظام، ولا يوجد له كيان واقعي، وهو دين جاء ليكون منهج حياة ونظام دنيا وآخره.

٧) إنه لم تكن هناك ضرورة قاهرة ملحة، لتجاوز هذه الاعتبارات كلها، والأمر بالقتال، ودفع الأذى، لأن الأمر الأساسي في هذه الدعوة كان قائمًا ومحققًا وهو «وجود الدعوة» ووجودها في شخص الداعية محمد ﷺ، وشخصه في حماية سيوف بني هاشم، فلا تمتد إليه يد إلا وهي مهددة بالقطع. ولذلك لا يجرؤ أحد على منعه من إبلاغ الدعوة وإعلانها في ندوات قريش حول الكعبة، ومن فوق جبل الصفا، وفي الاجتماعات العامة ولا يجرؤ أحد على سجنه أو قتله، أو أن يفرض عليه كلامًا بعينه يقوله، بل إنهم حين طلبوا إليه أن يكف عن سب آلهتهم وعيبها لم

---

(١) ابن الدغنة رجل جاهلي أجار أبا بكر عندما أخرجه قومه وأراد الهجرة للحبشة. انظر الإصابة ٢/٣٤٤.

يكف، وحين طلبوا إليه أن يسكت عن سب دين آبائهم وأجدادهم لم يسكت، وحين طلبوا إليه أن يدهن فيدهنوا، أي يجاملهم فيجاملوه، بأن يتبع بعض تقاليدهم ليتبعوا بعض عبادته لم يدهن.

إن هذه الاعتبارات كلها - فيما نحسب - كانت بعض ما اقتضت حكمة الله معه - أن يأمر المسلمين بكف أيديهم وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، لتتم تربيتهم، وإعدادهم، وليقف المسلمون في انتظار أمر القيادة، في الوقت المناسب، وليخرجوا أنفسهم من المسألة كلها، فلا يكون لذواتهم فيها حظ.. لتكون خالصة لله، وفي سبيل الله - (انتهى ملخصًا من الظلال).

والناظر في الفترة المكية والتي كانت ثلاثة عشر عامًا كلها تربية وإعداد وغرس لمفاهيم لا إله إلا الله يدرك ما لأهمية هذه العقيدة من شأن في عدم الاستعجال واستباق الزمن فالعقيدة بحاجة إلى غرس يتعهد بالرعاية والعناية والمداومة بحيث لا يكون للعجلة والفوضى فيها نصيب. وما أجدر الدعاة إلى الله أن يقفوا أمام تربية المصطفى ﷺ لأصحابه على هذه العقيدة وقفة طويلة، فيأخذوا منها العبرة والأسوة، لأنه لا يقف في وجه الجاهلية - أيًا كانت قديمة أم حديثة أم مستقبلة - إلا رجال اختلطت قلوبهم ببشاشة العقيدة الربّانية، وعمقت جذور شجرة لا إله إلا الله في نفوسهم، فيصدق عليهم حينئذ أنهم

﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْـهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

لا تهمهم قوة عدو، ولا تنتقصهم عزيمة باسل لأن الله هو وليهم وناصرهم، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠﴾ [الحج: ٤٠].

قال ابن إسحاق: «لما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية بمكانه من الله ثم من عمه أبي طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكًا لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه»، فخرج عند ذلك المسلمون

من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة، وفرارًا إلى الله بدينهم فكانت أول هجرة في الإسلام»[١].

ثم إن لطف الله ورحمته غمرت المؤمنين المستضعفين وذلك بإسلام عمر بن الخطاب ﷺ حيث أعز الله به الإسلام، ولذلك قال عبد الله بن مسعود ﷺ: «إن إسلام عمر كان فتحًا، وإن هجرته كانت نصرًا، وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كنا ما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشًا حتى صلّى عند الكعبة وصلينا معه»[٢] إنها نعمة كبرى تجلت في إسلام عمر، الذي منح ولاءه ونصرته للمسلمين، وصبر بغضه وعداوته وبراءة للكافرين، كيف لا وهو الذي اشتبك مع القوم بعد إسلامه ثم قال: «افعلوا ما بدا لكم فوالله لو أن قد كنا ثلاث مائة رجل لقد تركناها – أي مكة – لكم أو تركتموها لنا»[٣].

وسمع المؤمنون بإسلام عمر ﷺ وهم في الحبشة ففرحوا بذلك ورجع منهم من رجع إلى مكة – ولكن قريشًا صبت عليهم ألوانًا من العذاب والاضطهاد فلم يزدهم ذلك إلا صلابة في العود وثباتًا على الحق وأملاً في فرج من الله قريب.

ثم تعرض رسول الله ﷺ ومن معه لدرس آخر من دروس الابتلاء التي هي من سنن الدعوة إلى الله: ذلك الدرس هو موت أبي طالب عم رسول الله الذي كان مناصرًا له وحاميًا. وموت زوج رسول الله خديجة رضي الله عنها أول امرأة أسلمت وكانت مثالاً للمرأة المسلمة الصالحة وهنا يطمع أعداء الله في رسول الله ﷺ، ولكن الله أكبر من كل شيء ثم رأى المصطفى ﷺ أن يتجه إلى غير قريش عسى أن يجد مجيبًا وناصرًا فخرج إلى الطائف، ولكن ثقيفًا خيبت أمله وآذته وسخرت منه، فاتجه إلى ربّه قائلاً: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني، إلى بعيد يتجهمني؟ أو

---

(١) السيرة لابن هشام ١/٣٤٤.
(٢) السيرة لابن هشام ١/٣٦٧.
(٣) السيرة لابن هشام ١/٣٧٤.

إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، غير أن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن يحل عليّ غضبك أو أن ينزل بي سخطك، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك[١]. ثم رجع إلى مكة.

وعلى الدعاة أن يقفوا طويلاً عند قول المصطفى ﷺ: «إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي» فإن هم الداعية المسلم هو رضاء الله وكفى. ثم بعد ذلك ليكن ما يكون من أمر الناس فإن ذلك ليس له كبير حسبان طالما أن الغاية هي رضاء الله.

بر الأقارب المشركين

ومن خلال تتبع القرآن المكي نجد أنه رغم قطع الولاء سواء في الحب أو النصرة بين المسلم وأقاربه الكفار فإن القرآن أمر بعدم قطع صلتهم وبرهم والإحسان إليهم ومع ذلك فلا ولاء بينهم.

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [العنكبوت: ٨].

قال البغوي: إن هذه الآية وآية ١٥ من سورة لقمان وهي قوله تعالى: ﴿وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ نزلت في سعد بن أبي وقاص ﷺ وأمه حمنة بنت أبي سفيان، فقد كان سعد من السابقين الأولين للإسلام، وكان بارًا بأمه.

قالت له أمه: ما هذا الدين الذي أحدثت؟ والله لا آكل ولا أشرب حتى ترجع إلى

---

(١) ابن هشام ٢/٦٠ والحديث أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/٣٥ ونسبه للطبراني وقال: (فيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة وبقية رجاله ثقات)، وحكم عليه الألباني في تخريج فقه السيرة للغزالي ص١٣٢ بالضعف. ولكن ألفاظ الحديث ينقدح منها نور مشكاة النبوة.

ما كنت عليه، أو أموت فتعير بذلك أبد الدهر، يقال: يا قاتل أمه! ثم إنها مكثت يومًا وليلة لم تأكل و لم تشرب و لم تستظل، فأصبحت قد جهدت ثم مكثت يومًا آخر وليلة لم تأكل و لم تشرب، فجاء سعد إليها وقال: يا أماه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسًا نفسًا ما تركت ديني، فكلي وإن شئت فلا تأكلي، فلما أيست منه أكلت وشربت، فأنزل الله هذه الآية وأمره بالبر بوالديه، والإحسان إليهما، وعدم طاعتهما في الشرك لأنه (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)[1].

لذلك فالولاء لله ودينه والمؤمنين شيء لا طاعة لمخلوق في مخالفته، وبر القريب المشرك شيء. قد يكون من باب تأليفه وترغيبه في الإسلام.

كيف كانت صورة البراء في العهد المكي

١) إن المسلم من حين أن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وهو يحس بأنه قد دخل في دين جديد غير دين آبائه وأجداده، إنه (يشعر في اللحظة التي يجيء فيها إلى الإسلام أنه يبدأ عهدًا جديدًا منفصلاً كل الانفصال عن حياته التي عاشها في الجاهلية. وكان يقف من كل ما عهده في جاهليته موقف المستريب الشاك الحذر المتخوف الذي يحس أن كل هذا رجس لا يصلح للإسلام. وبهذا الإحساس كان يتلقى هدى الإسلام الجديد.. ويمكننا أن نسمي هذا بــ« العزلة الشعورية » فالمسلم قد انخلع من عقيدة الشرك إلى عقيدة التوحيد، ومن تصور الجاهلية إلى تصور الإسلام عن الحياة والوجود، وانضم إلى التجمع الإسلامي الجديد بقيادته الجديدة. ومنح هذا التجمع وهذه القيادة كل ولائه وطاعته وحبه وتبعيته)[2].

٢) بعد ذلك جاء الأمر بالإعراض عن الكفار: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝٢٩ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ

---

(١) تفسير البغوي ٥/١٨٨ وانظر أسباب النزول للواحدي ص١٩٥ فقد ذكر نحو هذا والحديث: « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» حديث صحيح انظر مشكاة المصابيح ٢/ ١٠٩٢ ح٣٦٩٦.

(٢) معالم في الطريق ١٦، ١٧ بتصرف بسيط.

﴿بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ۝٣٠﴾ [النجم: ٢٩، ٣٠].

٣) وجاء الأمر أيضًا بالصبر والهجر الجميل قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠﴾ [المزمل: ١٠].

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝٦٠﴾ [الروم: ٦٠].

ثم يذكر الله سبحانه المؤمنين بفعل أبيهم إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم ليأخذوا منه أسوة وقدوة فيقول سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢٨﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨].

وإلى جانب هذا التذكير الربّاني، يضرب أيضًا المثل المحسوس والملموس في حياة الناس لم يوزع ولاءه بين أرباب متفرقة، ومن يكون ولاؤه لرب واحد، واتجاه واحد.

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢٩﴾ [الزمر: ٢٩].

فقد وضح الله في هذا المثال القرآني حال المشرك الذي لا يؤمن بالله ولا يكون ولاؤه وحبه لله وفي الله بحال العبد الذي تملكه جماعة مشتركين في خدمته لهم لا يمكنه إرضاؤهم أجمعين وحال الموحد الذي يعبد الله وحده ويوالي في الله وحده مثله كمثل عبد لمالك واحد قد سلم له وعلم مقاصده وعرف الطريق إلى رضاه فهو في راحة من تشاحن الخلطاء فيه بل هو سالم لمالكه من غير منازع فيه، مع رأفة مالكه به ورحمته له وشفقته عليه وإحسانه إليه وتوليته بمصالحه، فهل يستويان هذان العبدان؟ لا. إنهما لا يستويان.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٧٥﴾[1].

---

(١) أمثال القرآن لابن القيم ص٥٣ بتصرف بسيط. ط١/١٤٠٠هـ تحقيق الدكتور ناصر الرشيد. الناشر دار مكة.

وعلى طريقة القرآن في اهتمامه بقضية اليوم الآخر لما لها من أثر عظيم في قضية الإيمان: نجد القرآن الكريم يسوق مشهدًا من مشاهد يوم القيامة لمن يكون ولاؤه لغير الله، وكيف انقلب هذا الولاء إلى عداء وبغضاء. ثم كيف أصبحت الخلة عداوة وشحناء.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [فصلت: ٢٩].

وقال: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧].

وقال: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩].

٤) ثم جاء التصريح الكامل لأعدء الله بأن دينكم باطل لا ندخل فيه، وديننا هو الحق الذي ندين لله به، فلا نعبد ما تعبدون، ولا أنتم عابدون ما نعبد.

لكم دينكم ولي دين

ولما رأى المشركون صلابة المسلمين واستعلاءهم بدينهم، ورفعة نفوسهم فوق كل باطل ولما بدأت خطوط اليأس في نفوسهم من أن المسلمين يستحيل رجوعهم عن دينهم سلكوا مهزلة أخرى من مهازلهم الدالة على طيش أحلامهم ورعونتهم الحمقاء.

فقد دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة أوثانهم سنة، ويعبدون معبوده سنة فأنزل الله سورة الكافرون: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ

دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾ [الكافرون: ١-٦] [(١)].

ومثل هذه السورة آيات أخرى تشابهها في إعلان البراء من الكفر وأهله مثل قوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [يونس: ٤١].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الأنعام: ٥٦، ٥٧].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [يونس: ١٠٤، ١٠٥].

بهذه النصاعة وهذا الوضوح جاءت هذه الآيات الكريمات لترسم معالم الطريق بين الصف الإسلامي والصف الكافر المشرك الذي لا يؤمن بالله ورسوله. ومع هذا الوضوح القرآني نجد أن بعض المنتسبين للعلم قد فهم من هذه الآيات – وخاصة صورة الكافرون – أنها إقرار من رسول الله ﷺ للكفار على دينهم الباطل وهذا زعم باطل. مخالف لحقيقة الإسلام، ودعوة رسول الإسلام. ومضاد لدعوة الرسل جميعًا. يقول العلاّمة ابن القيم رحمه الله: «إن هذه السورة – سورة الكافرون – تشتمل على النفي المحض وهذه خاصية هذه السورة، فإنها سورة براءة من الشرك كما جاء في وصفها» [(٢)].

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٥٢٧/٨.

(٢) سنن أبي داود/ الأدب/ ٣٠٣/٥ ح٥٠٥٥ والترمذي في الدعوات ج١١٠/٩ ح٣٤٠٠ ومسند الإمام أحمد ٤٥٦/٥ والدارمي في فضائل القرآن ٤٥٨/٢ قال الألباني: حديث حسن. انظر صحيح الجامع الصغير ١٤٠/١ ح٢٨٩.

ومقصودها الأعظم البراءة المطلوبة بين الموحدين والمشركين، ولهذا أتى بالنفي في الجانبين تحقيقًا للبراءة المطلوبة. مع تضمنها للإثبات بأن له معبودًا يعبده وأنتم بريئون من عبادته، وهذا يطابق قول إمام الحنفاء:

﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧]. فانتظمت حقيقة لا إله إلا الله.

ولهذا كان النبي ﷺ يقرنها بسورة الإخلاص في سنة الفجر[1] وسنة المغرب[2] وحين أخبر الله أن لهم دينهم وله دينه، هل هو إقرار فيكون منسوخًا أو مخصوصًا؟ أو لا نسخ في الآية ولا تخصيص؟

هذه مسألة شريفة من أهم المسائل، وقد غلط في السورة خلائق، وظنوا أنها منسوخة بآية السيف لاعتقادهم أن هذه الآية اقتضت التقرير لهم على دينهم! وظن آخرون: أنها مخصوصة بمن يقرون على دينهم وهم أهل الكتاب!

وكلا القولين غلط محض، فلا نسخ في السورة ولا تخصيص، بل هي محكمة وهي من السور التي يستحيل دخول النسخ في مضمونها، فإن أحكام التوحيد التي اتفقت عليه دعوة الرسل يستحيل دخول النسخ فيها.

وهذه السورة أخلصت التوحيد، ولهذا تسمى أيضًا سورة الإخلاص. ومنشأ الغلط: ظنهم أن الآية اقتضت إقرارهم على دينهم. ثم رأوا أن هذا الإقرار زال بالسيف فقالوا: منسوخة!!

وقالت طائفة: زال عن بعض الكفار وهم من لا كتاب لهم فقالوا هذا مخصوص! ومعاذ الله أن تكون الآية اقتضت تقريرًا لهم أو إقرارًا على دينهم أبدًا. بل لم يزل رسول الله ﷺ في أول الأمر وأشده عليه وعلى أصحاب أشد على الإنكار عليهم،

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ٥/٦ والمسند طبع الساعاتي ٢٢٥/٤.

(٢) مشكاة المصابيح ٢٦٨/١، وانظر بدائع الفوائد ١٣٨/١.

وعيب دينهم وتقبيحه، والنهي عنه، والتهديد والوعيد في كل وقت وفي كل ناد. فكيف يقال إن الآية، اقتضت تقريرًا لهم؟ معاذ الله من هذا الزعم الباطل.

وإنما الآية اقتضت البراءة المحضة كما تقدم، وأن ما أنتم عليه من الدين لا نوافقكم عليه أبدًا، فإنه دين باطل فهو مختص لا نشرككم فيه، ولا أنتم تشركوننا في ديننا الحق.

فهذه غاية البراءة والتنصل من موافقتهم في دينهم، فأين الإقرار حتى يدعي النسخ أو التخصيص؟!

أفترى إذًا جوهدوا بالسيف كما جوهدوا بالحجة لا يصح أن يقال: لكم دينكم ولي دين؟

بل هذه آية قائمة محكمة ثابتة بين المؤمنين والكافرين إلى أنه يطهر الله منهم عباده وبلاده. وكذلك حكم هذه البراءة بين أتباع الرسول ﷺ أهل سنته وبين أهل البدع المخالفين لما جاء به، الداعين إلى غير سنته إذا قال لهم خلفاء الرسول وورثته لكم دينكم ولنا ديننا لا يقتضي هذا إقرارهم على بدعتهم، بل يقولون لهم هذه براءة منها. وهم مع هذا منتصبون للرد عليهم ولجهادهم بحسب الإمكان[1].

وزاد هذا الأمر إيضاحًا وبيانًا: شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فقال: قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ اللام في لغة العرب تدل على الاختصاص فأنتم مختصون بدينكم لا أشرككم فيه، وأنا مختص بديني لا تشركوني فه كما قال تعالى: ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٤١﴾ [يونس: ٤١].

وليس في هذه الآية أنه رضي بدين المشركين، ولا أهل الكتاب، كما يظنه بعض الملحدين، ولا أنه نهى عن جهادهم كما ظنه بعض الغالطين، وجعلوها منسوخة. بل

(١) بتصرف بسيط: بدائع الفوائد ١/١٣٨، ١٤١.

فيها براءته من دينهم، وبراءتهم من دينه، وأنه لا تضره أعمالهم، ولا يجزون بعمله ولا ينفعهم. وهذا أمر محكم لا يقبل النسخ، ولم يرض الرسول بدين المشركين، ولا أهل الكتاب طرفة عين قط.

ومن زعم أنه رضي بدين الكفار، واحتج بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون: ١-٦].

فظن هذا الملحد أن قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ معناه أنه رضي بدين الكفار، ثم قال هذه الآية منسوخة فيكون قد رضي بدين الكفار، فهذا من أبين الكذب والافتراء على محمد ﷺ، فإنه لم يرض قط إلا بدين الله الذي أرسل به رسله، وأنزل به كتبه.. ونظير هذه الآية قوله تعالى:

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٤١﴾ [يونس: ٤١].

وقوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَـٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ ۖ﴾ [الشورى: ١٥].

وإذا كان الله سبحانه قد قال: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢١٥ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢١٦﴾ [الشعراء: ٢١٥، ٢١٦].

فبرأه من معصية من عصاه من أتباعه المؤمنين، فكيف لا يبرئه من كفر الكافرين الذين هم أشد له معصية ومخالفة؟[١].

ورحم الله عبد الله بن عباس حين قال في شأن هذه السورة: «ليس في القرآن أشد

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية ٢/٣٠، ٣٢.

غيظًا لإبليس منها، لأنها توحيد وبراءة من الشرك»[1] وقال الأصمعي: كان يقال لـــ «قل يا أيها الكافرون» و«قل هو الله أحد» المقشقشتان. أي أنهما تبرئان من النفاق[2].

فرج من الله قريب

قال ابن إسحاق: «فلما أراد الله ﷻ إظهار دينه وإعزاز نبيه ﷺ، وإنجاز موعده له، خرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار، فعرض نفسه على قبائل العرب، كما كان يصنع في كل موسم، فبينما هو عند العقبة لقي رهطًا من الخزرج أراد الله بهم خيرًا، فقال لهم ﷺ: من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج قال: أمن موالي يهود؟ قالوا: نعم. قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى. فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله ﷻ وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن.. فقال بعضهم لبعض: يا قوم تعلموا والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود فلا تسبقنكم إليه. فأجابوه فيما دعاهم إليه، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام. وقالوا: إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك، ثم انصرفوا إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا، فلما قدموا المدينة ذكروا لقومهم رسول الله ﷺ ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ»[3].

أجل: بعد كل ذلك العناء وتلك المصابرة هيأ الله اللطيف الخبير من ينصر هذا الدين ويعلي كلمته، وينشره في الأرض بعد أن آوى رسول الله وأصحابه الأوائل. إنه لشرف دونه كل شرف أن يُسمّوا «الأنصار» أنصار الله، أنصار نبيه، أنصار دينه، أنصار عباده المؤمنين، وليسوا أنصار الجاهلية وطواغيتها وجبابرتها الذين هم في أعين

---

(١) تفسير القرطبي ٢٠/٢٢٥.

(٢) تفسير القرطبي ٢٠/٢٢٥.

(٣) السيرة لابن هشام ٢/٧٠، ٧١.

الناس كبار وهم في حقيقة الأمر صغار وأقزام!!

ولما كان العام المقبل وصل إلى مكة من الأنصار اثنا عشر رجلاً، فلقوا رسول الله ﷺ بالعقبة الأولى فبايعوه، وكانت البيعة على الإسلام وأرسل معهم رسول الله ﷺ مصعب بن عمير[١] ﷺ يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، ويؤمهم في الصلاة[٢].

وقدم مصعب ﷺ ومعه وفد كريم من الأنصار في موسم الحج فكانت بيعة العقبة الكبرى حيث تساءلوا وهم خارجون من المدينة: حتى متى نترك رسول الله يطوف ويطرد في جبال مكة ويخاف؟

لقد بلغ الإيمان أوجه في هذه القلوب الفتية، وآن لها أن تنفس عن حماسها، وأن تفك هذا الحصار الخانق المضروب حول الدعوة والداعية[٣].

صيغة البيعة

تكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغب في الإسلام ثم قال: «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم»، فأخذ البراء بن معرور[٤]

---

(١) هو مصعب بن عمير بن هاشم نشأ في بيت ثري، مدللاً غاية الدلال، كان يعرف بأنه أعطر أهل مكة ثم أسلم فانقلبت تلك النعومة إلى خشونة ورجولة كان من السابقين للإسلام ومن المهاجرين للحبشة في الهجرة الأولى، ثم هاجر للمدينة، وشهد بدرًا وحمل اللواء في أُحد فاستشهد، وفي الصحيح أن مصعبًا لم يترك إلا ثوبًا فكان إذا غطوا رأسه خرجت رجلاه، وإذا غطوا رجليه خرج رأسه فقال رسول الله ﷺ: «اجعلوا على رجليه شيئًا من الأذخر»، انظر صحيح البخاري كتاب الجنائز ١٤٢/٣ ح١٢٧٦ والاستيعاب لابن عبد البر ج ٤٦٨/٣ والإصابة لابن حجر ج٤٢١/٣ ومصعب بن عمير للأستاذ محمد بريغش وغير ذلك من كتب السير.

(٢) ابن هشام ٧٦/٢.

(٣) فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي ص١٥٧.

(٤) هو البراء بن معرور الخزرجي الأنصاري أول من بايع وأول من استقبل القبلة وأول من أوصى بثلث ماله، وأحد النقباء من الاثني عشر. انظر الإصابة ج١٤٤/١ والأعلام للزركلي

بيده ثم قال: نعم والذي بعثك بالحق نبيًا لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا[١] فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب، وأهل الحلقة[٢]، ورثناها كابرًا عن كابر. فاعترض أبو الهيثم بن التيهان[٣] فقال: يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ قال: فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «بل الدم الدم والهدم الهدم أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم»[٤].

قال ابن هشام: الهدم الهدم: يعني الحرمة، أي ذمتي ذمتكم وحرمتي حرمتكم[٥].

ثم قام: أسعد بن زرارة[٦] فقال: رويدًا يا أهل يثرب: فإنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وأن إخراجه اليوم مناوأة للعرب كافة، وقتل خياركم وإن تعضكم السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على الله، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم جبنة فبينوا ذلك، فهو أعذر لكم عند الله،

=٤٧/١ ط٤. والحديث في المسند ٤٦١/٣.

(١) أي نساءنا.

(٢) أي السلاح.

(٣) أبو الهيثم بن التيهان: مالك بن عتيك الأنصاري الأوسي: أحد النقباء. آخى النبي ﷺ بينه وبين عثمان بن مظعون وشهد المشاهد كلها وهو القائل في رثاء رسول الله ﷺ: «لقد جدعت آذاننا وأنوفنا غداة فجعنا بالنبي محمد» توفي في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في المدينة سنة عشرين. انظر الاستيعاب ٢٠٠/٤ الإصابة ٢١٢/٤ والمعارف لابن قتيبة ص٢٧٠ تحقيق ثروت عكاشة والأعلام للزركلي ٢٥٨/٥.

(٤) السيرة لابن هشام ٨٤/٢، ٨٥ والحديث في المسند ج٢٧٤/٢ طبعة الساعاتي مع الفتح الرباني.

(٥) السيرة لابن هشام ٨٤/٢، ٨٥ والحديث في المسند ج٢٧٤/٢ طبعة الساعاتي مع الفتح الرباني.

(٦) أسعد بن زرارة. أبو أمامة الأنصاري الخزرجي النجاري، شهد العقبتين وكان نقيبًا على قبيلته. ذكر الواقدي أنه مات على رأس تسعة أشهر من الهجرة. وقال البغوي: بلغني أنه أول من مات من الصحابة بعد الهجرة وأنه أول ميت رضي الله عنه. قال ابن حجر: وقد اتفق أهل المغازي والتواريخ أنه مات في حياة النبي ﷺ قبل بدر. الإصابة ٣٤/١.

فقالوا يا أسعد: أمط عنا بيدك، فوالله لا نذر هذه البيعة ولا نستقيلها، ثم قاموا إليه رجلاً رجلاً فبايعوه[١].

أجل: «إنه الإيمان بالله والحب فيه، والأخوة على دينه، والتناصر باسمه، ذلك كله كان يتدافع في النفوس المجتمعة في ظلام الليل بجوار مكة السادرة في غيها، يتدافع ليعلن أن أنصار الله سوف يحمون رسوله كما يحمون أعراضهم، وسوف يمنعونه بأرواحهم، فلا يخلص إليه أذى وهم أحياء»[٢].

ترى: أي صورة أعظم من هذه الصورة لهذا الولاء الصادق؟ لقد كانت بيعة على دين الله ومرضاته. وانظر إلى رد المصطفى ﷺ: «بل الدم الدم والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم» هذه هي الصلة الحقيقية والوشيجة الصادقة لعلاقة المسلم بأخيه المسلم. لقد أصبح الدم واحدًا. «أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم» وهكذا تنقطع علائق الدم الجاهلي والتناصر الجاهلي والولاء الجاهلي ليحل محلها الولاء الإسلامي والوقوف في الصف الإسلامي والبراءة من الكفر وأهله واعتناق الأخوة الجديدة التي أمر الله بها. إنها البديل الصالح لتلك الوشائج الجاهلية كما قال ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»[٣].

وهكذا نصل إلى معرفة ما فعل الله بنبيه ودعوته ومن معه، وما هيأ لهم من النصرة والمنعة والدار التي يقام فيها حكم الله وشريعته ومنهاجه في الأرض. أرض الأنصار. أرض الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

فإلى صورة جديدة مشرقة للولاء في العهد المدني.

❁❁❁❁

---

(١) مسند أحمد ٣٢٢/٣، ٣٣٩، ٣٩٤ والحاكم ٦٢٤/٢، ٦٢٥ والبيهقي في السنن الكبرى ٩/٩.

(٢) فقه السيرة للشيخ الغزالي ص١٦١.

(٣) صحيح البخاري كتاب الأدب ٤٤٢/١٠ ح٦٠٢٦ وصحيح مسلم كتاب البر والصلة ج ١٩٩٩/٤ ح٢٥٨٥.

الفصل السادس

الولاء والبراء في العهد المدني

لما أراد الله إظهار دينه، وإعزاز عبده ورسوله محمد ﷺ ومن معه، أمره بالهجرة لتكون مبدأ فاصلاً بين الحق والباطل، وبين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان(١).

ولقد كانت الهجرة إيذانًا من المولى جل وعلا بقرب وعده الذي وعد به المؤمنين وهو وعد دائم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥].

ولقد وقع هذا التمكين الرباني بالفعل ولذلك نجد القرآن يذكر المؤمنين بهذا التمكين والنصر فيقول: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنفال: ٢٦].

وسيبقى هذا الوعد بالتمكين ما دام المسلمون ملتزمون بالشرط وهو عبادته وحده لا شريك له.

نبذة تاريخية

لما أذن الله بالهجرة: خرج المسلمون إلى المدينة زرافات ووحدانا، ولم يبق بمكة منهم إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعليّ حيث أقاما بأمر منه ﷺ وإلا من احتبسه المشركون كرهًا.

---

(١) انظر زاد المعاد ٣/٤٣ تحقيق الأرناؤوط.

ولما رأى المشركون أصحاب رسول الله ﷺ قد تجهزوا، وخرجوا وساقوا الذراري والأطفال والأموال إلى المدينة، وعرفوا أنها دار منعة، وأن أهلها أهل حلقة وشوكة وبأس: خافوا خروج رسول الله ﷺ ولحوقه بهم حيث سيشتد أمره وتقوى شوكته، فلذلك اجتمعوا في دار الندوة و لم يتخلف أحد من أهل الرأي والحجا منهم ليتشاوروا في أمره.

وخرجوا من ذلك الاجتماع برأي واحد: وهو أن يقوم من كل قبيلة شاب ثم يضربوه ضربة رجل واحد ليتفرق دمه في القبائل.

ولكن حماية الله ونصرته لنبيه ﷺ أكبر من مكر أولئك المجرمين، فقد نزل جبريل عليه السلام على المصطفى ﷺ يأمره أن لا ينام في مضجعه تلك الليلة.

وخرج رسول الله ﷺ ومعه صاحبه الأمين أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وبقي عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، حيث نام تلك الليلة في فراش المصطفى ﷺ . وينتهي الأمر بخسارة وذلة (الملأ) من قريش[(١)].

ووصل المصطفى ﷺ إلى دار الهجرة، دار النصرة والمنعة، حيث وجد «أنصار الله» فكانت هذه الهجرة نصرًا للمؤمنين المهاجرين الذين وجدوا من يؤويهم وينصرهم ويشاركهم الأموال والمساكن وحتى الأزواج!! وكانت نصرًا أيضًا للأنصار حيث قُضي على الإحن والأحقاد الجاهلية بين أوسهم وخزرجهم، وعلى كيد اليهود الذين كانوا يشيعون بينهم الفرقة والفتنة.

وكان أول عمل قام به رسول الله ﷺ في المدينة هو بناء المسجد. لينطلق منه النداء الرباني «الله أكبر الله أكبر» وليكون هذا المسجد الطاهر هو الملتقى التربوي للأمة المسلمة يتلقون فيه وحي الله عن رسول الله، ويتعلمون أمور دينهم، وهذا المسجد هو أيضًا مكان القيادة العسكرية الإسلامية التي انطلقت للجهاد في سبيل الله.

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام ج٢/١٢٤، ١٢٧ وزاد المعاد ٣/٥٠، ٥١.

وبعد ذلك: «آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دار أنس بن مالك، وكانوا تسعين رجلاً نصفهم من المهاجرين ونصفهم من الأنصار آخى بينهم على المواساة، يتوارثون بعد الموت دون ذوي الأرحام إلى حين وقعة بدر، فلما أنزل الله ﷻ:

﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦].

رد التوارث إلى الرحم دون عقد الأخوة»[١].

إن هذه الأخوة الإيمانية هي الوشيجة العظمى، والرابطة الفريدة في علاقات البشر بعضهم مع بعض، فلقد أحس كل مؤمن – كما يقول الأستاذ محمد قطب – سواء كان مهاجريًا أم أنصاريًا برباط جديد يربطه بإخوته في الله، فكل واحد منهم يحب أخاه كحبه لنفسه، مع أنه ليس من قبيلته ولا بينهما آصرة دم بل إن آصرة الدم – حين كانت في الجاهلية – لم تكن تنشئ في نفس أحدهم ذلك الحب الصافي العجيب الذي يحسه الآن لأخيه في العقيدة.

ترى ما الفرق بين لقاء الجاهلية ولقاء الإسلام؟

لماذا لا توجد هذه المشاعر إلا على العقيدة؟

والجواب: أن الأمر ليس سرًّا ولا سحرًا، ولكنه الإسلام يلتقي فيه الناس على العقيدة في الله، لأن كلا منهم يحب الله ورسوله، فلا تكون ذواقم بارزة ولا متوفرة لاقتناص المصلحة من الآخر كما هي الحال في العلاقات الجاهلية، وإنما الجانب البارز هو الحب في الله[٢].

وقفة عند المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

إن هذه الأخوة جديرة بالدراسة والاعتبار. ذلك أنه نتج عنها أمور عظيمة في حياة

(١) زاد المعاد ٣/٦٣.

(٢) بتصرف: منهج التربية الإسلامية ٢/٤٠، ٤١.

المسلمين سواء في مستوى «الأمة والدولة» أم على مستوى الأفراد.

فأما ما يتعلق بهم كأمة: فقد كانت هذه المؤاخاة هي الركيزة الأساسية في تكوين مفهوم «الأمة الإسلامية» أمة التقت على العقيدة في الله، وعاشت لأجل تلك العقيدة وليس لرابطة الدم أو الحسب والنسب، أو الأرض أو اللون أو اللغة، أو الجنس فيها أي حساب يذكر إذا تعارض ذلك مع العقيدة. والله ﷻ هو صاحب المنة والفضل في ذلك فهو القائل:

﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران: ١٠٣-١٠٥].

لقد أصبح المؤمنون أولياء بعضهم البعض، كل منهم يحب أخاه كحبه لنفسه، ويناصره ويجاهد من أجله، ويؤثره على كل قريب وحبيب من مال أو أهل أو عشيرة أو ولد:

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ﴾ [التوبة: ٧١].

واشتد كيانهم فكانوا كالجسد الواحد «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا ثم شبّك ﷺ بين أصابعه»[(١)] وعن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى»[(٢)].

---

(١) صحيح البخاري كتاب الأدب ج١٠/٤٥٠ ح٦٠٢٦ وصحيح مسلم كتاب البر ٤/١٩٩٩ ح٢٥٨٥.

(٢) صحيح البخاري كتاب الأدب ١٠/٤٣٨ ح٦٠١١ ومسلم كتاب البر ٤/١٩٩٩

ولقد أثنى ﷻ على المهاجرين والأنصار. فقال سبحانه عن المهاجرين: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝٨﴾ [الحشر: ٨].

ثم يثني سبحانه على الأنصار بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: ٩].

بل إن الأمر أصبح أكبر من ذلك. فهؤلاء الأنصار الذين آووا رسول الله ﷺ، ومن معه وآزروهم ونصروهم وبذلوا لهم النفس والنفيس ابتغاء رضوان الله قد أصبح حبهم من العقيدة التي يدين بها المسلم ربه، وبغضهم وكراهيتهم نفاق ففي الحديث الصحيح: «آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار»[1].

وقال ﷺ: «الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله»[2].

وبهذه الأخوة تكون «المجتمع الإسلامي» ذلك المجتمع الذي تظلله راية لا إله إلا الله وتحكمه الشريعة الربّانية، ويسوده الحب والتفاني، ويؤمر فيه بالمعروف وينهى فيه عن المنكر، الجهاد رهبانيته، والدعوة إلى الله سبيله ومنهاج حياته، القوي فيه ضعيف حتى يؤخذ الحق منه، والضعيف فيه قوي حتى يأخذ حقه، ولاؤه لله ورسوله والمؤمنين وبغضه وكراهيته لأعداء الله ولو كانوا أقرب قريب، وجدوا حلاوة الإيمان وطعمه، وعرفوا الكفر وأهله حتى إن أحدهم يحب أن يلقى في النار ولا يعود إلى الكفر بعد أن

=ح٢٥٨٦ واللفظ للبخاري.

(١) صحيح البخاري كتاب الإيمان ٦٢/١ ح١٧ وصحيح مسلم كتاب الإيمان ٨٥/١ ح٧٤. واللفظ للبخاري.

(٢) صحيح البخاري كتاب المناقب ١١٣/٧ ح٣٧٨٣ وصحيح مسلم كتاب الإيمان ١/ ٨٥ ح٧٥. واللفظ للبخاري.

أنقذه الله منه كما قال ﷺ - وهذا ما تحقق فيهم -: «لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا لله، وحتى أن يقذف في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد أن أنقذه الله وحتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»[١].

وبهذه المؤاخاة الإيمانية وجد «التكافل الاجتماعي» وبرزت فيه صور خالدة لم توجد قط إلا فيه وحده!!

ومنها ما رواه البخاري إنهم لما قدموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن ابن عوف وسعد بن الربيع، فقال سعد لعبد الرحمن: إني أكثر الأنصار مالاً، فأقسم مالي نصفين! ولي امرأتان فانظر إلى عجبهما إليك فسمها لي أطلقها، فإذا انقضت عدتها فتزوجها!! قال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك، أين سوقكم؟ فدلوه على سوق بني قينقاع فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن، ثم تابع الغدو حتى جاء يومًا وبه أثر صفرة، فقال النبي ﷺ: «مهيم»؟ قال: تزوجت. قال: «كم سقت إليها»؟ قال: نواة من ذهب[٢] (وإن إعجاب المرء بسماحة سعد لا يعدله إلا إعجابه بنبل عبد الرحمن الذي زاحم اليهود في سوقهم وبزهم في ميدانهم، واستطاع بعد أيام أن يكسب ما يعف به نفسه ويحصن به فرجه، ذلك أن علو الهمة من خلائق الإيمان)[٣].

وخلاصة القول: إن هذه المؤاخاة (كانت تدريبًا عمليًا على الأخوة الإسلامية التي تبعثها تلك العقيدة في نفوس المؤمنين بها ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وكان تدريبًا ناجحًا فذًا في نجاحه، فريدًا في التاريخ.

وكانت كذلك تدريبًا عمليًا على «التكافل». وهو معنى من المعاني العميقة في بناء الجماعة الإسلامية. القادرون يكفلون غير القادرين على أساس الأخوة في الله من

---

(١) صحيح البخاري كتاب الأدب ٤٦٣/١٠ ح٦٠٤١ وصحيح مسلم كتاب الإيمان ٦٦/١ ح٤٣ واللفظ للبخاري.

(٢) صحيح البخاري كتاب مناقب الأنصار ٧ك١١٢ ج٣٧٨٠.

(٣) فقه السيرة للشيخ الغزالي ص١٩٣.

جانب وعلى أساس التصرف في مال الله بما يرضي الله من جانب آخر)[1].

سمات الولاء والبراء في العهد المدني

لئن كانت سمات العهد المكي – كما سبق القول في ذلك – هي: بيان الحجة وإقامتها. والصبر على الأذى وكف الأيدي، والهجر الجميل، فإن ذلك كان الحكمة ربّانية، منها: أن ذلك كان لتربية الأمة على هذا الدين الحنيف، وصقل النفوس على ضوء منهاجه، والتقيد الكامل بأمر الله ورسوله في الفعل والترك على حد سواء.

ولكن الأمر أخذ صورة أخرى في العهد المدني، فمن الهجرة إلى المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، إلى قيام الدولة المسلمة إلى الجهاد في سبيل الله وهيمنة الشريعة الإسلامية.

وأول ما نذكره في هذا العهد: هو الوثيقة التي كتبها رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، ومن تبعهم، حيث وادع فيها اليهود، وعاهدهم، وتركهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم. وقد أوردها ابن إسحاق دون سند[2] وأوردها الإمام أحمد في مسنده[3]، وأوردها أصحاب السير والمغازي.

على أنني سأقتصر على بعض فقراتها التي تخص موضوع الموالاة. جاء في أولها: «بسم الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس»[4].

«... وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن من دونه، وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة[5] ظلم، أو إثم أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه

---

(١) منهج التربية الإسلامية للأستاذ محمد قطب ٦٩/٢.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١٤٧/٢.

(٣) المسند بشرح البنا ١٠/٢١.

(٤) السيرة لابن هشام ١٤٧/٢.

(٥) الدسيعة: العظيمة.

جميعًا. ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمن مؤمنًا في كافر، ولا ينصر كافرًا على مؤمن، وأن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس، وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وأن سلم المؤمنين واحد، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم».

«وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثًا ولا يؤويه، وإنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل. وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله ﷻ وإلى محمد ﷺ وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين»[1].

وهذه الوثيقة هي الصورة الصادقة لحقوق الإنسان «حيث وردت بما يجعل المجتمع الإسلامي مجتمعًا متلاحمًا متماسكًا، وكفلت – أيضًا – حقوق أهل الديانات الأخرى ما داموا يعيشون تحت مظلة الحكم الإسلامي.

وقد لخص الإمام ابن القيم رحمه الله صورة المجتمع المدني آنذاك بقوله: «لما قدم النبي ﷺ المدينة صار الكفار معه ثلاثة أقسام: قسم صالحهم ووادعهم على ألا يحاربوه، ولا يظاهروا عليه، ولا يوالوا عليه عدوه وهم على كفرهم، آمنون على دمائهم وأموالهم.

وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة.

وقسم تاركوه، فلم يصالحوه ولم يحاربوه، بل انتظروا ما يؤول إليه أمره وأمر أعدائه، ثم من هؤلاء من كان يحب ظهوره وانتصاره في الباطن، ومنهم من كان يحب ظهور عدوه عليه وانتصارهم، ومنهم من دخل معه في الظاهر وهو مع عدوه في الباطن، ليأمن الفريقين وهؤلاء هم المنافقون.

---

(١) السيرة لابن هشام ١٤٨/٢، ١٤٩.

فعامل كل طائفة من هذه الطوائف بما أمره به ربّه تبارك وتعالى»[1].

وقد اتضح لي من خلال هذا البحث أن هناك ثلاثة أمور هامة هي سمات هذا العهد:

١) كيد أهل الكتاب للإسلام «ثم النهي والتحذير من موالاتهم وطاعتهم».

٢) ظهور النفاق والمنافقين.

٣) البراء من هؤلاء وأولئك: أي المفاصلة التامة بين المسلمين وأعدائهم ولها صور ترد في موضعها.

أولاً: كيد أهل الكتاب للإسلام وتحذير المسلمين من موالاتهم

تتفق نظرة المنصفين الباحثين في التاريخ اليهودي: أن اليهود أمة حاقدة، الخداع طبعها، والغدر ديدنها، ومحادة الله ورسله خلقها، ولحمة الله يعلمها انتقلت الرسالة من بني إسرائيل فكان خاتم الأنبياء هو محمد بن عبد الله الهاشمي القرشي العربي ﷺ وقد كان كيد اليهود – خاصة – قد بدأ منذ أن كان رسول الله ﷺ في مكة حيث كانت تعاون قريشًا في أسئلة العناد التي توجه للمصطفى ﷺ، وذلك مثل قولهم لقريش: اسألوه عن الروح، وعن أصحاب الكهف، وغير ذلك مما هو معلوم من سورة الكهف.

ولما هاجر رسول الله ﷺ ومن معه إلى المدينة، قامت قيامة اليهود، فلم يهدأ لهم بال، ولم يهنأ لهم عيش. ذلك أن قيام الدولة المسلمة في الأرض له أثره الكبير عليهم، فالإسلام هو الذي يكسر شوكتهم، ويفضح مكنوناتهم، ويحرر الناس من شرورهم، ويمزق شملهم وسيطرتهم وجبروتهم. ومن هنا لم يفتأوا يكيدون للإسلام ورسوله والمؤمنين، وينصبون العراقيل في وجه من يريد الإسلام وولد النفاق والمنافقون في أحضانهم، وخانوا الله ورسوله فلم يتقيدوا بالوثيقة الآنفة الذكر، وغدروا بالمسلمين

---

(١) زاد المعاد ١٢٦/٣.

فوالوا المشركين والكفار، وآذوا رسول الله ﷺ وهموا بما لم ينالوا.

ولذلك عني القرآن المدني وخاصة أكبر سوره – وهي البقرة وآل عمران والنساء والمائدة – بكشف سترهم وفضحهم، وبيان كيدهم. والآيات الكريمة في هذا كثيرة جدًّا ولكنني أورد طرفًا منها هنا. ليتضح (للمسلمين) المخدوعين بهم اليوم، الذين يوالونهم ويبجلونهم بل يقتدون بهم. ما عليه أعداء الله الذين هم قتلة الأنبياء ودعاة الفساد في الأرض.

قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩)﴾ [البقرة: ١٠٩].

وفي سورة آل عمران: ﴿وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٦٩)﴾ [آل عمران: ٦٩].

﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢)﴾ [آل عمران: ٧٢].

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥)﴾ [البقرة: ١٣٥].

﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥)﴾ [البقرة: ١٠٥].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨)﴾ [آل عمران: ١١٨].

فهذه الآيات وغيرها مما في مثل معناها: تبين كيدهم وما يتربصون به للإسلام وأتباعه. ولذلك جاءت آيات كثيرة في تحذير المؤمنين ونهيهم عن الاستماع للكفار عامة ولأهل الكتاب خاصة، أو طاعتهم، أو اتخاذهم أولياء، أو الركون إليهم. وسأقتصر هنا أيضًا على بعض هذه الآيات لأنه سيأتي مزيد من تفصيل هذا في الفصل التالي إن شاء الله حول صور الموالاة.

قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة: ١٢٠].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ [آل عمران: ١٤٩، ١٥٠].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران: ١٠٠، ١٠١].

ورد في سبب نزول هاتين الآيتين: أن شاس بن قيس اليهودي – وكان شيخًا قد غبر في الجاهلية، عظيم الكفر، شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم – مر على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج، في مجلس جمعهم، يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من جماعتهم وألفتهم، وصلاح ذات بينهم في الإسلام بعد الذي كان بينهم في الجاهلية من العداوة فقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمعوا بها من قرار! فأمر شابًا من اليهود كان معه فقال: اعمد إليهم فاجلس معهم، ثم ذكرهم بعاث – أحد أيامهم في الجاهلية – وما كان فيه، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار، ففعل. وتكلم القوم عند ذلك فتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين، فتقاولا، وقال أحدهما لصاحبه: إن

شئت رددتها جذعة! وغضب الفريقان جميعًا وقالا: ارجعا السلاح السلاح، موعدكم الظاهرة – وهي الحرة، فخرجوا إليها، وانضمت الأوس والخزرج بعضها إلى بعض على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية.

وبلغ رسول الله ﷺ ذلك فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين، حتى جاءهم فقال: «يا معشر المسلمين: الله الله أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر، وألف به بينكم، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفارًا!!». فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوهم، فألقوا السلاح من أيديهم وبكوا، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضًا، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله فأنزل الله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ الآية.

قال جابر بن عبد الله: ما كان طالع أكره إلينا من رسول الله ﷺ، فأومأ إلينا بيده، فكففنا وأصلح الله تعالى ما بيننا، فما كان شخص أحب إلينا من رسول الله ﷺ، فما رأيت يومًا أقبح ولا أوحش أولا وأحسن آخرًا من ذلك اليوم[١].

ويوجه الله عباده المؤمنين ويرشدهم – بعد أن ذكر قصة بني إسرائيل مع موسى عليه السلام في قصة ذبح البقرة – بقوله: ﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا

---

(١) انظر تفسير الطبري ٢٣/٤ وأسباب النزول للواحدي ص٦٦ وأحكام القرآن للقرطبي ٤/ ١٥٥. وتفسير البغوي ٣٨٩/١.
وقد بذلت جهدي في تخريج الحديث من المصادر الأصلية فلم أعثر على ذلك فجزى الله من وجد تخريج هذا الحديث ونبهني إلى ذلك خير الجزاء.

يَعۡلَمُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [البقرة: ٧٥-٧٧].

ثم يأتي التحذير الأقوى في سورة المائدة: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [المائدة: ٥١].

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَـٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَـٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [المائدة: ٥٥-٥٧].

إن هذه النصوص وغيرها: قد ربت المسلمين على معرفة كيد أهل الكتاب للإسلام والمسلمين، فقطعت ما في نفوس بعض المسلمين من ود وولاء لهؤلاء الأعداء، من أجل أن يكون الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين فقط.

ثانيًا: النفاق والمنافقون

إن المؤمنين في العهد المكي كانوا مبتلين، يعذبون، ويضطهدون ومع ذلك صبروا واحتسبوا فلم يكن في مكة حينئذ إلا فريقان: فريق المؤمنين الصابرين، وفريق الكفار والمشركين الجبابرة ولم يكن هناك «منافقون» لأن النفاق طبيعته المراوغة والاحتيال وهذا الدين لم يكن يقدر عليه في مكة إلا المؤمنون الصادقون.

أما في المدينة، وبعد قيام دولة المسلمين وهيمنة حكم الله وشرعه فقد وجد المنافقون وهذا أمر معهود من أصحاب النفوس الضعيفة الجبانة، التي تخاف السلطة الإسلامية فتظهر لها الإسلام، وتحب الكفر وأهله ولكنها لا تجرؤ على المصارحة به.

والمنافقون: قوم أظهروا الإسلام ومتابعة الرسل، وأبطنوا الكفر ومعاداة الله ورسله، فهم في الدرك الأسفل من النار كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُنَـٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾ [النساء: ١٤٥].

فالكافرون المجاهرون أخف منهم، وهم فوقهم في دركات النار، لأن الطائفتين اشتركتا في الكفر ومعاداة الله ورسله، وزاد عليهم المنافقون بالكذب والنفاق. وبلية المسلمين بهم أعظم من بليتهم بالكفار المجاهرين ولهذا قال تعالى في حقهم:

﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [النافقون: ٤].

ومثل هذا اللفظ يقتضي الحصر. أي: لا عدو إلا هم، ولكن لم يرد ها هنا حصر العداوة فيهم، وأنهم لا عدو للمسلمين سواهم، بل هذا من إثبات الأولوية والأحقية لهم في هذا الوصف، وأنه لا يتوهم بانتسابهم إلى المسلمين ظاهرًا، وموالاتهم لهم ومخالطتهم إيّاهم أنهم ليسوا بأعدائهم، بل هم أحق بالعدواة ممن باينهم في الدار، ونصب لهم العداوة وجاهرهم بها.

«فإن ضرر هؤلاء المخالطين المعاشرين لهم – وهم في الباطن على خلاف دينهم – أشد عليهم من ضرر من جاهرهم بالعداوة وألزم وأدوم. لأن الحرب مع أولئك ساعة أو أيامًا ثم ينقضي ويعقبه النصر والظفر، أما هؤلاء فمعهم في الديار والمنازل صباحًا ومساءً، يدلون العدو على عوراتهم، ويتربصون بهم الدوائر ولا يمكنهم مناجزتهم.. صحبتهم توجب العار والشنار، ومودتهم تحل غضب الجبار، وتوجب دخول النار».

«من علقت به كلاليب كلبهم ومخاليب رأيهم مزقت منه ثياب الدين والإيمان وقطعت له مقطعات من البلاء والخذلان، فهو يسحب من الحرمان والشقاوة أذيالاً، ويمشي على عقبه القهقري إدبارًا منه وهو يحسب ذلك إقبالاً»[١].

وكان من نعمة الله ﷻ على هذه الأمة أن لا يتركها مختلطة بغير تمييز بين المؤمن والمنافق، ذلك أن عدم التمييز يؤدي إلى ضياع القدوة الحسنة في المجتمع الإسلامي، ويؤدي أيضًا إلى ذوبان الصورة الصادقة للمسلم الصادق.

---

(١) انظر طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن القيم ص٤٠٢ – ٤٠٨ الطبعة الأولى سنة ١٣٧٥هـ السلفية بمصر.

وفي المنتسبين للإسلام أناس «نفعيون» لا هم لهم إلا الحصول على المال أو أي مأرب من مآربهم الدنيئة، فإذا انتصر المؤمنون كانوا معهم، وإذا أصيبوا كانوا عليهم، ثم إن منهم أصحاب الأهداف الخبيثة والأغراض الهدامة ممن قد امتلأت قلوبهم بالحقد والحسد، فهم يتربصون بالمسلمين الدوائر، ويتظاهرون لهم بأنهم معهم، ولكنهم يخونوهم في أحرج المواقف[1].

ولما كان الأمر كذلك ميز الله الصادق من الكاذب عن طريق الابتلاء والامتحان قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: ١-٣].

﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٤٠ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝١٤١﴾ [آل عمران: ١٤٠، ١٤١].

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

أجل: إنه لابد من التمييز بين الخبيث والطيب، فالابتلاء سنة ربانية في تمحيص النفوس وصقلها على الحق، ثم إن الله سبحانه يحب من عباده تكميل عبوديتهم على السراء والضراء، وفي حال العافية والبلاء، فلله سبحانه على العباد في كلتا الحالين عبودية بمقتضى الحال.. لا تحصل إلا بها، ولا يستقيم القلب بدونها، كما لا تستقيم الأبدان إلا بالحر والبرد، والجوع والعطش، والتعب والنصب، فتلك المحن والبلايا شرط في حصول الكمال الإنساني والاستقامة المطلوبة منه[2].

---

(١) المنافقون في القرآن الكريم للأستاذ عبد العزيز الحميدي ص١١٦.

(٢) انظر إغاثة اللهفان لابن القيم ١٩٠ تحقيق الفقي.

والحديث عن المنافقين طويل طويل وقد كتب فيه في القديم والحديث[١].

وسبق لي في التمهيد أن تكلمت عن أنواع النفاق وأحكامه، **وأتكلم هنا عن أبرز أفعال وصفات المنافقين في كيدهم للدعوة الإسلامية:**

١) **من أخطر ما ارتكبه المنافقون:** موالاة اليهود والنصارى ضد المسلمين وقد فضحهم القرآن في عدة مواضع ومنها سورة الحشر، قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الحشر: ١١، ١٢].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المجادلة: ١٤].

ذكر السدي ومقاتل: أنها نزلت في عبد الله بن أبيّ وعبد الله بن نبتل المنافقين: فقد كان أحدهما يجالس النبي ﷺ ثم يرفع حديثه إلى اليهود[٢]. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾ [النساء: ١٤٣].

ولقد نزلت سورة كاملة فيهم هي سورة «المنافقون» بين الله فيها أنهم يظهرون ما لا يبطنون، وأنهم يحرضون على إضعاف صف المسلمين ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ

---

(١) هناك رسالة قيمة للأستاذ عبد العزيز الحميدي بعنوان: المنافقون في القرآن، لعلها من أحسن ما كتب في هذا الموضوع. وهي موجودة بالدراسات العليا بكلية الشريعة بمكة المكرمة وانظر أيضًا: كتاب النفاق آثاره ومفاهيمه للشيخ عبد الرحمن الدوسري رحمه الله.

(٢) أسباب النزول للواحدي ص٢٣٥ وتفسير القرطبي ٣٠٤/١٧.

﴿لَا يَفْقَهُونَ ۝٧﴾ [المنافقون: ٧].

وفيها أيضًا: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨﴾ [المنافقون: ٨].

روى البخاري ومسلم في سبب نزولها عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «كنا غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فقال رسول الله ﷺ: «ما بال دعوى الجاهلية؟ قالوا: يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال: «دعوها فإنها منتنة» فسمعها عبد الله بن أبيّ فقال: قد فعلوها، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، قال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق: قال ﷺ: «دعه. لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه»[1].

قال محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمرو بن قتادة: أن عبد الله بن عبد الله بن أبي لما بلغه ما كان من أبيه أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالديه مني، إني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس فأقتله، فأقتل مؤمنًا بكافر، فأدخل النار. فقال رسول الله ﷺ: «بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا»[2].

وذكر عكرمة وغيره: أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة وقف عبد الله بن عبد الله ابن أبي علي باب المدينة، واستل سيفه، فجعل الناس يمرون عليه، فلما جاء أبوه عبد الله

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير ٦٥٢/٨ ح٤٩٠٧ وصحيح مسلم كتاب البر ١٩٩٩/٤ ح٢٥٨٤ واللفظ له.

(٢) السيرة لابن هشام ٢٩٢/٢ وتفسير ابن كثير ١٥٩/٨ ولم يخرجه – فيما أعلم – إلا ابن إسحاق.

ابن أبيّ قال له ابنه: وراءك، فقال: مالك ويلك؟ قال: والله لا تجوز من ها هنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ - وكان إنما يسير ساقة[1] - فشكى إليه عبد الله بن أبيّ ابنه، فقال الابن: والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له، فأذن له رسول الله ﷺ، فقال: أما إذ أذن لك رسول الله ﷺ فجز الآن[2].

وحقًا إنها صورة رائعة لصدق الإيمان أن يقول الابن لرسول الله ﷺ: إن كنت فاعلاً فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه!! إنه ما حمل هذا الابن على هذا الفعل إلا قوة الإيمان وعمق الولاء والبراء في نفسه.

٢) **من أقبح صفاتهم**: رفض التحاكم إلى شريعة الله، والتحاكم إلى الطواغيت التي تحقق رغباتهم، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ [النساء: ٦٠-٦٣].

ورفضهم لحاكمية الله رفض للإيمان كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النور: ٤٧-٥٠].

---

(١) من صفته ﷺ أنه يسوق أصحابه. أي يقدمهم ويمشي خلفهم تواضعًا ولا يدع أحدًا يمشي خلفه.

(٢) تفسير ابن كثير ١٥٩/٨.

ثم يضع الله ميزانًا دقيقًا في هذه القضية بين المؤمن والمنافق.

فأما المؤمن الصادق فإنه ينقاد إلى حكم الله ويرضى به ويقول: سمعت وأطعت: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور: ٥١].

هذه هي صفة المؤمن، أما المنافق فصفته الإعراض والاستكبار عن حكم الله.

٣) **من صفاهم وأفعالهم الدنيئة:** التخذيل في صف المسلمين، والتجسس للكفار وكشف عورات المسلمين لهم. قال الله عنهم: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ [آل عمران: ١٦٨].

ولقد أصيب المسلمون في غزوة أحد بالدهشة حين رجع ثلث الجيش بزعامة ابن أبيّ. وكذلك قعودهم عن غزوة تبوك وغيرها.

وفي موالاهم للكفار يقول الله في شأنهم: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء: ١٣٨، ١٣٩].

وأخبرنا سبحانه أنهم هم: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ [النساء: ١٤١].

ولقد فضحتهم سورة التوبة خاصة فقد ورد فيها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ

اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [التوبة: ٤٥-٥٠].

ففي هذه الآيات بيان من الله للمؤمنين أن هؤلاء المنافقين لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً لأهم جبناء، مخذولون، ولأسرعوا بينكم بالنميمة والبغضاء، والفتنة(١). وقال الله فيهم أيضًا:

﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [التوبة: ٨٦، ٨٧].

ولهم مواقف أخرى كثيرة، ولكنه ﷻ حذر المؤمنين منهم وبين لرسوله ﷺ أنه ﷻ لو شاء لأراهم لرسول الله عيانًا ولكنهم يُعرفون بلحن القول، ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾ [محمد: ٣٠].

وسنعرف بعد قليل كيف كان البراء منهم، وكيف كان هدي رسول الله ﷺ معهم.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ج٤/١٠٠.

ثالثًا: البراء في العهد المدني

أي: المفاصلة التامة بين المسلمين وجميع أعدائهم

لئن كانت التربية في العهد المكي تمتاز بضبط النفس، والصبر على الأذى، وتبليغ الدعوة وإعداد العدة مع حبس دواعي الانطلاق، وكف حدة الإقدام: فإن التربية في المدينة مبنية على هذه الأسس ولكن في شكل جديد، حيث انطلق المؤمنون في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، والضرب على يد أعداء الله بقوة لا تعرف الضعف، وعزيمة لا تعرف الوهن[١]. من هنا كان الجهاد في سبيل الله هو أبرز سمات هذا العهد الزاهر، وهو أول صورة من صور البراء والمفاصلة بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان في العهد المدني وبعد الهجرة النبوية والجهاد وجه جديد من وجوه الثبات على العقيدة، واحتمال المشقات والأذى في سبيل الذود عنها من الأعداء[٢].

والحديث عن الجهاد طويل طويل، وآياته كثيرة وكذلك الأحاديث النبوية فيه، وفهم الناس لمقصده مختلف، خاصة في العصور المتأخرة، فقد وجد من المسلمين أناس أصيبوا بالهزيمة النفسية أمام شبهات الكفار والملحدين والمستشرقين والمستغربين على حد سواء!.

ففي الوقت الذي يقول فيه أعداء الله: إن دين الإسلام انتشر بالسيف، وجد ممن ينتسبون للعلم والعلماء من يدافع – حسب زعمه – عن الإسلام؟ فيلوي أعناق النصوص الشرعية لتوافق ما زعمه دفاعًا عن الإسلام! ومن هنا يوضع الإسلام في مقام الدفاع، ويصور على أنه كالذي يقاتل في معركة انسحاب، حيث كلما طرأت شبهة انبرى لها من يدافع!!

والذي نعتقده ونراه الحق في هذه القضية: أن هذه مهزلة سخيفة لم تحدث إلا في

(١) انظر: سبيل الدعوة الإسلامية. د. محمد أمين المصري ص١١٣ ط١/ سنة ١٤٠٠هـ دار الأرقم بالكويت.

(٢) انظر: منهج التربية الإسلامية للأستاذ محمد قطب ٢/ ٧٠.

القرون المتأخرة، حين صارت الغلبة للكفر وأربابه، واندحر المسلمون من مقام القيادة والجهاد إلى مقام الاستخذاء والضعف والدفاع والتبعية العمياء.

وقد كتب علماء فضلاء من علماء المسلمين حول هذا الموضوع ما يكفي ويشفي ويغني[1]. ومن المهم في هذا المقام: أن نعرف هدي المصطفى ﷺ وسيرته مع أعداء الله، وجهاده لهم. وللإمام ابن القيم رحمه الله تلخيص قيم أورده هنا بتمامه نظرًا لأهميته.

قال رحمه الله في زاد المعاد: أول ما أوحى إليه ربه تبارك وتعالى: أن يقرأ باسم ربّه الذي خلق، وذلك أول نبوته، فأمره أن يقرأ في نفسه و لم يأمره إذ ذاك بتبليغ. ثم أنزل عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ [المدثر: ١، ٢].

فنبأه بقوله: ﴿اقرأ﴾ وأرسله بـ﴿يا أيها المدثر﴾ ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين، ثم أنذر قومه، ثم أنذر من حولهم من العرب ثم أنذر العرب قاطبة، ثم أنذر العالمين، فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال، ولا جزية، ويؤمر بالكف والصبر والصفح.

ثم أُذن له في الهجرة، وأُذن له في القتال، ثم أمره أن يقاتل من قاتله، ويكف عمن اعتزله و لم يقاتله، ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله.

ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام: أولاً: أهل صلح وهدنة، **ثانيًا**: وأهل حرب، **ثالثًا**: وأهل ذمة.

فأمر أن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم، وأن يوفي لهم به ما استقاموا على العهد، فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم و لم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد. وأمر

---

(١) أذكر منهم شيخ الإسلام ابن تيمية والعلاّمة ابن القيم والشيخ محمد بن عبد الوهاب وتلاميذه، ومن المعاصرين الأستاذين الجليلين أبو الأعلى المودودي وسيد قطب والشيخ سليمان بن حمدان رحمهم الله. وغيرهم ممن لا يحضرني ذكره الآن.

أن يقاتل من نقض عهده. ولما نزلت سورة «براءة» نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها، فأمره فيها أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية أو يدخلوا في الإسلام، وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين، والغلظة عليهم، فجاهد الكفار بالسيف والسنان، والمنافقين بالحجة واللسان.

وأمره فيها بالبراء من عهود الكفار، ونبذ عهودهم إليهم، **وجعل أهل العهد في ذاك ثلاثة أقسام:**

١) قسمًا أمره بقتالهم، وهم الذين نقضوا عهده ولم يستقيموا له فحاربهم وظهر عليهم.

٢) وقسمًا لهم عهد مؤقت لم ينقضوه، ولم يظاهروا عليه، فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم.

٣) وقسمًا لم يكن لهم عهد ولم يحاربوه، أو كان لهم عهد مطلق فأمره أن يؤجلهم أربعة أشهر فإذا انسلخت قاتلهم. وهي الأشهر الأربعة المذكورة في قوله: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥]. فالحرم ها هنا أشهر التسيير أولها يوم الأذان وهو اليوم العاشر من ذي الحجة، وهو يوم الحج الأكبر الذي وقع فيه التأذين بذلك، وآخرها العاشر من ربيع الآخر. وليست هي الأربعة المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: ٣٦].

فإن تلك: واحد فرد، وثلاثة سرد. رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم. ولم يسير المشركين في هذه الأربعة. فإن هذا لا يمكن لأنها غير متوالية، وهو إنما أجلهم أربعة أشهر، ثم أمره بعد انسلاخها أن يقاتلهم، فقتل الناقض لعهده، وأجل من لا عهد له، أوله عهد مطلق أربعة أشهر، وأمره أن يتم للموفي بعهده عهده إلى مدته فأسلم هؤلاء كلهم، ولم يقيموا على كفرهم إلى مدتهم، وضرب على أهل الذمة الجزية.

فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول «براءة» على ثلاثة أقسام: محاربين له، وأهل عهد، وأهل ذمة.

ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام فصاروا معه قسمين: محاربين وأهل ذمة. والمحاربون له خائفون منه، فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام: مسلم مؤمن به ومسالم آمن وخائف محارب[١].

وقد ركز القرآن الكريم على أهداف الجهاد في غير ما آية. فمنها قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾: لا يكون مع دينكم كفر[٢].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: ٣٣].

وقال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: ٤٠، ٤١].

إن الجهاد في الإسلام: هدفه أن يعبد الله وحده في الأرض، وأن تهيمن شريعته، ويتحرر الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن تأليه البشر إلى ألوهية الواحد الأحد[٣] ومن هدف الجهاد أيضًا إنقاذ المستضعفين في الأرض ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى

---

(١) زاد المعاد ٣/١٥٨ - ١٦٠.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/٥٩٧.

(٣) انظر: فصل الجهاد في سبيل الله في «معالم في الطريق» وطريق الدعوة «في ظلال القرآن» ١/٢٨٩.

سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ [النساء: ٧٥].

وإليك تفصيل صور البراء من كل طائفة، وكيفية جهاد المسلمين لهم:

(أ) صور البراءة من المشركين

١) بعد أن قامت الدولة المسلمة في المدينة، كان لابد من اجتثاث شجرة الشرك في مكة وغيرها وقد نزلت سورة التوبة بقتال المشركين، وتفصيل ذلك ورد في تلخيص ابن القيم الذي سبق ذكره. قال تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ

ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التوبة: ١-١٥].

٢) **منعهم من دخول المسجد الحرام:** قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [التوبة: ٢٨].

قال ابن كثير: كان نزول هذه الآية سنة تسع. ولهذا بعث رسول الله ﷺ عليًا صحبة أبي بكر رضي الله عنهما عامئذ، وأمره أن ينادي في المشركين: «أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان»[١] فأتم الله ذلك وحكم به شرعًا وقدرًا[٢].

٣) **منع النكاح بالمشركات:** ذكر ابن جرير – وهو يتحدث عن صلح الحديبية – أنه جاء إلى النبي ﷺ نسوة مؤمنات فأنزل الله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ

---

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير، تفسير سورة التوبة ٣١٧/٨ ح٤٦٥٥.

(٢) تفسير ابن كثير ٧٣/٤.

ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾ [الممتحنة: ١٠].

قال فطلق عمر ﷺ يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك[1].

٤) **منع إقامة المسلم في دار الشرك**، وذلك بعد أن أعزّ الله دينه وعباده، وقامت لهم دولة فحينئذ تحرم الإقامة بدار الشرك خشية على المسلم أن يفتن، ولكي ينضم إلى جماعة المسلمين فهم إخوته وأولياؤه من دون الناس. قال ﷺ: «أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين» قالوا: يا رسول الله لم؟ قال: لا تراءى ناراهما»[2].

(ب) البراء من أهل الكتاب

كما سبق أن قلنا: إن الجهاد هو أكبر مظاهر المفاصلة بين المسلمين وجميع أعدائهم – ومنهم أهل الكتاب – فإنه لابد أن نشير إلى بعض ما نزل في مفاصلة أهل الكتاب إضافة إلى مبدأ جهادهم.

ومن ذلك قوله تعالى في سورة آل عمران التي عنيت بهم كثيرًا وكشفت ما لديهم: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ [آل عمران: ٧٠، ٧١].

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [آل عمران: ٩٨، ٩٩].

وفي سورة المائدة قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ ۚ

---

(١) تفسير الطبري ١٦/١٠٠ وانظر أحكام أهل الذمة لابن القيم ١/٦٩.

(٢) سنن أبي داود كتاب الجهاد ٣/١٠٥ ح٢٦٤٥ والترمذي في السير ٥/٣٢٩ ح١٦٠٤ قال الألباني: هو حديث حسن. انظر: صحيح الجامع الصغير ٢/١٧ ح١٤٧٤.

مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ ﴾ [المائدة: ٥٩، ٦٠].

ففي هذه الآيات وغيرها نجد التقريع لأهل الكتاب والتنديد بباطلهم ومخازيهم.

ثم يأتي النص القرآني للرسول ﷺ - وللمؤمنين من ورائه – بأن يقولوا لأهل الكتاب إنهم ليسوا على شيء حتى يقيموا شرع الله ويحكموا كتابه ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًاۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [المائدة: ٦٨].

وهذه الآية الكريمة من أعظم ما بين صورة البراء من أهل الكتاب. ولقد كان جهاد المصطفى ﷺ وأصحابه لأهل الكتاب – بني قينقاع وبني قريظة وبني النضير – صورة واضحة بارزة في مفاصلتهم وجهادهم والبراءة منهم.

وسيرد الحديث عن إجلائهم عن أرض الجزيرة في الفصل السادس من الباب الثاني.

(ج) البراء من المنافقين

مفاصلة المنافقين والبراءة منهم تؤخذ من هدي رسول الله ﷺ معهم. وفي ذلك يقول العلاّمة ابن القيم: «وأما سيرته ﷺ في المنافقين: فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم، ويكل سرائرهم إلى الله، وأن يجاهدهم بالعلم والحجة. وأمره أن يعرض عنهم، ويغلظ عليهم، وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم، ونهاه أن يصلي عليهم وأن يقوم على قبورهم، وأخبر أنه إن استغفر لهم فلن يغفر الله لهم»[1].

وقد قلنا فيما سبق: أن من أبرز صفات المنافقين موالاة الكفار، وكراهية دين الله

---

(١) زاد المعاد ١٦١/٣.

والتخذيل في صف المسلمين لذلك حين بين الله حالهم للمؤمنين: كان لابد من مفاصلتهم والبراءة منهم ونزل في ذلك آيات توضح صور هذه المفاصلة وذلك البراء ومنها:

١) الإعراض عنهم والغلظة عليهم: وقد جاء ذلك مقرونًا بجهاد الكفار، فالغلظة على المنافق من أنواع الجهاد قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [التوبة: ٧٣].

(وهي نفس آية ٩ من سورة التحريم) وسورة التوبة فضحتهم فضحًا عظيمًا حتى إنها سميت بـــ«الفاضحة». ففي صحيح البخاري عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة التوبة؟ قال: التوبة هي الفاضحة، ما زالت تنزل: ومنهم، ومنهم حتى ظنوا أنها لم تبق أحدًا منهم إلا ذكر فيها[1]. وفي سورة النساء:

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾ [النساء: ٨١].

٢) النهي عن الصلاة عليهم أو القيام على قبورهم ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [التوبة: ٨٤].

قال ابن كثير: وهذا حكم عام في كل من عرف نفاقه، وإن كان سبب نزول الآية في عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين[2].

٣) لا يقبل لهم عذر في التخلف عن الجهاد، ومن ثم عدم قبولهم فيه مرة أخرى. قال تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا

---

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير، تفسير سورة الحشر ج٨/٦٢٩ ح٤٨٨٢.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/١٣٢.

وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [التوبة: ٨٣].

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [التوبة: ٩٤-٩٦].

٤) عدم الاستغفار لهم. قال تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [التوبة: ٨٠].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [المنافقون: ٥، ٦].

(د) قطع الموالاة مع الأقارب إذا كانوا محادين لله ورسوله

قلنا في العهد المكي: أن المؤمن كان مأمورًا بصلة والديه الكافرين وإحسان معاشرتهما وليس في ذلك ولاء على أية حال إلا أنه لم يؤمر بمقاطعتهما ومفاصلتهما ولكن الصورة تختلف في العهد المدني بعد قيام الدولة المسلمة وجهاد الكفار والمشركين. حيث جاءت المفاصلة التامة بين المؤمن وقريبه المشرك أو الكافر أو المنافق ونزل في ذلك آيات كثيرة منها قوله تعالى:

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ

ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

قال أهل العلم في سبب نزولها: إنها نزلت في أبي عبيدة عامر بن الجرّاح حين قتل أباه عبد الله بن الجراح يوم أُحد، وفي أبي بكر حين دعا ابنه للمبارزة يوم بدر، وفي عمر حيث قتل خاله العاص بن هشام يوم بدر، وفي عليّ وحمزة حين قتلوا عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة يوم بدر[١]. وقيل غير ذلك من الأسباب[٢].

وهذه الآية الكريمة تشير إلى المفاصلة الكاملة بين حزب الله وحزب الشيطان، وأن المؤمن يجب عليه أن ينحاز إلى الصف المسلم متجردًا من كل عائق أو جاذب ومرتبطًا في العروة الواحدة بالحبل الواحد. ومن ثم فلا نسب ولا صهر، ولا أهل ولا قرابة، ولا وطن ولا جنس ولا عصبية ولا قومية حين تقف هذه الوشائج دون ما أراد الله. وإنما هي العقيدة من وقف تحت رايتها فهو من حزب الله، ومن استحوذ عليه الشيطان فوقف تحت راية الباطل فلن تربطه بأحد من حزب الله رابطة[٣]. وفي سورة التوبة يأتي الأمر الأخير بالمفاصلة. وبيان أن القضية: قضية إيمان أو كفر وليست قضية جزئية أو ثانوية. قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [التوبة: ٢٣، ٢٤].

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص٢٣٦ وتفسير ابن كثير ٧٩/٨.

(٢) للاستزادة في هذا انظر: أحكام القرآن للقرطبي ٣٠٧/١٧.

(٣) انظر: الظلال ٣٥١٤/٦، ٣٥١٦.

فهذا أمر من الله بمباينة الكفار وإن كانوا آباء أو أبناء، ونهي عن موالاتهم إذا اختاروا الكفر على الإيمان[١].

قال القرطبي: وهذه الآية – آية ٢٣ – باقية الحكم إلى يوم القيامة في قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين[٢]. وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الظَّٰلِمُونَ ۝٢٣﴾: هو مشرك مثلهم لأن من رضي بالشرك فهو مشرك[٣].

وهذا السياق القرآني الكريم قد استعرض ألوان الوشائج والمطامع واللذائذ ليضعها في كفة، ويضع العقيدة ومقتضياتها في الكفة الأخرى.

الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة «وشيجة الدم والنسب والقرابة والزواج» والأموال والتجارة «مطمع الفطرة ورغبتها» والمساكن المريحة «متاع الحياة ولذتها».. كل ذلك في كفة وفي الكفة الأخرى: حب الله ورسوله وحب الجهاد في سبيله. الجهاد بكل مقتضياته وبكل مشتقاته وما يتبعه من نصب وتعب، ومن تضييق وحرمان وألم وتضحية وجراح واستشهاد. الجهاد المجرد من الصيت والذكر والظهور والمباهاة والفخر والرياء.

وما يكلف الله المؤمنين هذا التكليف إلا وهو يعلم أن فطرتهم تطيق ذلك، فالله لا يكلف نفسًا إلا وسعها، وأنه لمن رحمة الله بعباده أن أودع فطرتهم هذه الطاقة العالية من التجرد والاحتمال، وأودع فيها الشعور بلذة الاتصال بالله التي لا تعدلها أي لذة. لذة الاستعلاء وعلى الضعف والهبوط والخلاص من ثقلة اللحم والدم، والارتفاع إلى الأفق المشرق الوضيء[٤].

وخلاصة القول: إن الولاء والبراء قد اكتملت صورته الحقيقية في العهد المدني

---

(١) ابن كثير ٤/٦٦.
(٢) أحكام القرآن للقرطبي ٨/٩٤.
(٣) أحكام القرآن للقرطبي ٨/٩٤.
(٤) الظلال ٣/١٦١٥ بتصرف.

حيث قامت دولة الإسلام الراشدة وأصبحت الأخوة الإيمانية فيها هي الرابطة الحقيقية، ودونها تهدر كل رابطة. وشرع الجهاد للكفار والمشركين ومن نقض عهده. وجاء الأمر بالغلظة على المنافقين والإعراض عنهم. وحصلت البراءة من كل قريب لا يؤمن بالله ورسوله ولا يدين دين الحق ولو كان أبًا أو أخًا أو زوجًا أو غير ذلك مما تعارف الناس عليه. أنه رابطة!

ولقد تميز المسلمون واستعلوا بدينهم، وافتخروا بالانتماء إلى هذا الدين الذي هو سبب تلك العزة والرفعة والسيادة حين فتحوا الشرق والغرب. ولن يكون للمسلمين اليوم أو غدًا عز إلا بالرجوع إلى هذه العقيدة عن حب وولاء لدين الله والمؤمنين به، وبراء من كل كافر ومشرك ومنافق ولو كان أقرب قريب. أما الإحسان إلى الوالدين وبرهما – وهما كافران – فهذا أمر باق إلى قيام الساعة.



الفصل السابع

صور الموالاة ومظاهرها

إن جمع صور الموالاة ومظاهرها في فصل مستقل أمر له أهميته في مثل هذا البحث، وذلك حتى يكون القارئ على بينة من الأمور والقضايا التي تمسها قضية الولاء والبراء.

وأحب أن أنبه في هذا المقام على أنني لم ألزم نفسي بتتبع الحكم الشرعي في كل صورة من هذه الصور، وذلك لصعوبة القطع بالحكم في كل قضية، لأنه – كما يقول أهل العلم – قد يكون القول أو الفعل كفرًا ولكن هناك ما يصرفه عن ظاهره فيما بين العبد وبين ربّه، ولكن على العموم فهذه الصور تتفاوت في كون فاعلها خارجًا من الملة كمن يحب الكفار لأجل كفرهم إلى الكبيرة من الكبائر كتعظيمهم والثناء عليهم[١]. ذلك أن (مسمى الموالاة يقع على شعب متفاوتة منها ما يوجب الردة كذهاب الإسلام بالكلية، ومنها ما هو دون ذلك من الكبائر والمحرمات) [٢]. قد حرص الدين الإسلامي على إخلاص العبادة (وهي الطاعة والانقياد) لله وحده والبراءة من كل متبوع أو مرغوب، أو مرهوب، وتعلق القلب بربه في الخشية والخوف والرجاء والعون والنصرة، لأن «كل من علق قلبه بالمخلوقين أن ينصروه أو يرزقوه أو يهدوه: خضع قلبه لهم، وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك.. ومعلوم أن أسر القلب أعظم من أسر البدن، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن فإن من استعبد بدنه واسترق وأسر لا يبالي إذا كان قلبه مستحريًا من ذلك مطمئنًا، بل يمكنه الاحتيال في الخلاص. أما إذا كان القلب متيمًا لغير الله فهذا هو الذل والأسر المحض»[٣].

وخطورة موالاة الكفار تبرز في أن ضررها على المسلمين كافة أعظم من خطر من

---

(١) الدرر السنية ٢٠١/٧ والهداية الثمينة للشيخ عبد الله السليمان بن حميد ص١٧.

(٢) الرسائل المفيدة للشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ ص٤٣.

(٣) رسالة العبودية لابن تيمية ٩٥، ٩٦.

يكفر في نفسه فقط. ذلك أن (الإضرار بالمسلمين يزيد على تغيير الاعتقاد، ويفعله من يظن سلامة الاعتقاد، وهو كاذب عند الله ورسوله والمؤمنين في هذه الدعوى والظن، ومعلوم أن المفسدة في هذا أعظم من المفسدة في مجرد تغيير الاعتقاد)[١] وإليك تفاصيل صور موالاة الكفار[٢]:

١) الرضى بكفر الكافرين وعدم تكفيرهم أو الشك في كفرهم أو تصحيح أي مذهب من مذاهبهم الكافرة[٣].

ويتضح هذا الأمر في كونه ولاء للكفار: إنه يسرهم ويسعدهم أن يروا من يوافقهم على كفرهم ويجاريهم على مذاهبهم الإلحادية.

وقد سبق في التمهيد القول بأن من معتقد أهل السنة والجماعة: أن حب القلب وبغضه يجب أن يكون كاملاً. فالذي يحب الكافر لأجل كفره وهو كافر بإجماع الأمة، و لم يخالف في ذلك أحد من علماء المسلمين.

يقول ابن تيمية رحمه الله: (أما حب القلب وبغضه، وإرادته وكراهيته فينبغي أن تكون كاملة جازمة لا توجب نقص ذلك إلا بنقص الإيمان. وأما فعل البدن فهو بحسب قدرته. ومتى كانت إرادة القلب وكراهته كاملة تامة وفعل العبد معها بحسب قدرته فإنه يعطي ثواب الفاعل الكامل، ذلك أن من الناس من يكون حبه وبغضه وإرادته وكراهته بحسب محبة نفسه وبغضها، لا بحسب محبة الله ورسوله وبغض الله ورسوله، وهذا من نوع الهوى، فإن اتبعه الإنسان فقد اتبع هواه:

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠][٤].

---

١) الصارم المسلول على شاتم الرسول لابن تيمية ٣٧١.

٢) من أحسن من كتب في ذلك الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وأبناؤه، لذلك فمعظم هذه الصور منقولة من كتبه.

٣) انظر نواقض الإسلام في مجموعة التوحيد ص١٢٩ مطبعة الحكومة بمكة.

٤) شذرات البلاتين ١/٣٥٤ «رسالة الأمر بالمعروف».

إذن: فالمحبة والرضى أمران جازمان لا يخرجان عن كونهما كفرًا إذا كانا للكفار أو إيمانًا إذا كانا للمؤمنين.

٢) التولي العام واتخاذهم أعوانًا وأنصارًا وأولياء أو الدخول في دينهم وقد نهى الله عن ذلك فقال: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٢٨﴾ [آل عمران: ٢٨].

قال ابن جرير في تفسيرها: من اتخذ الكفار أعوانًا وأنصارًا وظهورًا يواليهم على دينهم ويظاهرهم على المسلمين فليس من الله في شيء. أي قد برئ من الله وبرئ الله منه، بارتداده عن دينه ودخوله في الكفر. ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ أي إلا أن تكونوا في سلطانهم فتخافوهم على أنفسكم فتظهروا لهم الولاية بألسنتكم وتضمروا العداوة، ولا تشايعوهم على ما هم عليه من الكفر ولا تعينوهم على مسلم بفعل[١].

وقال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥١﴾ [المائدة: ٥١].

قال ابن جرير رحمه الله في تفسيرها: من تولى اليهود والنصارى من دون المؤمنين فإنه منهم. أي من أهل دينهم وملتهم، فإنه لا يتولى متول أحدًا إلا وهو به وبدينه وما هو عليه راض، وإذا رضيه ورضي دينه فقد عادى ما خالفه وسخطه وصار حكمه حكمه[٢].

وقال ابن حزم: صح أن قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ إنما هو على ظاهره: بأنه كافر من جملة الكفار، وهذا حق لا يختلف فيه اثنان من المسلمين[٣].

---

(١) تفسير الطبري ٢٢٨/٣.

(٢) المصدر السابق ٢٧٧/٦.

(٣) المحلي: ٣٥/١٣ تحقيق حسن زيدان سنة ١٣٩٢هـ الناشر مكتبة الجمهورية العربية بمصر.

وقال ابن تيمية: أخبر الله في هذه الآية: إن متوليهم هو منهم وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٨١].

فدل على أن الإيمان المذكور ينفي اتخاذهم أولياء ويضاده ولا يجتمع الإيمان واتخاذهم أولياء في القلب. فالقرآن يصدق بعضه بعضًا[١].

وقال ابن القيم: «إن الله قد حكم ولا أحسن من حكمه أنه من تولى اليهود والنصارى، فهو منهم ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ فإذا كان أولياؤهم منهم بنص القرآن كان لهم حكمهم. وهذا عام، خص منهم من يتولاهم ودخل في دينهم بعد التزام الإسلام فإنه لا يقر ولا تقبل منه الجزية. بل إما الإسلام أو السيف لأنه مرتد بالنص والإجماع، ولا يصح إلحاق من دخل في دينهم من الكفار قبل التزام الإسلام بمن دخل فيه من المسلمين لأن من دان بدينهم من الكفار بعد نزول القرآن فقد انتقل من دين إلى دين خير منه – وإن كانا جميعًا باطلين – وأما المسلم فإنه قد انتقل من دين الحق إلى الدين الباطل بعد إقراره بصحة ما كان عليه وبطلان ما انتقل إليه فلا يقر على ذلك[٢].

على أن الأستاذ سيد قطب رحمه الله يخالف ما ذهب إليه الطبري، وغيره في تفسير هذه الآية فهو – أي سيد – يستبعد أن يكون المسلمين، من يميل إلى اتباع اليهود والنصارى في الدين. وإنما المراد ولاء التحالف والتناصر. يقول رحمه الله: إن الولاية المنهي عنها هنا ولاية التناصر والتحالف معهم، ولا تتعلق بمعنى اتباعهم في دينهم، فبعيد جدًّا أن يكون بين المسلمين من يميل إلى اتباع اليهود والنصارى في الدين. إنما هو ولاء التحالف والتناصر الذي كان يلتبس على المسلمين أمره، فيحسبون أنه جائز لهم بحكم ما كان واقعًا من تشابك المصالح والأواصر، ومن قيام هذا الولاء بينهم وبين جماعات من اليهود قبل الإسلام وفي أوائل العهد بقيام الإسلام في المدينة حتى نهاهم

(١) انظر: الإيمان لابن تيمية ص١٤ ! طبع المكتب الإسلامي.

(٢) أحكام أهل الذمة لابن القيم ١/٦٧، ٦٩.

الله عنه وأمر بإبطاله. يوضح ذلك قوله تعالى بشأن المسلمين الذين لم يهاجروا:

﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ [الأنفال: ٧٢].

أي: ولاية التناصر والتعاون وليس ولاية الدين.

نقول هذا: لأن البعض يخلط بين دعوة الإسلام إلى السماحة في معاملة أهل الكتاب والبر بهم في المجتمع المسلم الذي يعيشون فيه وبين الولاء الذي لا يكون إلا لله ورسوله وللجماعة المسلمة. ناسين ما يقرره القرآن الكريم من أن أهل الكتاب بعضهم أولياء بعض في حرب الجماعة المسلمة، وأن هذا شأن ثابت لهم، وأنهم لن يرضوا عن المسلم إلا أن يترك دينه ويتبع دينهم.

وسذاجة أية سذاجة، وغفلة أية غفلة: أن تظن أن لنا وإياهم طريقًا واحدًا نسلكه للتمكين للدين!! أمام الكفار والملحدين. فهم مع الكفار والملحدين إذا كانت المعركة ضد المسلمين.

فلندع من يغفل عن هذا ولنكن واعين للتوجيه القرآني: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ الآية[1].

والذي يظهر لي أنه لا تعارض بين القولين لأن كليهما صحيح سواء اجتمعا في فرد أو أمة أو أحدهما.

٣) الإيمان ببعض ما هم عليه من الكفر، أو التحاكم إليهم دون كتاب الله كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ۝٥١﴾ [النساء: ٥١].

ونظير هذه الآية قوله تعالى عن بعض أهل الكتاب: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ

---

(١) في ظلال القرآن بتصرف ٩٠٩/٢، ٩١٠ وسيرد مزيد من التفصيل إن شاء الله عند الحديث عن زمالة الأديان!

عِنـدِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ [البقرة: ١٠١، ١٠٢].

فأخبر سبحانه أهم اتبعوا السحر وتركوا كتاب الله كما يفعله كثير من اليهود وبعض المنتسبين إلى الإسلام. فمن كان من هذه الأمة مواليًا للكفار: من المشركين أو أهل الكتاب ببعض أنواع الموالاة كإتيانه أهل الباطل واتباعهم في شيء من فعالهم ومقالهم الباطل: كان له من الذم والعقاب والنفاق بحسب ذلك[1]. وإن هذه الصورة من صور الموالاة قد وقع فيها معظم المنتسبين إلى الإسلام اليوم، فالإيمان ببعض ما هم عليه أمر واقع في (العالم الإسلامي) لا ينكره إلا مكابر جاهل، فها هي الببغوات من أبناء أمتنا وممن ينطقون بألسنتنا قد آمنت بالشيوعية مذهبًا تارة وبالاشتراكية تارة أخرى، وبالديمقراطية نظامًا أو العلمانية دستورًا، فأخذت هذه المبادئ الكافرة وطبقتها في بلاد المسلمين ملزمة الناس بعبادتها (في الطاعة والانقياد والتنفيذ) ونصبت العداء لكل مسلم موحد ينادي في الأمة أن تعود إلى كتاب الله وسنة رسوله.

وهذه الردة الجديدة سيأتي تفصيل الحديث عنها — إن شاء الله — في الباب الأخير.

وإن من الإيمان ببعض ما هم عليه: مسألة فصل الدين عن الدولة وأنه لا علاقة للإسلام بالسياسة فهذه أيضًا فرع للقضية السابقة لم توجد إلا في أوروبا أيام الاضطهاد الكنسي لرجال العلم. ولكن أين الإسلام دين العدل ودين السياسة ودين القوة من (هرطقة) رجال الكنيسة حتى يأتي بعض الأقزام فيستورد تلك السموم من أوروبا ليلبس الإسلام قناعًا مزيفًا فيقول: الإسلام علاقة بين العبد وربه والسياسة لها رجالها ولها قضاياها التي لا تمت إلى الدين بصلة[2].

---

(١) انظر فتاوى ابن تيمية ١٩٩/٢٨ – ٢٠١.

(٢) هناك كُتاب أجلاء أفاضوا الحديث في هذه القضية منهم الأساتذة: د. محمد البهي والأستاذ سيد قطب والأستاذ محمد قطب والأستاذ المودودي وغيرهم. ومن أراد التفصيل الدقيق فعليه بمراجعة كتاب العلمانية وآثارها في العالم الإسلامي للأخ الأستاذ سفر بن عبد الرحمن الحوالي.

٤) مودهم ومحبتهم. وقد نهى الله عنها بقوله: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (أخبر الله أنك لا تجد مؤمنًا يواد المحادين لله ورسوله فإن نفس الإيمان ينافي موادته كما ينفي أحد الضدين الآخر، فإذا وجد الإيمان انتفى ضده وهو موالاة أعداء الله. فإذا كان الرجل يوالي أعداء الله بقلبه كان ذلك دليلاً على أن قلبه ليس فيه الإيمان الواجب)[١].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١].

٥) الركون إليهم: قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [هود: ١١٣].

قال القرطبي: الركون حقيقته: الاستناد والاعتماد، والسكون إلى الشيء والرضا به[٢]. وقال قتادة معنى الآية: لا تودوهم ولا تطيعوهم. وقال ابن جريج: لا تميلوا إليهم.

وهذه الآية دالة على هجران أهل الكفر والمعاصي من أهل البدع وغيرهم فإن صحبتهم كفر أو معصية. إذ الصحبة لا تكون إلا عن مودة كما قيل:

عن المرء لا تَسَلْ وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي[٣]

وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ ...

---

(١) الإيمان ١٣.

(٢) تفسير القرطبي ١٠٨/٩ وانظر: البغوي والخازن ٢٥٦/٣ أما البيت فهو لطرفة بن العبد.

(٣) تفسير القرطبي ١٠٨/٩ وانظر: البغوي والخازن ٢٥٦/٣ أما البيت فهو لطرفة بن العبد.

﴿لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۝٧٥﴾ [الإسراء: ٧٤، ٧٥].

وإذا كان هذا الخطاب لأشرف مخلوق صلاة الله وسلامه عليه فكيف بغيره؟[1].

٦) مداهنتهم ومداراتهم ومجاملتهم على حساب الدين قال تعالى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾ [القلم: ٩].

والمداهنة والمجاملة والمداراة على حساب الدين أمر وقع فيه كثير من (المسلمين) اليوم وهذه نتيجة طبيعية للانهزام الداخلي في نفوسهم. حيث رأوا أن أعداء الله تفوقوا في القوة المادية فانبهروا بهم، ولأمر ما رسخ وترسب في أذهان المخدوعين أن هؤلاء الأعداء هم رمز القوة ورمز القدوة – فأخذوا ينسلخون من تعاليم دينهم مجاملة للكفار ولئلا يصمهم أولئك الكفرة بأنهم «متعصبون»! وصدق المصطفى ﷺ، إذ يقول في مثل هؤلاء: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا شبرًا وذراعًا ذراعًا حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم».

قلنا: يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: «فمن»؟[2].

إن المداهنة والمجاملة قد تبدأ بأمر صغير ثم تكبر وتنمو حتى تؤدي – والعياذ بالله – إلى الخروج من الملة. وهذه إحدى مزالق الشيطان فليحذر المسلم منها على نفسه، وليعلم أنه هو الأعز وهو الأقوى إذا امتثل منهج الله وتقيد بشرعه ومقتضيات عقيدته.

ومن الأمور الواضحة في تاريخ المسلمين: أن من أكبر العوامل في انتصارهم – بعد الإيمان بالله ورسوله – الاعتزاز بالإسلام. يصدّق ذلك ويؤيده قول الفاروق رضي الله عنه «أنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله»[3].

---

(١) مجموعة التوحيد ص١١٧ ط دار الفكر.

(٢) صحيح البخاري كتاب الاعتصام ١٣/ ٣٠٠ ح٧٣٢٠ وصحيح مسلم كتاب العلم ٤/ ٢٠٥٤ ح٢٦٦٩ واللفظ للبخاري.

(٣) أخرجه الحاكم في مستدركه ٦٢/١ كتاب الإيمان. وقال صحيح على شرط الشيخين ولم

٧) اتخاذهم بطانة من دون المؤمنين: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [آل عمران: ١١٨].

نزلت هذه الآية في أناس من المؤمنين كانوا يصافون المنافقين، ويواصلون رجلاً من اليهود لما كان بينهم من القرابة والصداقة والجوار فأنزل الله هذه الآية تنهاهم عن مباطنتهم خوف الفتنة منهم عليهم(١).

وبطانة الرجل: خاصته تشبيهًا ببطانة الثوب التي تلي بطنه لأنهم يستبطنون أمره ويطلعون منه على ما لا يطلع عليه غيرهم. وقد بين الله العلة في النهي عن مباطنتهم فقال: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ أي لا يقصرون ولا يتركون جهدهم فيما يورثكم الشر والفساد، ثم إنهم يودون ما يشق عليكم من الضر والهلاك.

والعداوة التي ظهرت منهم: شتم المسلمين والوقيعة فيهم، وقيل: باطلاع المشركين على أسرار المسلمين(٢). وفي سنن أبي دواد قوله ﷺ: «الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»(٣).

٨) طاعتهم فيما يأمرون ويشيرون به(٤). قال تعالى ناهيًا عن ذلك:

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨].

=يخرجاه ووافقه الذهبي في تلخيصه.

(١) أسباب النزول للواحدي ص٦٨.

(٢) انظر تفسير البغوي ٤٠٩/١ وابن كثير ٨٩/٢.

(٣) كتاب الأدب ١٦٨/٥ ح٤٨٣٣ وفي المسند ١٧٨/١٦ ح ٨٣٩٨ ط شاكر، والترمذي في الزهد ١١١/٧ ح٢٣٧٩ وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٤) مجموعة التوحيد ص١١٧.

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [آل عمران: ١٤٩].

وقال: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: ١٢١].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره، فقدمتم عليه غيره فهذا هو الشرك، كما قال تعالى:

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] (١).

٩) مجالستهم، والدخول عليهم وقت استهزائهم بآيات الله. قال تعالى في النهي عن مجالستهم:

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠].

قال ابن جرير: قوله: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ أي إنكم إذا جالستم من يكفر بآيات الله ويستهزئ بها وأنتم تسمعون فأنتم مثلهم إن لم تقوموا عنهم في تلك الحال، لأنكم قد عصيتم الله بجلوسكم معهم وأنتم تسمعون آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها.

وفي الآية دلالة واضحة على النهي عن مجالسة أهل الباطل من كل نوع من الكفرة والمبتدعة والفسقة عند خوضهم في باطلهم (٢).

وفي الحديث: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن

---

(١) التفسير ٣/٣٢٢.

(٢) تفسير الطبري ٥/٣٣٠.

يصيبكم مثل ما أصابهم»[(١)].

١٠) توليتهم أمرًا من أمور المسلمين كالإمارة والكتابة وغيرها و(التولية شقيقة الولاية لذلك فتوليتهم نوعًا من توليهم. وقد حكم الله أن من تولاهم فإنه منهم. ولا يتم الإيمان إلا بالبراءة منهم. والولاية تنافي البراءة فلا تجتمع البراءة والولاية أبدًا.

والولاية إعزاز فلا تجتمع هي وإذلال الكفر أبدًا. والولاية صلة فلا تجامع معاداة الكافر أبدًا. ولو علم ملوك الإسلام بخيانة النصارى الكتاب – مثلاً – ومكاتبتهم الفرنج أعداء الإسلام، وتمنيهم أن يستأصلوا الإسلام وأهله، وسعيهم في ذلك بجهد الإمكان: لثناهم ذلك عن تقريبهم وتقليدهم الأعمال. فهذا الملك (الصالح) كان في دولته نصراني يسمى: محاضر الدولة أبا الفضل بن دخان ولم يكن في المباشرين أمكن منه. كان قذى في عين الإسلام، وبثرة في وجه الدين. بلغ من أمره أنه وقع لرجل نصراني أسلم برده إلى دين النصرانية وخروجه من الملة الإسلامية، ولم يزل يكاتب الفرنج بأخبار المسلمين، وأعمالهم، وأمر الدولة وتفاصيل أحوالها.

وكان مجلسه معمورًا برسل الفرنج والنصارى وهم مكرمون لديه، وحوائجهم مقضية عنده، ويحمل لهم الأدرار والضيافات، وأكابر المسلمين محجوبون عن الباب لا يؤذن لهم، وإذا دخلوا لم ينصفوا في التحية ولا في الكلام. وحدث أن اجتمع في مجلس «الصالح» أكابر الناس من الكتاب والقضاة والعلماء فسأل السلطان بعض الجماعة عن أمر أفضى به إلى ذكر مخازي النصارى فبسط لسانه في ذلك وذكر بعض ما هم عليه من الأفعال والأخلاق. وقال من جملة كلامه: إن النصارى لا يعرفون الحساب، ولا يدرونه على الحقيقة لأنهم يجعلون الواحد ثلاثة والثلاثة واحدًا. والله تعالى يقول:

﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣].

وأول أمانتهم وعقد دينهم: «بسم الآب والابن وروح القدس إله واحد» فأخذ

---

(١) رواه أحمد ج٨/٨٠ ح٥٧٠٥ بتحقيق أحمد شاكر وصحيح البخاري كتاب المغازي ٨/ ١٢٥ ح٤٤١٩ وصحيح مسلم كتاب الزهد ٤/٢٢٨٥ ح٢٩٨٠.

هذا المعنى بعض الشعراء وقال في قصيدة له:

كـــيف يدري الحساب من جعل الوا ـحـــد رب الـــورى تعـــالى ثلاثـــة

ثم قال: كيف تأمن أن يفعل في معاملة السلطان كما فعل في أصل اعتقاده، ويكون مع هذا أكثر النصارى أمانة؟ وكلما استخرج ثلاثة دنانير دفع إلى السلطان دينارًا وأخذ لنفسه اثنين ولا سيما وهو يعتقد ذلك قربة وديانة؟

وانصرف القوم واتفق أن كبت النصراني بطنته، وظهرت خيانته فأريق دمه وسلط على وجوده عدمه[1].

١١) استئمانهم وقد خونهم الله: قال تعالى:

﴿۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [آل عمران: ٧٥].

١٢) الرضى بأعمالهم والتشبه بهم، والتزيي بزيهم[2].

١٣) البشاشة لهم والطلاقة وانشراح الصدر لهم وإكرامهم وتقريبهم[3].

١٤) معاونتهم على ظلمهم ونصرتهم ويضرب القرآن لذلك مثالين هما: امرأة لوط التي كانت ردءًا لقومها، حيث كانت على طريقتهم، راضية بأفعالهم القبيحة، نزل قومها على ضيوف لوط. وكذلك فعل امرأة نوح[4].

١٥) مناصحتهم والثناء عليهم ونشر فضائلهم[5] وهذه الصورة ظهرت واضحة في

(١) أحكام أهل الذمة لابن القيم ١/٢٤٢ - ٢٤٤ بتصرف بسيط.

(٢) مجموعة التوحيد ص١١٧.

(٣) مجموعة التوحيد ص١١٧.

(٤) تفسير ابن كثير ٦/٢١٠ وقد سبق الحديث عنهما.

(٥) مجموعة التوحيد ص١١٧ ورسائل سعد بن عتيق ص١٠١.

العصور الأخيرة فقد رأينا «أفراخ المستشرقين» – مثلاً – ينشرون فضائلهم وأنهم أصحاب المنهج العلمي السديد و... و... إلخ. كذلك جاء من ينشر «فضائل» الغرب أو الشرق مضفيًا عليها ألقاب التقدم والحضارة والرقي، وواصمًا الإسلام والمنتسبين إليه بالرجعية والجمود والتأخر عن مسايرة الركب الحضاري والأمم المتقدمة!!

١٦) تعظيمهم وإطلاق الألقاب عليهم مثل: السادة والحكماء ومبادأتهم بالسلام «ومما يجب النهي عنه ما يفعله كثير من الجهال في زماننا إذا لقي أحدهم عدوًا لله سلم عليه ووضع يده على صدره إشارة إلى أنه يحبه محبة ثابتة في قلبه. أو يشير بيده إلى رأسه إشارة إلى أن منزلته عنده على الرأس وهذا الفعل المحرم يخشى على فاعله أن يكون مرتدًا عن الإسلام لأن هذا من أبلغ الموالاة والموادة والتعظيم لأعداء الله»[1].

والتعظيم واللقب الرفيع رمز للعزة والتقدير وهما مقصورتان على المؤمن. أما الكافر فله الإهانة والذلة وقد ورد فى الحديث الصحيح النهي عن مبادأتهم بالسلام فقال ﷺ: «لا تبدءوا اليهود ولا النصارى بالسلام، فإذا لقيتم أحدهم فى طريق فاضطروه إلى أضيقه»[2] وسيأتي تفصيل هذه القضية فى الباب الثاني.

١٧) السكنى معهم فىديارهم وتكثير سوادهم[3] قال رسول الله ﷺ: «من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله»[4]. وقال: «لا تساكنوا المشركين ولا تجامعوهم فمن ساكنهم أو جامعهم فليس منا»[5]. وسوف يأتي – بمشيئة الله – في الباب الثاني تفصيل لهذه المسألة إذا كانت هناك ضرورة لهذه المساكنة.

---

(١) تحفة الإخوان للشيخ حمود التويجري ص١٩ الطبعة الأولى/ مؤسسة النور بالرياض.

(٢) صحيح مسلم كتاب السلام ١٧٠٧/٤ ح٢١٦٧.

(٣) الرسائل المفيدة للشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ ص٦٤.

(٤) أبو داود كتاب الجهاد ٢٢٤/٣ ح٢٧٨٧ قال الألباني: حديث حسن، انظر: صحيح الجامع الصغير ٢٧٩/٦ ح٦٠٦٢.

(٥) الحاكم في المستدرك ١٤١/٢ وقال: صحيح على شرط البخاري ووافقه الذهبي.

١٨) التآمر معهم، وتنفيذ مخططاتهم والدخول في أحلافهم وتنظيماتهم والتجسس من أجلهم، ونقل عورات المسلمين وأسرارهم إليهم والقتال في صفهم[١]. وهذه الصورة من أخطر ما ابتليت به أمتنا في هذا العصر. ذلك أن وجود ما يسمى في المصطلح الحديث (الطابور الخامس) قد أفسد أجيال الأمة في كل مجال سواء في التربية والتعليم أم في السياسة وشؤون الحكم أم في الأدب والأخلاق أم في الدين والدنيا معًا. وصدق الشاعر محمود أبو الوفا فيما نقله عنه استاذنا الفاضل الشيخ محمد قطب أنه قال حين خرج الاستعمار الإنجليزي من مصر: (خرج الإنجليز الحمر وبقي الإنجليز السمر!!) نعم إن داءنا هم الإنجليز السمر.

ترى من هو الساهر على تنفيذ خطة (دنلوب) في التربية والتعليم؟ ومن هو القائم بتنفيذ مخططات اليهود الثلاثة: فرويد وماركس ودوركايم في أفكارهم الخبيثة؟[٢]. إنهم المستغربون من أبناء هذه الأمة الذين حققوا لأعداء الله ما لا يحلمون به. ولكن هيهات لهم فإن الله يقول:

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣].

١٩) من هرب من دار الإسلام إلى دار الحرب بغضًا للمسلمين وحبًا للكافرين[٣].

٢٠) من انخرط في الأحزاب العلمانية أو الإلحادية كالشيوعية والاشتراكية والقومية والماسونية وبذل لها الولاء والحب والنصرة[٤].

---

(١) الإيمان حقيقته. أركانه. نواقضه للدكتور محمد نعيم ياسين ص١٤٧.
(٢) يراجع كتاب الأستاذ محمد قطب: التطور والثبات في حياة البشرية فصل: اليهود الثلاثة ص٣٥ وكتاب هل نحن مسلمون؟ ص١٣٣.
(٣) الردة بين الأمس واليوم ص٣٣.
(٤) المصدر السابق ص٤٠.

ما يقبل من الأعذار وما لا يقبل في هذه الصور

قد يعتذر بعض الموالين للكفار بأنهم يخافون على سلطانهم وأموالهم ومراكزهم وغير ذلك من المخاوف التي لا تصح، ولا يعتبرها الله، عذرًا لهم فيعذرهم من أجلها. لأنها جميعًا من تزيين الشيطان وتسويله، وحب الدنيا والطمع في زينتها.

والله ﷻ لم يقبل عذرًا لأحد في إظهار موالاته للكفار وطاعتهم وموافقتهم على دينهم إلا عذرًا واحدًا هو: الإكراه. قال تعالى:

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [النحل: ١٠٦، ١٠٧].

وقال سبحانه: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ﴾ [آل عمران: ٢٨].

والإكراه لا ينفع أحدًا فيما يتعلق بالرضى القلبي، والميل الباطني إلى الكفار لأنه غير مأذون فيه على أية حال لقوله تعالى: ﴿وقلبه مطمئن بالإيمان﴾ ولأن الإكراه لا سلطان له على القلوب. فإنه لا يعلم ما في القلب إلا الله.

فمن والى الكفار بقلبه ومال إليهم فهو كافر على كل حال. فإن أظهر موالاته بلسانه أو بفعله عومل في الدنيا بكفره وفي الآخرة يخلد في النار، وإن لم يظهرها بفعل ولا قول وعمل بالإسلام ظاهرًا عصم ماله ودمه وهو منافق في الدرك الأسفل من النار[١].

موقف المسلم تجاه هذه الصور

الولاء والبراء هو الصورة الفعلية للتطبيق الواقعي لهذه العقيدة وهو مفهوم ضخم في

(١) انظر الإيمان للدكتور محمد نعيم ياسين ص ١٤٧، ١٤٨.

حس المسلم بمقدار ضخامة وعظمة هذه العقيدة. والله ﷻ يقول: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة: ٢٥٦].

والله ﷻ أراد للمسلم – بل للإنسان – الكرامة في هذه الأرض ﴿۞ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠].

فحين يكون ولاء المسلم لله ولدينه وحزبه المؤمنين فهو بهذا يقدّر هذا التكريم حق قدره، ويعبد الله حق عبادته، لأنه تخلى بل وعادى كل عبودية تريد إخضاعه لسلطانها من دون الله.

أما حين ينتكس فيعبد غير الله – سواء بالشعائر أم بالشرائع أم بالطاعة والانقياد – فإنه بهذا يهبط من تلك المكانة والكرامة إلى عبودية أهواء شتى، وآراء ومذاهب تمزق عليه حياته وتضيع عليه آخرته، فيعيش شقيًا – وإن زعم أنه سعيد – ذلك أن مقياس السعادة والشقاوة، في التصور الإسلامي نابع من عبادة الله وحده وتحكيم شرعه والخلوص له. أو عكس ذلك: عبادة الطاغوت والهوى والشهوة وتلك هي دركات الشقاء التي يعيش فيها كل من أعرض عن هدي الله ودينه.

وموالاة غير المؤمنين – فضلاً عن أنها ردة وعصيان لله سبحانه – هي مصدر التذبذب والفصام النكد في حياة فاعلها، لأنه لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. وفي هذا العصر الذي اختلطت فيه المفاهيم، واضطربت فيه الآراء، وخلط الحق بالباطل بل أقصي الحق ورفعت شارة الباطل: أين يقف المسلم؟ أين يكون ولاؤه ولمن يكون وهو يرى الكفر الصريح معلنًا ومنفذًا في حياة الناس ثم يوضع لذلك «لافتة بسيطة» إن هذا لا يتعارض مع الإسلام؟ ومثال ذلك من يدين بالاشتراكية أو الديمقراطية أو العلمانية أو القومية أو الشيوعية ثم يقال: هذا لا يعارض الإسلام لأنه علاقة بين العبد وربه. لمن يكون ولاء المسلم وهو يرى شرع الله مبعدًا في الأرض ومحاربًا، ثم يستورد القانون البشري ليكون هو دستور الناس في حياتهم ومنهج مسيرتهم ويقال: إن هذا لا

يعارض الإسلام لأن التشريع الإسلامي – سواء قيلت بلسان الحال أو المقال – لم يعد مسايرًا لركب الحضارة والتطور؟!

لمن يكون ولاء المسلم وهو يرى المنافقين يتمسحون باسم الإسلام وهم في الحقيقة أخطر على الدين من أعدائه الصرحاء؟

هذه أسئلة وأسئلة غيرها كثيرة... والإجابة عليها تكمن في الحقيقة التالية: أنه لا يمكن للمسلم أن يكون ولاؤه لله ولدينه وللمؤمنين خالصًا إلا إذا كان مدركًا لحقيقة التوحيد «لا إله إلا الله محمد رسول الله» ممتثلاً لها، مدركًا مدلولها ومعناها عارفًا بمقتضياتها ولوازمها.

ثم علمه بالجاهلية والشرك والكفر والردة والنفاق حتى لا يكون مصيدة للوقوع في هذا الشر. لأنه لا يعرف الإسلام من لا يعرف الجاهلية.

ثم علمه بحقيقة الولاء والبراء في المفهوم الإسلامي الصحيح وهو: أن الولاء والحب والنصرة للمؤمنين من أي جنس كانوا وبأي لغة نطقوا وفي أي مكان حلوا، لأنه لا يؤمن بما تؤمن به الجاهليات من لوثة الدم ونتن العرق وخسة التراب.

فهو مع إخوانه المؤمنين بقلبه ولسانه وماله ودمه، يألم لألمهم ويفرح لفرحهم وبغضه وبراؤه لجميع أعداء الله سواء كانوا كفارًا أصليين أم مرتدين أم منافقين وموقفه منهم: الجهاد بالنفس والمال والقلم واللسان وكل ما أوتي من طاقة وعلى حسب جهده وطاقته.

إن هذه الحقيقة هي التي – إذا أدركها المسلم وعمل بها يستطيع بها أن يحدد موقفه من كل صورة من الصور السابقة وغيرها، فيعرف من يوالي ومن يعادي، وماذا يريد الإسلام منه وماذا يراد للإسلام من أعدائه.

وهو بهذا يكون مسلمًا واعيًا عزيزًا بعزة الله غير واهن ولا حزين لأن الله معه وهو

القائل: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩] [1].

ومن كان الله معه فلن تضيره أن تجتمع البشرية بكاملها لأن تضره فهي بمجموعها لا تستطيع ذلك إلا إذا كان الله يريد له ذلك وإلا فهي أعجز من أن تنال منه شيئًا بسيطًا بغير قدر الله وإرادته.



(١) حبذا مراجعة كتاب «هل نحن مسلمون» ص٤٧.

الفصل الثامن

الرد على الخوارج والرافضة في عقيدة الولاء والبراء

قد يقول بعض من لا يدرك حقيقة العقيدة، ولا يعي مفاهيم «لا إله إلا الله»: إن مصطلح الولاء والبراء من مصطلحات الخوارج والشيعة فكيف يدرج في معتقد السلف الذين هم أهل السنة والجماعة؟

والجواب على هذا الاعتراض: من عدة وجوه:

١) نحن مطالبون بما ورد في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فهما عقيدتنا وشريعتنا ونظام حياتنا، وأحسب أني قد ذكرت عددًا كبيرًا جدًّا من عشرات – بل مئات – الآيات في الولاء والبراء وعشرات الأحاديث النبوية الصحيحة في هذه القضية.

٢) من منطلق عقيدة سلفنا الصالح نقول: لسنا مستعدين للتنازل عن أي أمر من أمور ديننا الصغيرة – فضلاً عن أمور العقيدة الكبرى لأجل أن ناعقًا أخذ بعض مصطلحاتنا وبنى عليها مفاهيمه البدعية المنكرة.

٣) هل يستطيع مسلم يؤمن بكتاب الله وسنة رسوله أن يقول إن إبراهيم عليه السلام – وهو القدوة الأولى في الولاء والبراء – كما ذكرنا – استخدم مصطلحات الخوارج والرافضة الذين جاءوا بعده بآلاف السنين؟ سبحانك هذا بهتان عظيم.

٤) إن قضية الولاء والبراء كمبدأ عقدي: مبدأ صحيح لا غبار عليه ورد به كتاب الله وسنة نبي الله ولكن الخطأ كل الخطأ والبدعة كل البدعة هو ما بني عليه هؤلاء السفهاء – من خوارج – ورافضة – من مفاهيم سقيمة خرجوا بها عن النصوص الصريحة وإجماع الأمة المحمدية. وصدق القائل:

وما ضر الورود وما حوته إذا المزكوم لم يطعم شذاها

معتقد الخوارج في هذه القضية

أما الخوارج فهم الذين قال فيهم إمام أهل السنة الإمام أحمد بن حنبل ﷺ: (هم الذين مرقوا من الدين. وفارقوا الملة، وشردوا عن الإسلام، وشذوا عن الجماعة فضلوا السبيل والهدي، وخرجوا عن السلطان، وسلوا السيف على الأمة، واستحلوا دماءهم وأموالهم وعادوا من خالفهم إلا من قال بقولهم. وكان على مثل قولهم ورأيهم، وثبت معهم في بيت ضلالتهم، وهم يشتمون أصحاب محمد ﷺ وأصهاره وأختانه، ويتبرءون منهم، ويرمونهم بالكفر والعظائم، ويرون خلافهم في شرائع الإسلام.. يقولون من كذب كذبة، أو أتى صغيرة أو كبيرة من الذنوب فمات من غير توبة: فهو في النار خالدًا مخلدًا أبدًا.. وهم قدرية جهمية مرجئة رافضة، لا يرون الجماعة إلا خلف إمامهم.. ولا يرون للسلطان عليهم طاعة، ولا لقريش عليهم خلافة. وأشياء كثيرة يخالفون عليها الإسلام وأهله. وكفى بقوم ضلالة: أن يكون هذا رأيهم ومذهبهم ودينهم وليسوا من الإسلام في شيء. ومن أسمائهم الحرورية وهم أصحاب حروراء[1] والأزارقة: وهم أصحاب نافع بن الأزرق.. والنجدية: وهم أصحاب نجدة ابن عامر الحروري.. والإباضية.. والصفرية وغيرهم.. كل هؤلاء خوارج، فساق مخالفون للسنة، خارجون من الملة، أهل بدعة وضلالة[2]. وفرقة الخوارج قد انحرفت في مفهوم الولاء والبراء فهي لا تتولى إلا من يدين بنحلتها القائمة على تكفير مرتكب الذنوب وخاصة الكبائر. وموقفهم من صحابة رسول الله ﷺ أنهم يتولون أبا بكر وعمر ويتبرءون من عثمان وعلي[3].

وخلاصة القول في الرد عليهم: أن أهل السنة والجماعة يتبرءون منهم بسبب بدعتهم الضالة. ولا يتولونهم في شيء.

---

(١) قرية بالكوفة كانت بها وقعة على الخوارج بقيادة نجدة بن عامر. انظر هامش السنة للإمام أحمد ص٨٤ وكتب الفرق.

(٢) كتاب السنة للإمام أحمد ص٨٣ – ٨٥ تصحيح إسماعيل الأنصاري (بتصرف بسيط).

(٣) التنبيه والرد للملطي ص٥٣.

أما الولاء والبراء بمفهومه الصحيح فهو ما عليه أهل السنة والجماعة، ولا يضيرهم أن الخوارج قالوا بقضية الولاء والبراء. لأن العبرة ليست في العناوين والشعارات بل في المفاهيم والتصورات التي توافق الكتاب والسنّة أو تناقضها ومن هنا فإن ولاء الخوارج وبراءهم الذي يعتقدونه: إنما هو بحسب أهوائهم وليس متفقًا مع نصوص الكتاب والسنة.

معتقد الرافضة في الولاء والبراء

وأما الرافضة: فهم الذين يتبرءون من أصحاب محمد ﷺ ويسبوهم وينتقصوهم، ويكفرون الأئمة الأربعة: عليّ، وعمار، والمقداد، وسلمان[1].

وقال الأشعري: إنما سموا رافضة لرفضهم إمامة أبي بكر وعمر[2].

ولئن كان الخوارج قد انحرفوا في الأمور التي ذكرناها آنفًا عنهم: فإن الرافضة أيضًا لا يقلون جرمًا عنهم حيث وقفوا من أصحاب رسول الله ﷺ موقفًا مشينًا، ولعبت بهم الأيدي اليهودية الممثلة في شخصية عبد الله بن سبأ التي أخذت تنصب خيالات من الحب الكاذب لآل البيت وتتبرأ من بقية أصحاب رسول الله ﷺ وتعاديهم مع أن آل البيت براء مما ألصقه بهم هؤلاء الرافضة.

قال ابن كثير: إن الطائفة المخذولة – الرافضة – يعادون أفضل الصحابة ويبغضونهم ويسبونهم عياذًا بالله من ذلك. وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة، وقلوبهم منكوسة فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن، إذ يسبون من رضي الله عنهم[3]؟ أما أهل السنة فإنهم يترضون عمن رضي الله عنه، ويسبون من سبه الله ورسوله، ويوالون

---

(١) السنة للإمام أحمد ص٨٢.

(٢) مقالات الإسلاميين ١/٨٩.

(٣) يشير إلى قوله تعالى: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ [التوبة: ١٠٠].

من يوالي الله ويعادون من يعادي الله. وهم متبعون لا مبتدعون[١].

والرافضة تقول: لا ولاء إلا ببراء: أي لا يتولى أهل البيت حتى يتبرأ من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما![٢].

ترى أي ثقة أو أمانة أو دين تبقى في أناس يطعنون في أفضل شخصيتين إسلاميتين في الأمة بعد رسول الله ﷺ؟

ولكن لا غرابة في ذلك من زمرة قضاؤها في الكتب مسطور فقد كانت الرافضة على طول تاريخها حربًا على أهل الإسلام، يوالون أعداء المسلمين من تتار وصليبيين وغيرهم. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الرافضة توالي من حارب أهل السنة والجماعة، فهم يوالون التتار ويوالون النصارى. وقد كان بالساحل بين الرافضة وبين الفرنج مهادنة، حتى صارت الرافضة تحمل إلى قبرص خيل المسلمين وسلاحهم، وغلمان السلطان، وغيرهم من الجند والصبيان. وإذا انتصر المسلمون على التتار أقاموا المآتم والحزن، وإذا انتصر التتار على المسلمين أقاموا الفرح والسرور. وهم الذين أشاروا على التتار بقتل الخليفة، وقتل أهل بغداد.

ووزير بغداد ابن العلقمي الرافضي هو الذي خامر على المسلمين وكاتب التتار، حتى أدخلهم أرض العراق بالمكر والخديعة، ونهى الناس عن قتالهم.

وقد عرف العارفون بالإسلام: أن الرافضة تميل مع أعداء الدين، ولما كانوا ملوك القاهرة كان وزيرهم مرة يهوديًا، ومرة نصرانيًا أرمينيًا، وقويت النصارى بسبب ذلك النصراني الأرميني، وبنوا كنائس كثيرة بأرض مصر في دولة أولئك الرافضة المنافقين وكانوا ينادون بين القصرين: من لعن وسب فله دينار وإردب.

وفي أيامهم أخذت النصارى ساحل الشام من المسلمين حتى فتحه نور الدين

---

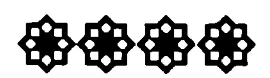
(١) التفسير ذ/١٤٢.

(٢) شرح الطحاوية ص ٥٣٢.

وصلاح الدين[١].

وأحفادهم في الوقت الحاضر النصيرية الكافرة التي ابتلي بها المسلمون، ذلك أن كفرها أشد من كفر اليهود والنصارى كما قرر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره. وهم الذين كانوا أداة طيعة للاستعمار الفرنسي في غزوه لبلاد الشام. ويشنون اليوم حربًا شرسة على المسلمين في ديارهم وبعد: فإن أهل السنة والجماعة هم الذين يحبون أصحاب رسول الله ﷺ، ولا يفرطون في حب أحد منهم، ويتولوهم جميعًا ولا يتبرءون من أحد منهم، ويبغضون من يبغضهم ويرون أن حبهم دين وإيمان وإحسان وبغضهم كفر ونفاق وطغيان[٢].

وهم براء من الخوارج والرافضة ومن كل الفرق الضالة.



(١) الفتاوى ج٢٨/٦٣٦، ٦٣٧.

(٢) انظر: الطحاوية مع شرحها ص٥٢٨ وقد اطلعت – بعد كتابة هذا الكتاب – على كتاب قيم يكشف أستار الشيعة ويفضحهم في عصرنا الحاضر وخصوصًا زعيمهم «الخميني» ذلك الكتاب هو «وجاء دور المجوس» لمؤلفه الدكتور عبد الله محمد الغريب وهو كتاب قيم في موضوعه فليراجعه من شاء ليستبين زيف باطلهم وخططهم ضد أهل السنة والجماعة.

الباب الثاني

من مقتضيات الولاء والبراء

سبق القول في أول البحث: أن الولاء أصله الحب، والبراء أصله: البغض، وينشأ عنهما من أعمال الجوارح ما يؤيد صدق ذلك الحب أو يكذبه وما يؤكد ذلك البراء أو ما يبطل زعمه.

والحب عنصر أصيل في التصور الإسلامي دليل ذلك قول المولى جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ۝٩٦﴾ [مريم: ٩٦].

وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ۝٩٠﴾ [هود: ٩٠].

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ۝١٤﴾ [البروج: ١٤].

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقوله: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

ذلك أن نصاعة التصور الإسلامي في الفصل بين حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية لا تجفف ذلك النداء الحبيب بين الله وعباده، فهي علاقة الرحمة والعدل والود وليست كما يدعي أعداء الله: أن العلاقة بين العبد وربه علاقة جافة وعنيفة، علاقة قهر وقسر، وعذاب وعقاب، وجفوة وانقطاع!

﴿كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا ۝٥﴾ [الكهف: ٥].

وحب الله لعبد من عبيده أمر لا يقدر على إدراك قيمته إلا من عرف الله سبحانه بصفاته كما وصف نفسه وكما وصفه رسوله، وإلا من وجد إيقاع هذه الصفات في حسه ونفسه وشعوره.

وحب العبد لربه نعمة لهذا العبد لا يدركها كذلك إلا من ذاقها. وإذا كان حب الله لعبد من عبيده أمرًا هائلاً عظيمًا، وفضلاً غامرًا جزيلاً، فإن إنعام الله على العبد بهدايته لحبه، وتعريفه هذا المذاق الجميل هو إنعام هائل عظيم[١].

ومن نعمة الله على عباده المؤمنين أن جعل المحبة فيه هي الوشيجة العظمى بينهم، وهي المورد العذب الذي ينهلون منه جميعًا، ثم جعل سبحانه وجود المحبة للقوم ولما يلحق بهم المحب سبيلاً للحاق بهم يؤيد ذلك قوله ﷺ: «المرء مع من أحب»[٢]. وقال عبد الله بن مسعود ﷺ: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! كيف تقول في رجل أحب قومًا ولم يلحق بهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحب»[٣].

وعن أنس أن رجلاً سأل النبي ﷺ متى الساعة يا رسول الله؟ قال: ما أعددت لها؟ قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة ولكني أحب الله ورسوله قال: «أنت مع من أحببت»[٤].

على أنه من الواجب ذكره هنا: أن هذا الحب ليس مجرد أماني أو أحلام تناقضها الأفعال القبيحة. أو «هرطقة» رقعاء الصوفية أو.. أو.. إلخ وإنما هو حب بالقلب وعمل بالجوارح قال الله تعالى:

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ [النساء: ١٢٣].

---

(١) بتصرف: الظلال ٩١٨/٢، ٩١٩.

(٢) صحيح البخاري كتاب الأدب باب علامة الحب في الله ٥٥٧/١٠ ح٦١٦٨.

(٣) صحيح البخاري كتاب الأدب باب علامة الحب في الله ٥٥٧/١٠ ح٦١٦٩ وصحيح مسلم كتاب البر ٢٠٣٤/٤ ح٢٦٤٠.

(٤) صحيح البخاري كتاب الأدب باب علامة الحب في الله ٥٥٧/١٠ ح٦١٧١ وصحيح مسلم كتاب البر ٢٠٣٢/٤ ح٢٦٣٩.

وقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣١﴾ [آل عمران: ٣١].

قال الحسن: لا تغتر بقولك: المرء مع من أحب إن من أحب قومًا اتبع آثارهم، ولن تلحق الأبرار حتى تتبع آثارهم، وتأخذ بهديهم، وتقتدي بسنتهم، وتمسي وتصبح وأنت على منهاجهم، حريصًا أن تكون منهم، وتسلك سبيلهم وتأخذ طريقهم وإن كنت مقصرًا في العمل فإن ملاك الأمر أن تكون على استقامة، أما رأيت اليهود والنصارى وأهل الأهواء الردية يحبون أنبياءهم وليسوا معهم لأنهم خالفوهم في القول والعمل، وسلكوا غير طريقتهم فصار موردهم النار؟[1].

والمحبة تنقسم إلى أربعة أقسام[2]:

١) **محبة شركية**: وأصحابها هم الذين قال الله فيهم:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ۝١٦٥ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ۝١٦٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ۝١٦٧﴾ [البقرة: ١٦٥-١٦٧].

٢) **حب الباطل وأهله، وبغض الحق وأهله**: وهذه صفة المنافقين.

٣) **محبة طبيعية**: وهي محبة المال والولد إذا لم تشغل عن طاعة الله ولا تعين على محارم الله فهي مباحة.

٤) **حب أهل التوحيد وبغض أهل الشرك**: وهي أوثق عرى الإيمان، وأعظم ما يعبد

---

(١) الحكم الجديرة بالإذاعة من قول النبي: «بعثت بالسيف بين يدي الساعة» لابن رجب ص١٣٣ تحقيق محمد حامد الفقي.

(٢) ذكر ذلك الإمام محمد بن عبد الوهاب بمجموعة التوحيد ص١٧ ط دار الفكر.

به العبد ربه.

وما دامت المحبة في الله هي أوثق عرى الإيمان كما ورد في الحديث أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله[1] فإن الطريق الموصل إليها وإلى موالاة الله ﷻ هو: اتباع شرعه الذي جاء به محمد ﷺ، وبغير هذا الطريق تكون دعوى الولاية كاذبة كما كان المشركون يتقربون إلى الله تعالى بعبادة من يعبدونه من دونه كما قال الله عنهم:

﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

وكما حكي عن اليهود والنصارى أنهم قالوا:

﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ﴾ [المائدة: ١٨].

مع إصرارهم على تكذيب رسله وارتكاب مناهيه وترك فرائضه[2].

ومتى امتلأ القلب بعظمة الله تعالى محا ذلك من القلب كل ما سواه، و لم يبق للعبد شيء من نفسه وهواه وإرادته إلا لما يريده منه مولاه، فإذا تحقق القلب بالتوحيد التام لم يبق فيه محبة لغير الله، ولا كراهة لغير ما يكره الله، ومن كان كذلك لم تنبعث جوارحه إلا بطاعة الله، وإنما تنشأ الذنوب من محبة ما يكرهه الله، أو كراهة ما يحبه الله وذلك ينشأ من تقديم هوى النفس على محبة الله وخشيته[3].

ويصور شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عظمة محبة الله ولذتها فيقول: «إن في الدنيا جنة من يدخلها لم يدخل جنة الآخرة». وقال بعضهم: مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها، وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله، والأنس به، والشوق إلى لقائه، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه[4].

---

(١) سبق تخريجه في التمهيد.

(٢) انظر جامع العلوم والحكم لابن رجب ص٣١٦.

(٣) انظر جامع العلوم والحكم ص٣٢٠.

(٤) مدارج السالكين ١/٤٥٤.

أما البغض في الله فهو أمر ملازم للحب في الله لا ينفصل عنه، لأن المحب يحب ما يحب محبوبه، ويبغض ما يبغض محبوبه، ويوالي من يوالي محبوبه، ويعادي من يعاديه، ويرضى لرضاه، ويغضب لغضبه، ويأمر بما يأمر به، وينهى عمّا نهى عنه فهو موافق له في ذلك.

ومعلوم أن من أحب الله المحبة الواجبة فلابد أن يبغض أعداءه، ولابد أن يحب ما يحبه من جهادهم كما قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾ [الصف: ٤] [1].

وقد وصف المولى ﷻ عباده الذين يحبهم ويحبونه فقال:

﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

أي أنهم يعاملون المؤمنين بالذلة واللين وخفض الجناح، ويعاملون الكافرين بالعزة والشدة عليهم، والغلظة لهم. فهم يحبون من أحبه الله فيعاملونه بالمحبة والرأفة واللين، ويبغضون أعداء الله الذين يعادونه فيعاملونهم بالشدة والغلظة كما قال تعالى:

﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

﴿يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤] [2].

وأعداء الله لهم البغض ولهم من المؤمنين الجهاد:

﴿قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٤].

ومن هنا فإن من مقتضيات الولاء والبراء: حق المسلم على المسلم. فما هو ذلك الحق؟

---

(١) انظر التحفة العراقية ٦٤، ٦٥.

(٢) انظر جامع العلوم والحكم ص٣١٧.

الفصل الأول

حق المسلم على المسلم

قلنا: إن المحبة في الله هي الوشيجة العظمى التي التقى عليها المؤمنون، ويلتقون عليها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. على هذه الوشيجة تنبني حقوق المسلم على المسلم، وهي كثيرة جدًّا: النصرة، والمودة، والزيارة، والإكرام، والسلام، وحماية العرض، والمواساة وغير ذلك مما هو منصوص عليه في الكتاب والسنة.

ولكن الحقوق التي أتحدث عنها هي ما يتعلق بموضوع البحث. ومن هذه الحقوق:

١) **المودة**: وهذه للمؤمنين من بعضهم لبعض، فليس للكافر ولا للفاسق ولا للمبتدع فيها نصيب، ومن هذه المودة حب المسلم لأخيه المسلم ما يحب لنفسه كما قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» متفق عليه[(١)].

٢) **النصرة**: وهذه واجب أخوي إيماني على كل مسلم لأخيه المسلم من أي جنس كان وفي أي أرض حل، وبأي لون كان، ينصره بنفسه وبماله وبالذب عن عرضه ولذلك ورد التهديد لمن يترك ذلك وهو قادر عليه. قال ﷺ: «ما من امرئ يخذل امرءًا مسلمًا في موضع تنتهك فيه حرمته وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته. وما من امرئ ينصر مسلمًا في موضع ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله في موطن يحب نصرته»[(٢)].

وقد امتدح ﷻ الأنصار رضوان الله عليهم فى نصرتهم لإخوانهم المهاجرين

---

(١) صحيح البخاري كتاب الإيمان ١/٥٧ ح١٣ وصحيح مسلم كتاب الإيمان ١/٦٧ ح٤٥.

(٢) أبو داود في كتاب الأدب ٥/١٩٧ ح٤٨٨٤ والمسند ٤/٣٠ قال الألباني: حديث حسن. انظر صحيح الجامع الصغير ٥/١٦٠ ح٥٥٦٦.

فقال سبحانه:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾ [الأنفال: ٧٤].

ومن الأوامر النبوية فى شأن النصرة قوله ﷺ: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا»[١]. ونصرته إذا كان مظلومًا ظاهرة أما نصرته إذا كان ظالمًا فبردعه عن الظلم ومنعه عنه. وقال ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يسلمه، من كان فى حاجة أخيه كان الله ﷻ فى حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة. ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة» متفق عليه[٢].

والمسلم داخل المجتمع الإسلامي ما هو إلا عضو عامل كأي عضو من أعضاء الجسد فإذا حصل لهذا العضو مرض أو اختل عمله تأثر لذلك بقية الجسد، ويصور ذلك المصطفى ﷺ فى قوله الكريم: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»[٣]. وقوله: «ترى المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[٤] وقال أيضًا: «المؤمن مرآة أخيه، والمؤمن أخو المؤمن يكف عليه ضيعته، ويحوطه من ورائه»[٥].

ولو أردنا تتبع كل النصوص فى هذا الشأن لطال الحديث أكثر من هذا.

وسيرة المصطفى ﷺ وأصحابه وخير القرون بعده والذين سلكوا سبيله واهتدوا بهديه على مدار التاريخ الإسلامي: تؤكد هذه الحقيقة الهامة.

---

(١) صحيح البخاري كتاب المظالم ٩٨/٥ ح٢٤٤٣.

(٢) صحيح البخاري كتاب المظالم ج٥/٩٧ ح٢٤٤٢ ومسلم كتاب البر والصلة ١٩٩٦/٤ ح٢٥٨٠.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سبق تخريجه.

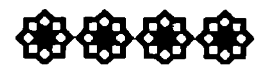
(٥) الأدب المفرد للبخاري ص٧٠ وأبي داود في كتاب الأدب ٢١٧/٥ ح٤٩١٨ والحديث حسن. انظر: صحيح الجامع الصغير ٦/٦ ح٦٥٣٢.

ولقد كان التحام المسلمين ونصرة كل منهم لأخيه مثالاً فريدًا فى تاريخ التلاحم والتواصل والتناصر سواء على مستوى الأمة أم الأفراد. حيث حققوا الموالاة والمعاداة على أوضح صورهما.

ولن ينتصر المسلمون إلا إذا تحقق فيهم – بعد صفاء العقيدة ووضوحها – حب المسلم لأخيه كحبه لنفسه، وشعوره بآلام أخيه كشعوره بما يصيبه هو، وحب نصرته كما يحب أن ينصره هو، والله ينصر من ينصره إن الله لقوي عزيز.

وتتحقق النصرة بعدة أمور منها: الدفاع بالنفس عن الأخ المسلم وكسر شوكة الظالمين وبذل المال له لإعزازه وتقوية جانبه، والذب عن عرضه وسمعته والرد على أهل الباطل الذين يريدون خدش كرامة المسلمين. والدعاء للمسلم بظاهر الغيب بالنصر والتوفيق وتسديد الخطى وتتبع أخبار المسلمين فى أنحاء المعمورة والوقوف على أحوالهم ودعمهم بقدر الاستطاعة.

كل هذه الأمور تحقق للإنسان ولاءه لإخوانه المسلمين وتجعله عضوًا عاملاً صالحًا فى جسم الكيان الإسلامي.



الفصل الثاني

الهجرة

هذا الفصل له أهمية خاصة، ذلك أن الهجرة مرتبطة بالولاء والبراء، بل هي من أهم تكاليفهما. والحديث فيها متشعب لذلك سأقسمه إلى الفقرات التالية:

(أ) الإقامة فى دار الكفر وحكم ذلك.

(ب) الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام.

(أ) الإقامة فى دار الكفر

لابد لنا أولاً أن نعرف دار الكفر ودار الإسلام. فقد قال أهل العلم رحمهم الله:

إن دار الكفر: هي التي يحكمها الكفار، وتجري فيها أحكام الكفر، ويكون النفوذ فيها للكفار وهي على نوعين:

١) بلاد كفار حربيين.

٢) بلاد كفار مهادنين بينهم وبين المسلمين صلح وهدنة.

فتصير إذا كانت الأحكام للكفار: دار كفر، ولو كان بها كثير من المسلمين[(١)].

ودار الإسلام: هي التي يحكمها المسلمون، وتجري فيها الأحكام الإسلامية ويكون النفوذ فيها للمسلمين ولو كان جمهور أهلها كفاراً[(٢)].

ولما كان الإسلام هو دين العزة ودين القوة: فإنه قد أبى على معتنقيه أن يستذلوا

---

(١) الفتاوى السعدية للشيخ عبد الرحمن بن سعدي ٩٢/١ ط الأولى سنة ١٣٨٨هـ دار الحياة بدمشق.

(٢) المصدر السابق ٩٢/١.

للكفار، ولذلك جاء المنع من الإقامة بين ظهراني غير المسلمين، لأن إقامته بينهم تشعره بالوحدة والضعف وتربي فيه روح الاستخذاء والاستكانة، وقد تدعوه إلى المحاسنة ثم المتابعة. والإسلام يريد للمسلم أن يمتلئ قوة وعزّة وأن يكون متبوعًا لا تابعًا، وأن يكون ذا سلطان ليس فوقه إلا سلطان الله لذلك حرم الإسلام على المسلم أن يقيم في بلد لا سلطان للإسلام فيه إلا إذا استطاع أن يظهر إسلامه ويعمل طبقًا لعقيدته دون أن يخشى الفتنة على نفسه، وإلا فعليه أن يهجر هذا البلد إلى بلد يعلو فيه سلطان الإسلام فإن لم يفعل فالإسلام بريء منه ما دام قادرًا على الهجرة. وفي ذلك كله يقول المولى سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء: ٩٧-٩٩].

وقال ﷺ: «أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين» قيل: يا رسول الله و لم؟ قال: «لا تراءى ناراهما»(١) وقال: «من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله»(٢) ويقول: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها»(٣)(٤).

وقال الحسن بن صالح: من أقام في أرض العدو – وإن انتحل الإسلام وهو يقدر على التحويل إلى المسلمين فأحكامه أحكام المشركين، وإذا أسلم الحربي فأقام ببلادهم وهو يقدر على الخروج فليس بمسلم، يحكم فيه بما يحكم على أهل الحرب

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) المسند ٤/٩٩ وأبي داود كتاب الجهاد ٣/٧ ح٢٤٧٩ والدارمي كتاب السير ٢/٢٣٩ وقال الألباني: صحيح. انظر: صحيح الجامع الصغير ٦/١٨٦ ح٧٣٤٦.

(٤) انظر: الإسلام وأوضاعنا القانونية للأستاذ عبد القادر عودة ص٨١.

في ماله ونفسه[١].

وقال الحسن: إذا لحق الرجل بدار الحرب و لم يرتد عن الإسلام فهو مرتد بتركه دار الإسلام[٢].

وقال ابن حزم: من لحق بدار الكفر والحرب مختارًا محاربًا لمن يليه من المسلمين: فهو بهذا الفعل مرتد له أحكام المرتد كلها: من وجوب القتل عليه متى قدر عليه، ومن إباحة ماله وانفساخ نكاحه وغير ذلك.

وأما من فر إلى أرض الحرب لظلم خافه، و لم يحارب المسلمين، ولا أعان عليهم، و لم يجد في المسلمين من يجيره، فهذا لا شيء عليه، لأنه مضطر مكره.

أما من كان محاربًا للمسلمين معينًا للكفار بخدمة أو كتابة فهو كافر.

وإن كان إنما يقيم هنالك لدنيا يصيبها وهو كالذمي لهم، وهو قادر على اللحاق بجمهرة المسلمين وأرضهم فما يبعد عن الكفر، وما نرى له عذرًا، ونسأل الله العافية.

وأما من سكن في أرض القرامطة مختارًا فكافر بلا شك لأنهم معلنون بالكفر وترك الإسلام. وأما من سكن في بلد تظهر فيه بعض الأهواء المخرجة إلى الكفر فهو ليس بكافر لأن اسم الإسلام هو الظاهر هنالك على كل حال من التوحيد والإقرار برسالة محمد ﷺ والبراءة من كل دين غير الإسلام وإقامة الصلاة وصيام رمضان وسائر الشرائع التي هي الإسلام والإيمان.

وقول رسول الله ﷺ : «أنا بريء من كل مسلم أقام بين أظهر المشركين» يبين ما قلناه، وأنه عليه السلام، إنما عني بذلك دار الحرب، وإلا فقد استعمل عليه السلام عماله على خيبر وهم كلهم يهود.

---

(١) أحكام القرآن للجصاص ٣/٢١١.

(٢) أحكام القرآن للجصاص ٣/٢١١.

ولو أن كافرًا مجاهدًا[(١)] غلب على دار من دور الإسلام، وأقر المسلمين بها على حالهم إلا أنه هو المالك لها، المنفرد بنفسه في ضبطها وهو معلن بدين غير الإسلام: لكفر بالبقاء معه كل من عاونه وأقام معه وإن ادعى أنه مسلم – لما ذكرنا»[(٢)].

وللشيخ حمد بن عتيق[(٣)] رحمه الله رسالة قيمة حول هذا الموضوع[(٤)] **فقد قسم المقيمين في بلاد الحرب إلى ثلاثة أقسام:**

أحدها: أن يقيم عندهم رغبة واختيارًا لصحبتهم، فيرضى ما هم عليه من الدين أو يمدحه، أو يرضيهم بعيب المسلمين، أو يعاونهم على المسلمين بنفسه أو ماله أو لسانه: فهذا كافر عدو لله ولرسوله لقوله تعالى:

﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ [آل عمران: ٢٨].

قال ابن جرير: قد برئ من الله وبرئ الله منه لارتداده عن دينه ودخوله في الكفر. وقال تعالى:

---

(١) هكذا بالأصل والذي يظهر لي أن الصواب مجاهرًا لأن الكافر لا يسمى مجاهدًا.

(٢) المحلى لابن حزم ١٣/١٣٩، ١٤٠.

(٣) هو الشيخ المحقق حمد بن علي بن محمد بن عتيق ولد سنة ١٢٢٧هـ بالزلفى وحفظ القرآن وكانت له همة وعلو نفس سمت به إلى معالي الأمور. تتلمذ على الشيخ عبد الرحمن ابن حسن آل الشيخ صاحب كتاب فتح المجيد ولازمه. ولازم أيضًا غيره من العلماء. وجد واجتهد حتى صار من كبار العلماء. عين قاضيًا في الخرج ثم الإفلاج ومن مؤلفاته: إبطال التنديد شرح كتاب التوحيد. والنجاة والفكاك والدفاع عن أهل السنة والاتباع. والفرق المبين بين السلف وابن سبعين. وغير ذلك وتوفي سنة ١٣٠١هـ عن عمر يناهز السبعين ورثاه تلميذه سليمان بن سحمان بقصيدة منها:

يعز علينا أن نرى اليوم مثله ... لحل عويص المشكلات البوادر

انظر ترجمته في كتاب علماء نجد خلال ستة قرون للبسام ١/٢٢٩.

(٤) اسمها: الدفاع عن أهل السنة والاتباع: نشرها حفيده إسماعيل بن سعد بن عتيق بدون تاريخ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

وقال ﷺ: «من جامع المشرك وسكن معه فهو مثله»[١].

وصح عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: من بنى بأرض المشركين فصنع نيروزهم ومهرجانهم وتشبه بهم حتى يموت وهو كذلك حشر معهم يوم القيامة[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وظاهر هذا أنه جعله كافرًا بمشاركتهم في مجموع هذه الأمور.

وقال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: لما ذكر الأنواع التي يكفر بها الرجل: قال النوع الرابع: من سلم من هذا كله ولكن أهل بلده يصرون على عداوة التوحيد واتباع أهل الشرك وهو يعتذر أن ترك وطنه يشق عليه، فيقاتل أهل التوحيد مع أهل بلده ويجاهد بماله ونفسه فهذا أيضًا كافر، فإنه لو يأمرونه بتزوج امرأة أبيه ولا يمكنه ترك ذلك إلا بمخالفتهم فعل. وموافقته لهم مع الجهاد معهم بنفسه وماله مع أنهم يريدون بذلك قطع دين الله ورسوله أكبر من ذلك بكثير فهذا أيضًا كافر وهو ممن قال الله فيهم:

﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾ [النساء: ٩١][٣].

القسم الثاني: أن يقيم عندهم لأجل مال أو ولد أو بلاد وهو لا يظهر دينه مع

---

(١) الدفاع لابن عتيق ١٠ - ١٢ والحديث سبق تخريجه ص٢٤٧.

(٢) قال ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم ص٢٠٠: إسناده صحيح.

(٣) الدفاع ١٠ - ١٢.

قدرته على الهجرة، ولا يعينهم على المسلمين بنفس ولا مال ولا لسان، ولا يواليهم بقلبه ولا لسانه، فهذا لا يكفرونه لأجل مجرد الجلوس، ولكن يقولون إنه قد عصى الله ورسوله بترك الهجرة، وإن كان مع ذلك يبغضهم في الباطن لقول الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [النساء: ٩٧].

قال ابن كثير: «ظالمي أنفسهم» أي بترك الهجرة، ثم قال: فهذه الآية عامة لكل من أقام بين ظهراني المشركين وهو قادر على الهجرة، وليس متمكنًا من إقامة الدين فهو مرتكب حرامًا بالإجماع وبنص هذه الآية[1].

قلت: وقد روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن ناسًا من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سواد المشركين على عهد رسول الله ﷺ يأتي السهم فيرمي به فيصيب أحدهم فيقتله أو يضرب فيقتل فأنزل الله هذه الآية:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾[2].

وقد سد الله باب الأعذار الواهية في قوله تعالى:

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤].

وما من أحد يترك الهجرة إلا وهو يعتذر بشيء من هذه الثمانية وقد سد الله على الناس باب الاعتذار بها وجعل من ترك الهجرة لأجلها أو لأجل واحد منها فاسقًا وإذا

(١) انظر تفسير ابن كثير ٢/٣٤٣. والدفاع لابن عتيق ١٣.

(٢) صحيح البخاري كتاب التفسير ٨/٢٦٢ ح٤٥٩٦.

كانت مكة هي أشرف بقاع الأرض وقد أوجب الله الهجرة منها ولم يجعل محبتها عذرًا فكيف بغيرها من البلدان؟[(١)].

القسم الثالث: من لا حرج عليه في الإقامة بين أظهرهم وهو نوعان:

١) أن يكون مظهرًا دينه فيتبرأ منهم وما هم عليه، ويصرح لهم ببراءته منهم وأنهم ليسوا على حق، بل إنهم على باطل وهذا هو إظهار الدين الذي لا تجب معه الهجرة كما قال تعالى:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾ إلى آخر السورة.

فأمره أن يخاطبهم بأنهم كافرون، وأنه لا يعبد معبوداتهم، وأنهم بريئون من عبادة الله أي أنهم على الشرك وليسوا على التوحيد، وأنه قد رضي بدينه الذي هو عليه وبريء من دينهم الذي هم عليه كما قال تعالى:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠٤ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٠٥﴾ [يونس: ١٠٤، ١٠٥].

فمن قال مثل ذلك للمشركين لم تجب عليه الهجرة.

وليس المراد بإظهار الدين: أن يترك الإنسان يصلي ولا يقال له أعبد الأوثان! فإن اليهود والنصارى لا ينهون من صلى في بلدانهم ولا يكرهون الناس على أن يعبدون الأوثان؟! بل المقصود: أن إظهار الدين هو: التصريح للكفار بالعداوة كما احتج خالد بن الوليد على مجاعة[(٢)] بأنه سكت ولم يظهر البراءة كما أظهرها

(١) الدفاع لابن عتيق ص١٣، ١٤ وانظر بيان النجاة والفكاك له أيضًا من ٧٠ - ٧٢.

(٢) هو مجاعة بن مرارة بن سلمي الحنفي اليمامي. كان من رؤساء بني حنيفة وكان ممن أسر يوم اليمامة. وكان بليغًا حكيمًا. ومن حكمه قال لأبي بكر الصديق: إذا كان الرأي عند =

ثمامة[1] واليشكري. والقصة معروفة في السير، فما لم يحصل التصريح للمشركين بالبراءة منهم ومن دينهم لم يكن إظهار الدين حاصلاً[2].

٢) أن يقيم عندهم مستضعفًا وقد بين الله الاستضعاف في كتابه فقال:

﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾﴾ [النساء: ٩٨].

وهذا الاستثناء بعد ما توعد المقيمين بين أظهر المشركين بأن:

﴿مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [النساء: ٩٧].

=من لا يقبل منه، والسلاح عند من لا يقاتل به، والمال عند من لا ينفقه ضاعت الأمور. الإصابة ٣/٣٦٢.

(١) هو ثمامة بن أثال بن النعمان بن سلمة الحنفي أبو أمامة اليمامي، حديثه في البخاري حين أسر ثم أسلم قال ابن إسحاق إن ثمامة مثبت على إسلامه لما ارتد أهل اليمامة وارتحل هو ومن أطاعه من قومه فلحقوا بالعلاء بن الحضرمي فقاتل معه المرتدين من أهل البحرين. الإصابة ١/٢٠٣.

(٢) الدفاع ص١٦ والقصة المذكورة هنا أوردها المؤلف في كتابه «النجاة والفكاك» حيث قال: لما سار خالد إلى اليمامة لقتال المرتدين بعث قبله مائتي فارس، وقال: من أصبتم من الناس فخذوه فأخذوا «مجاعة» في ثلاثة وعشرين رجلاً من قومه فلما وصلوا إلى خالد قال له: يا خالد، لقد علمت أني قدمت على رسول الله ﷺ في حياته فبايعته على الإسلام وأنا اليوم على ما كنت عليه أمس، فإن يك كاذبًا قد خرج فينا فإن الله يقول: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ قال خالد: يا مجاعة، تركت اليوم ما كنت عليه أمس وكان رضاك بأمر هذا الكذاب وسكوتك عنه، أنت أعز أهل اليمامة وقد بلغك مسيري – إقرارًا له ورضاء بما جاء به فهلا أبديت عذرًا وتكلمت فيمن تكلم؟ فقد تكلم ثمامة فرد وأنكر، وتكلم اليشكري: فإن قلت: أخاف قومي. فهلا عمدت إلي أو بعثت إلي رسولاً؟ فقال: إن رأيت يا بن المغيرة أن تعفو عن هذا كله؟ فقال خالد: قد عفوت عن دمك، ولكن في نفسي حرج من تركك.
بيان النجاة والفكاك ص٦٨ - ٧٠.

فاستثنى من لا يستطيع حيلة ولا يهتدون سبيلاً. قال ابن كثير: لا يقدرون على التخلص من أيدي المشركين ولو قدروا ما عرفوا يسلكون الطريق[١].

وقال تعالى:

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [النساء: ٧٥].

فذكر في الآية الأولى: حالهم وهو العجز عن الخروج وعدم دلالة الطريق.

وذكر في الآية الثانية: مقالهم وهو أنهم يسألون الله أن يخرجهم من بلاد الشرك الظالم أهلها وأن يجعل لهم وليًا يتولاهم وناصرًا ينصرهم، فمن كانت تلك حاله وهذا مقاله:

﴿فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء: ٩٩][٢].

وقد ذكر البغوي: أن الأسير المسلم عند الكفار إذا استطاع الخلاص والانفلات منهم لم يحل له المقام بينهم، فإن حلفوه أنهم إن خلوه لا يخرج فحلف فخلوه، وجب عليه الخروج ويمينه يمين مكره لا كفارة عليه فيها، وإن حلف استطابة لنفوسهم من غير أن يحلفوه فعليه الخروج إلى دار الإسلام ويلزمه كفارة اليمين[٣].

أما حكم السفر إلى بلاد الكفار الحربية لأجل التجارة ففي ذلك تفصيل: فإن كان يقدر على إظهار دينه ولا يوالي المشركين جاز له ذلك فقد سافر بعض الصحابة ﵃

---

(١) ابن كثير ٢/٣٤٣.

(٢) الدفاع ص١٦ وما ذكره الشيخ حمد هنا موافق تمامًا لإجابة الشيخين حسين وعبد الله ابني محمد بن عبد الوهاب حين سئلا في هذا الموضوع انظر مجموعة الرسائل والمسائل النجدية ١/ ٣٩ ط الأولى سنة ١٣٤٦هـــ مطبعة المنار بمصر.

(٣) شرح السنة للبغوي ١٠/٢٤٦.

كأبي بكر ﷺ وغيره إلى بلدان المشركين لأجل التجارة و لم ينكر ذلك النبي ﷺ كما رواه أحمد في مسنده[١] وغيره.

وإن كان لا يقدر على إظهار دينه ولا على عدم موالاتهم لم يجز له السفر إلى ديارهم كما نص على ذلك العلماء وعليه تحمل الأحاديث التي تدل على النهي عن ذلك. ولأن الله تعالى أوجب على الإنسان العمل بالتوحيد، وفرض عليه عداوة المشركين، فما كان ذريعة وسببًا إلى إسقاط ذلك لم يجز[٢].

وبعد هذه النصوص الكثيرة الصريحة علينا أن ندرك مدى الهوة التي وصل إليها «المسلمون» اليوم، ومدى موالاتهم لأعداء الله والإقامة بأرضهم وابتعاث أبنائهم إلى ديارهم لتحضير الشهادات العليا في الشريعة واللغة العربية!

إنها مهزلة مبكية ووصمة عار سيسجلها التاريخ: أن يذهب أبناء المسلمين لأخذ الشهادات في العلوم الشرعية واللغة العربية من بلاد الكفار!

وقد كتب علماء أفاضل في خطورة هذه المسألة، وبينوا مخاطر الابتعاث، وأهداف الكفار من غسل أدمغة أبناء المسلمين ومسخهم من إسلامهم، فلتراجع في مظانها[٣].

(ب) الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام

أصل المهاجرة: المجافاة والترك.

وفي الاصطلاح الشرعي: الانتقال من بلد الكفر والشرك إلى دار الإسلام[٤]. ومن

---

(١) هكذا في النص الذي في الجامع الفريد ولكنني بحثت عنه في المسند فلم أجده.

(٢) انظر الجامع الفريد ص٣٨٢ ط الثانية.

(٣) من هؤلاء الكتاب: الأستاذ الدكتور محمد محمد حسين في كتبه القيمة «الاتجاهات الوطنية» و«الإسلام والحضارة الغربية» و«حصوننا مهددة من داخلها». وهناك بحث قيم للشيخ محمد لطفي الصباغ بعنوان «الابتعاث ومخاطره» نشره المكتب الإسلامي فلتراجع أمثال هذه المؤلفات بخصوص ما ذكرنا.

(٤) انظر فتح الباري ١٦/١.

المعلوم: أن من كان دينه الإسلام المبني على صرف جميع العبادات لله وحده ونفي الشرك وبغضه وبغض أهله ومعاداتهم ومقاطعتهم فإنه لا يتركه أهل الكفر على دينه مع القدرة عليه كما أخبر عن ذلك المولى ﷻ بقوله:

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧].

كما أخبر الله عن أصحاب الكهف أنهم قالوا:

﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾ [الكهف: ٢٠].

وأخبر سبحانه بذلك عن جميع الكفار حيث قال:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾﴾ [إبراهيم: ١٣].

وكذلك قال ورقة بن نوفل للنبي ﷺ: يا ليتني أكون جذعًا إذ يخرجك قومك قال: أو مخرجي هم؟! قال: نعم. لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، فلذلك أخرجوه من مكة إلى الطائف ثم هاجر إلى المدينة بعدما هاجر طائفة من أصحابه إلى الحبشة مرتين[1].

والهجرة شأنها عظيم، وأمرها كبير إذ هي فرع الولاء والبراء، بل إنها من أبرز تكاليف الولاء والبراء، وما كانت الجماعة المسلمة لتترك أرضها وقومها وتتكبد مشاق الغربة ووعثاء السفر لولا أن ذلك تكليف رباني لمن لا يستطيع أن يقيم دينه، ويظهر إسلامه في أرضه. وقد وعد الله عباده المؤمنين المهاجرين بـــ«الحسنات» في الدنيا والآخرة فقال:

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ

---

(١) انظر الدفاع لابن عتيق ١٨، ١٩ وقصة ورقة مع رسول الله ﷺ في ابن هشام ١/٢٥٤.

أَكْبَرُۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٤١، ٤٢].

وللهجرة مفهوم شامل في التصور الإسلامي ليس مقتصرًا على الانتقال من بلد الكفر إلى بلد الإسلام فحسب ولكنه كما يقول ابن القيم: الهجرة هجرتان: **هجرة بالجسم** من بلد إلى بلد وهذه أحكامها معلومة.

والهجرة الثانية: الهجرة إلى الله ورسوله فهذه هي الهجرة الحقيقية، وهجرة الجسد تابعة لها وهي هجرة تتضمن «من» و«إلى» فيهاجر بقلبه من محبة غير الله إلى محبته، ومن عبودية غيره إلى عبوديته، ومن خوف غيره ورجائه والتوكل عليه إلى خوف الله ورجائه والتوكل عليه. ومن دعاء غيره وسؤاله والخضوع له والذل. والاستكانة له إلى دعائه سبحانه وسؤاله والخضوع له والذل له والاستكانة له. وهذا بعينه معنى الفرار إلى الله كما قال تعالى:

﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠].

والتوحيد المطلوب من العبد هو الفرار من الله إليه.

والهجرة إلى الله تتضمن: هجران ما يكرهه، وإتيان ما يحبه ويرضاه.

وأصلها: الحب والبغض، فإن المهاجر من شيء إلى شيء لابد أن يكون ما يهاجر إليه أحب مما هاجر منه، فيؤثر أحب الأمرين إليه على الآخر.

وهذه الهجرة تقوى وتضعف بحسب دواعي المحبة في قلب العبد، فإن كان الداعي أقوى كانت هذه الهجرة أقوى وأتم وأكمل، وإذا ضعف الداعي ضعفت الهجرة حتى لا يكاد يشعر بها علمًا ولا يتحرك لها إرادة[1].

أما الهجرة التي هي الانتقال من بلد الكفر إلى بلد الإسلام فإليك تفصيل أحكامها:

---

(١) الرسالة التبوكية لابن القيم ١٤، ١٨ ط الثانية سنة ١٣٩٤هـ السلفية بمصر.

قال الخطابي[1]: كانت الهجرة في أول الإسلام مندوبًا إليها غير مفروضة وذلك في قوله تعالى:

﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ [النساء: ١٠٠].

فقد نزلت حين اشتد أذى المشركين على المسلمين عند انتقال رسول الله ﷺ إلى المدينة. ثم أمروا بالانتقال إلى حضرته ليكونوا معه، فيتعاونوا ويتظاهروا أن حزبهم أمر، وليتعلموا منه أمر دينهم، ويتفقهوا فيه. وكان أعظم الخوف في ذلك الزمان من قريش وهم أهل مكة، فلما فتحت مكة ونخعت بالطاعة زال ذلك المعنى وارتفع وجوب الهجرة وعاد الأمر فيها إلى الندب والاستحباب فهما هجرتان: فالمنقطعة منهما هي الفرض، والباقية هي الندب. وبهذا يظهر الجمع بين حديث معاوية عن النبي ﷺ قال: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها»[2]. وبين حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «لا هجرة ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا»[3] على أن بين الإسنادين ما بينهما فإسناد حديث ابن عباس متصل صحيح وإسناد حديث معاوية فيه مقال[4].

ولأهمية موضوع الهجرة – خاصة في أول الإسلام – فقد قطع الله ولاية التناصر بين المسلمين المهاجرين في المدينة وبين المسلمين الذين لم يهاجروا وبقوا في مكة. قال تعالى:

---

(١) هو الإمام حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب من ولد زيد بن الخطاب. يكنى أبا سليمان. كان محدثًا فقيهًا وأديبًا شاعرًا لغويًا ومن تلاميذه الحاكم النيسابوري. ولد سنة ٣١٩هـ في بلدة بست من بلاد كابل وتوفي فيها سنة ٣٨٨هـ انظر مقدمة معالم السنن المطبوع مع سنن أبي داود ١١/١ والأعلام للزركلي ٢٧٣/٢ ط٤.

(٢) سبق تخريجه في أول هذا الفصل.

(٣) صحيح البخاري كتاب الجهاد باب وجوب النفير ٣٧/٦ ح٢٨٢٥.

(٤) معالم السنن للخطابي ٣٥٢/٣ تحقيق أحمد شاكر ومحمد حامد الفقي، وانظر: الناسخ والمنسوخ للحازمي ص٢٠٧.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٧٢﴾ [الأنفال: ٧٢].

ثم يأتي الثناء على المهاجرين والأنصار في قوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٧٤﴾ [الأنفال: ٧٤].

والكلام على المهاجرين والأنصار قد سبق فيه الحديث.

أما الصنف الذي نريد أن نتحدث عنه هنا فهم المؤمنون الذين آمنوا و لم يهاجروا بل أقاموا في مكة فهؤلاء هم الذين قال الله فيهم:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٩٧ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ۝٩٨ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ۝٩٩﴾ [النساء: ٩٧-٩٩].

فقد روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن ناسًا من المسلمين كانوا مع المشركين، يكثرون سوادهم على عهد رسول الله ﷺ، يأتي السهم فيرمى به، فيصيب أحدهم فيقتله، أو يضرب عنقه فيقتل فأنزل الله:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾[1].

ولذلك فالذين آمنوا و لم يهاجروا، بل أقاموا في بواديهم ليس لهم في المغانم نصيب

---

(١) سبق تخريجه ص٢٧٨.

ولا في خمسها إلا ما حضروا فيه القتال كما قال الإمام أحمد[١]، يدل على ذلك الحديث المروي في المسند وصحيح مسلم عن ابن بريدة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيرًا ثم قال: اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال (أو خلال) فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم[٢].. الحديث.

ونستطيع أن نلخص أنواع الهجرة – سواء ما بقي منها مفروضًا أو ما نسخ، وما هو غير ذلك – في النقاط التالية:

١) **الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام**، وكانت فرضًا في أيام النبي ﷺ وهذه الهجرة باقية مفروضة إلى يوم القيامة، والتي انقطعت بالفتح هي القصد إلى النبي ﷺ حيث كان. فمن أسلم في دار الحرب وجب عليه الخروج إلى دار الإسلام[٣].

ويؤيد ذلك حديث مجاشع بن مسعود[٤] حين جاء بأخيه مجالد بن مسعود إلى النبي

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٤٠.

(٢) الحديث في مسند أحمد ٥/٣٥٢ وفي صحيح مسلم كتاب الجهاد ٣/١٣٥٧هـ ح١٧٣١.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ١/٤٨٤ وانظر شرح النووي على مسلم ١٣/٨ وتفسير القرطبي ٥/٣٠٨.

(٤) هو مجاشع بن مسعود بن ثعلبة السلمي. قال البخاري وغيره له صحبة، روى عنه أبو عثمان النهدي وغيره. قتل يوم الجمل. الإصابة ٣/٣٦٢ والمعارف لابن قتيبة ٣٣١.

ﷺ فقال: هذا مجالد يبايعك على الهجرة فقال النبي ﷺ: «لا هجرة بعد فتح مكة ولكن أبايعه على الإسلام»(١) وعلى ذلك فإن النصوص الواردة في وجوب الهجرة باقية في حال المسلم المقيم بدار الحرب وقد ذكرها في الإقامة في دار الكفار.

٢) **الخروج من أرض البدعة**. قال الإمام مالك: لا يحل لأحد أن يقيم ببلد سب فيها السلف(٢).

٣) **الخروج عن أرض غلب عليها الحرام**. فإن طلب الحلال فرض على كل مسلم(٣).

وفي هذا الشأن يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: أحوال البلاد كأحوال العباد فيكون الرجل تارة مسلمًا، وتارة كافرًا، وتارة مؤمنًا، وتارة منافقًا، وتارة برًا تقيًا، وتارة فاجرًا شقيًا. وهكذا المساكن بحسب سكانها فهجرة الإنسان من مكان الكفر والمعاصي إلى مكان الإيمان والطاعة كتوبته وانتقاله من الكفر والمعصية إلى الإيمان والطاعة، وهذا أمر باق إلى يوم القيامة(٤).

٤) **الفرار من الأذية في البدن**، وذلك فضل من الله ﷻ أرخص فيه، فإذا خشي المرء على نفسه في موضع فقد أذن الله سبحانه له في الخروج عنه، والفرار بنفسه ليخلصها من ذلك المحذور، وأول من فعل ذلك إبراهيم عليه السلام لما خاف من قومه قال:

﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

وقال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝٩٩﴾ [الصافات: ٩٩].

---

(١) صحيح البخاري كتاب الجهاد، باب لا هجرة بعد الفتح ١٨٩/٦ ح٣٠٧٩ وصحيح مسلم كتاب الإمارة ١٤٨٨/٣ ح١٨٦٤.
(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤٨٤/١، ٤٨٥.
(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤٨٤/١، ٤٨٥.
(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٨٤/١٨.

وموسى عليه السلام قال الله فيه:

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ [القصص: ٢١][(١)].

٥) **خوف المرضى في البلاد الوخمة**، والخروج منها إلى الأرض النزهة وقد أذن النبي ﷺ للعرنيين في ذلك حين استوخموا المدينة أن يخرجوا إلى المرج، فيكونوا فيه حتى يصحوا وقد استثنى من ذلك الخروج من الطاعون كما قرر ذلك الحديث الصحيح[(٢)].

٦) **الفرار خوف الأذية في المال**، فإن حرمة مال المسلم كحرمة دمه، والأهل مثله أو آكد[(٣)].

وبعد: فإن الهجرة وغيرها من الأعمال والأقوال – مبنية على النية كما قال ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[(٤)].

❁❁❁❁

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤٨٥/١.

(٢) المصدر السابق ٤٨٥/١ وحديث العرنيين في صحيح البخاري كتاب الطب ١٤٢/١٠ ح ٥٦٨٦ وصحيح مسلم كتاب القسامة ١٢٩٦/٣ ح١٦٧١ أما حديث الطاعون ففي البخاري كتاب الطب ١٧٩/١٠ ح٥٧٢٨ وصحيح مسلم كتاب السلام ١٧٤١/٤ ح ٢٢١٩ ونصه: «إذا سمعتم بالطاعون في أرض فلا تدخلوها وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها».

(٣) أحكام القرآن ٤٨٦/١.

(٤) صحيح البخاري كتاب بدء الوحي ٩/١ ح١ وصحيح مسلم كتاب الإمارة ١٥١٥/٣ ح ١٩٠٧.

الفصل الثالث

الجهاد في سبيل الله

وهو من أهم مقتضيات الولاء والبراءِ لأنه الفاصل بين الحق والباطل وبين حزب الرحمن وحزب الشيطان والجهاد: بكسر الجيم – **لغة:** المشقة، يقال: جهدت جهادًا: بلغت المشقة.

وشرعًا: بذل الجهد في قتال الكفار[1].

ويطلق أيضًا: على مجاهدة النفس والشيطان والفساق.

فأما مجاهدة النفس: فعلى تعلم أمور الدين، ثم على العمل بها، ثم على تعليمها.

وأما مجاهدة الشيطان: فعلى دفع ما يأتي به من الشبهات وما يزينه من الشهوات.

وأما مجاهدة الكفار: فتقع باليد والمال واللسان والقلب.

وأما مجاهدة الفساق: فباليد ثم اللسان ثم القلب[2].

وقد سبق القول في الفصل الثاني من الباب الأول (أولياء الرحمن وأولياء الشيطان وطبيعة العداوة بينهما): أن العداوة بين الفريقين أمر متأصل وستبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وذلك لأن المنهجين مختلفان، ويستحيل الالتقاء بينهما لأن حزب الله يريد إقامة كلمة الحق في الأرض وهيمنة الشريعة الإسلامية على كل وضع. وحزب الشيطان يغيظه هذا المنهج فيسعى جاهدًا في سحقه وإبادته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وقد تحدثنا عن البراء وقلنا: إن أبرز صوره هو الجهاد؛ لأنه هو السبيل الوحيد

---

(١) فتح الباري لابن حجر ٦/٣.

(٢) فتح الباري لابن حجر ٦/٣.

للمفاصلة بين حزب الرحمن وحزب الشيطان.

وإذا رجعنا إلى سيرة المصطفى ﷺ: لوجدنا أن الجهاد هو الخطوة التالية للهجرة النبوية. مما يدل على أهميته في إقامة هذا الدين، وبيع المُهج في سبيل الله تلبية لنداء الجهاد في سبيل الله.

ومن المعلوم: أن هذا الدين الحنيف يأمر بدعوة الناس إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة والألوهية فإذا لبوا هذا النداء فهذا هو المراد من بعثة الرسل، وإنزال الكتب وإن انتكصوا على أعقابهم فلابد من جهادهم ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

وقد سبق معنا حديث رسول الله ﷺ: «... فإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم»[(١)].

فالدين الإسلامي يبدأ بدعوة الناس إلى الخير وجدالهم بالتي هي أحسن فإذا قامت عليهم الحجة ثم أعرضوا وجب قتالهم. وإذا كان هناك سلطان وطواغيت ترفض أن يستمع الناس للإسلام فإنه يجب بتر هذه الطواغيت من أساسها لتبلغ كلمة الإسلام للناس ثم يأتي هنا مبدأ (لا إكراه في الدين) أي إذا سيطر سلطان المسلمين على منطقة ما فإن أهلها لا يجبرون على اعتناق عقيدة الإسلام، ولكن يجب أن يخضعوا لسلطانه، فإن أسلموا فلهم ما للمسلمين وإن طلبوا البقاء على ديانتهم فعليهم دفع الجزية للمسلمين وإلا فالسيف بينهم وبين المسلمين[(٢)].

ومن هنا: فإن أهداف الجهاد في الإسلام أهداف سامية عالية فهو:

١) يقاتل الكفار لتقرير حرية العقيدة.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر تفسير «لا إكراه في الدين» في ابن كثير ٤٥٩/١ وانظر فصل الجهاد في معالم في الطريق ص٧٤.

٢) ويجاهد ثانيًا لتقرير حرية الدعوة.

٣) ويجاهد ثالثًا: لإقامة نظام الإسلام في الأرض. وتحقيق حرية الإنسان، حينما يقرر أن هناك عبودية واحدة لله الكبير المتعال، ويلغي من الأرض عبودية البشر للبشر في جميع أشكالها وصورها.

فليس هناك فرد ولا طبقة ولا أمة تشرع الأحكام للناس، وتستذلهم عن طريق التشريع، وإنما هناك رب واحد للناس جميعًا هو الذي يشرع لهم وهو الذي يتوجهون إليه وحده بالطاعة والخضوع كما يتوجهون إليه بالإيمان والعبادة على السواء[1].

وعبودية الجهاد من أشرف وأحب أنواع العبودية لله ﷻ لأنه «لو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعها. من الموالاة فيه سبحانه، والمعاداة فيه والحب فيه والبغض فيه، وبذل النفس له في محاربة عدوه، وعبودية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعبودية الصبر ومخالفة الهوى، وإيثار محاب الرب على محاب النفس»[2].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «إنه لم يرد في ثواب الأعمال وفضلها مثل ما ورد فيه... لأن نفع الجهاد عام لفاعله ولغيره في الدين والدنيا، وهو مشتمل على جميع أنواع العبادات الباطنة والظاهرة، ففيه من محبة الله، والإخلاص له، والتوكل عليه، وتسليم النفس والمال له والصبر والزهد وذكر الله وسائر أنواع الأعمال ما لا يشتمل عليه عمل آخر، والقائم به من الشخص والأمة بين إحدى الحسنيين دائمًا: إما النصر والظفر وإما الشهادة والجنة»[3].

وقد وردت نصوص كثيرة جدًا في فضيلة الجهاد نذكر طرفًا منها:

قال تعالى في بيان منزلة الشهيد وأنه حي عند ربه:

---

(١) انظر طريق الدعوة ١/٢٨٨، ٢٨٩.

(٢) مدارج السالكين ٢/١٩٦.

(٣) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ص١١٨ طبع الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة سنة ١٣٨٩هـ.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠].

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ١٥].

والجهاد هو التجارة الرابحة مع الله كما قال سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الصف: ١٠-١٣].

أما السنة النبوية: فقد ورد فيها أحاديث كثيرة في فضيلة الجهاد نذكر منها قوله ﷺ: «إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض»(١).

وقال أيضًا: «ما اغبرتا قدما عبد في سبيل الله فتمسه النار»(٢).

وفي الصحيح: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: دلني على عمل يعدل الجهاد قال: لا أجده. قال: هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر وتصوم ولا تفطر؟ فقال: ومن يستطيع ذلك؟(٣).

وفي السنن أنه ﷺ قال: «إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله تعالى»(٤).

---

(١) صحيح البخاري كتاب الجهاد باب درجات المجاهدين في سبيل الله ٦/١١ ح٢٧٩٠.
(٢) صحيح البخاري كتاب الجهاد ٦/٢٩ ح٢٨١١.
(٣) صحيح البخاري كتاب الجهاد ٦/٤ ح٢٧٨٥.
(٤) سنن أبي داود كتاب الجهاد ٣/١٢ ح٢٤٨٦ ومستدرك الحاكم ٢/٧٣ وسنده حسن.

والجهاد ذروة سنام الإسلام كما جاء ذلك في الحديث: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد»[١] وقال أيضًا: «لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها» رواه البخاري[٢] ومسلم.

وفي مقابل هذا الثناء الجميل: ورد الذم للتاركين للجهاد، بل إن الله وصفهم بالنفاق ومرض القلوب فقال تعالى:

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤].

وقال سبحانه: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمد: ٢٠-٢٣].

والجهاد ضرورة للدعوة وسنة ربّانية في الابتلاء والتمحيص. قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢].

=انظر مشكاة المصابيح ١/٢٢٥ ح٧٢٤.

(١) سنن الترمذي: أبواب الإيمان ٧/٢٨١ ح٢٦١٩ وابن ماجه ٢/١٣١٤ ح٣٩٧٣ وقال الألباني: حديث صحيح. انظر صحيح الجامع ٥/٣٠ ح٥٠١٢.

(٢) البخاري كتاب الجهاد ٦/١٣ ح٢٧٩٢ وصحيح مسلم كتاب الإمارة ٣/١٤٩٩ ح١٨٨٠.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [التوبة: ١٦].

إن الجهاد في سبيل هو طريق الدعوة إلى الله، والجهاد ليس ملابسة طارئة من ملابسات فترة الدعوة الأولى. إنما هو ضرورة مصاحبة لركب هذه الدعوة، ولو كان الجهاد ملابسة طارئة في حياة الأمة المسلمة ما استغرق كل هذه الفصول الواسعة من صلب كتاب الله ولما استغرق فصولاً طويلة من سنة رسول الله ﷺ.

والله يعلم أن هذا المنهج الإلهي تكرهه الطواغيت، ويعلم أنه لابد لأصحاب السلطان أن يقاوموه لأنه طريق غير طريقهم، ومنهج غير منهجهم، ليس بالأمس فقط ولكن اليوم وغدًا، وفي كل أرض وفي كل جيل، وإن الله سبحانه يعلم أن الشر متبجح ولا يمكن أن يكون منصفًا، ولا يمكن أن يدع الخير ينمو مهما يسلك هذا الخير من طرق سلمية موادعة فإن مجرد نمو الخير يحمل الخطورة على الشر، ومجرد وجود الحق يحمل الخطر على الباطل ولابد أن يجنح الشر إلى العدوان، ولابد أن يدافع الباطل عن نفسه بمحاولته قتل الحق وخنقه بالقوة هذه فطرة وليست حالة طارئة.. ومن ثم لابد من الجهاد.. لابد منه في كل صورة، ولابد أن يبدأ في عالم الضمير ثم يظهر فيشمل عالم الحقيقة والواقع. ولابد من مواجهة الشر المسلح بالخير المسلح، ولابد من لقاء الباطل المتترس بالعدد بالحق المتوشح بالعدة. وإلا كان الأمر هزلاً لا يليق بالمؤمنين.. ولابد من بذل الأموال والأنفس كما طلب الله من المؤمنين[1].

ويوم أن أدرك المسلمون معنى قوله تعالى: ﴿۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾ [النساء: ٧٤].

انطلقت كتائب الفتح الإسلامي في الأرض تنشر الخير، وتلقن الإيمان، وتكسر شوكة الطاغوت من أجل أن يعبد الله وحده في الأرض.

---

(١) طريق الدعوة ١/٣٠٣، ٣٠٤.

ووجد في ذلك التاريخ المشرق نماذج رفيعة أجادت – بحق – صناعة الموت لأنها تريد الحياة الكريمة سواء كانت هذه الحياة على هذه الأرض بالنصر وإعلاء كلمة الله. أم بالحياة عند الله ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩].

لقد كانت هذه النماذج الإيمانية تستبطئ أن تحيل بينها وبين الجنة تمرات كما في قصة الصحابي الجليل عمير بن الحمام الأنصاري[١]: حين سمع رسول الله ﷺ يقول في غزوة بدر: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض» قال: يا رسول الله! جنة عرضها السموات والأرض! قال: نعم قال: بخ بخ قال رسول الله: وما يحملك على قول بخ بخ؟ قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها. قال: «فإنك من أهلها» ثم أخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة. فرمي بها ثم قاتلهم وهو يقول:

ركضـــــاً إلى الله بغـــــير زاد   إلا الـــتقى وعمـــل المعـــاد
والصـــبر في الله عـــلى الجهـــاد   وكـــل زاد عرضـــة الـــنفاد
غـــير الـــتقى والـــبر والرشـــاد

فما زال يقاتل حتى قتل[٢].

وهذا غسيل الملائكة الصحابي الجليل حنظلة بن أبي عامر يخرج من بيته حين سمع نداء الحرب في معركة أُحد وكان حديث عهد بعرس لم يكن ليتأخر حتى يغتسل من جنابته، بل هرع إلى ساحة الوغى حتى لا يفوته الجهاد فلما قتل قال رسول الله ﷺ: «إن صاحبكم تغسله الملائكة فاسألوا صاحبته، فقالت: خرج وهو جنب لما سمع الهيعة

---

(١) هو عمير بن الحمام بن الجموح بن زيد بن حرام بن كعب بن سلمة الأنصاري السلمي. ذكره موسى بن عقبة وغيره فيمن شهد بدرًا. وهو أول قتيل قتل في سبيل الله في الحرب. انظر ترجمته في الإصابة ٣/٣١.

(٢) مسند أحمد ٣/١٣٧ وصحيح مسلم كتاب الإمارة ٣/١٥٠٩ ح١٨٩٩ بدون ذكر الأبيات وانظر فقه السيرة للشيخ الغزالي ص٢٤٤.

فقال النبي ﷺ : لذلك تغسله الملائكة»[1].

هذا غيض من فيض، ونقطة من بحر، من تلك البطولات التي بعث الإيمان فيها شجاعة خارقة للعادة وحنينًا على الجنة واستهانة نادرة بالحياة، تمثلوا الآخرة وتجلت لهم الجنة بنعمائها كأنهم يرونها رأي العين، فطاروا إليها طير حمام الزاجل لا يلوي على شيء[2].

هذا هو مفهوم الجهاد، وهؤلاء المؤمنون هم أصحاب الجهاد، ويلحق بهم من سار على نهجهم لأنهم يقاتلون في سبيل الله أما غيرهم فيقاتل في سبيل الطاغوت:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٧٦].

وليس ما يقوله المنهزمون اليوم هو الجهاد، بل إنه من الوجهة الصحيحة فساد. إنهم يدعون إلى عدم مقاتلة أولياء الشيطان، ويدعون إلى موالاتهم وإلى موادتهم وإلى الاستكانة إليهم وإلى تمييع نصوص كتاب الله وسنة رسوله ﷺ مقابل شبهات الملاحدة انهزموا وذلوا واستكانوا لأنهم لا يعرفون حقيقة الإسلام ولا يمثلون إلا اسمًا بدون مسمى، همهم التقليد الأعمى، وديدنهم الركض خلف كل ناعق ولو كان الأمر هكذا لهان الخطب لأنه لا عبرة بهم ففي أرض الله من يقوم بدين الله والله متكفل بذلك. ولكن أن يمتد جبنهم وذلتهم إلى الالتواء على النصوص القرآنية والسنة النبوية فيقال: إن الجهاد في الإسلام هو للدفاع فقط، فهذا ما يجب أن نعريه، ولا نسكت عنه، مهما كانت ألقابهم ومهما كانت شهرتهم، فإن دين الله هو الحق، والحق أحق أن يتبع ولست بحاجة إلى الإطالة في هذا فقد ذكرت في الفصول السابقة[3] مجموعة من العلماء الفضلاء في القديم والحديث تولوا تعرية هذا الفكر الغريب على التصور

---

(١) الإصابة لابن حجر ١/٣٦٠ وانظر: فقه السيرة للغزالي ٢٧٢.

(٢) انظر مزيدًا من تلك البطولات في ماذا خسر العالم للندوي ص١٠٤ - ١٠٨.

(٣) راجع ص٢١٧.

الإسلامي. فلتراجع في مظانها.

وعودًا على بدء نقول: إنه لا حياة شريفة في ظل هذا الدين الحنيف إلا بالعودة إلى ينابيعه الصافية كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وفهم العقيدة الصحيحة وسيرة سلف الأمة وإدراك معنى لا إله إلا الله ومعنى العبادة ومعنى الدين، ومعنى الجهاد في سبيل الله. وليس في سبيل الأرض أو الوطن أو الجنس أو اللون أو الشخص أو... أو... إلخ.

وعلى المسلمين اليوم إدراك هذه المعاني والاستعلاء بأنفسهم وعقيدتهم من تميع المائعين وكيد الكائدين، وأن يواجهوا كل موقف بما يمليه عليهم كتاب ربهم وسنة نبيهم، وليعلموا أنهم مفتقرون إلى معية الله وولايته لهم وإن كيد الشيطان كان ضعيفًا.

حكم التجسس على المسلمين

جرت عادة المصنفين من العلماء أن يدرجوا الحديث عن الجاسوس في باب الجهاد. وذلك لحكمة هامة وهي أن التجسس أبرز ما يكون في موضوع كشف عورات المسلمين لأعدائهم خاصة وقت نشوب الحرب، فلذلك يأتون بالحديث عن الجاسوس، وأحكامه في ذلك الموضع ولذلك اقتديت بهم فأوردت هذا المبحث في فصل الجهاد.

والتجسس خيانة عظمى، وكبيرة من الكبائر إذا فعله المسلم. وهو من صور موالاة الكفار التي يتراوح الحكم فيها بين الكفر المخرج من الملة إذا كان تجسسه حبًا في انتصار الكفار وعلو شوكتهم على المسلمين وبين الكبيرة من كبائر الذنوب إذا كان لغرض شخصي أو دنيوي أو جاه أو ما أشبه ذلك.

وقد حذر الله من ذلك في قصة حاطب بن أبي بلتعة[1] رضي الله عنه في سورة الممتحنة.

---

(١) هو حاطب بن أبي بلتعة اللخمي، حليف قريش، وقيل هو حليف للزبير بن العوام، شهد بدرًا والحديبية ومات سنة ثلاثين بالمدينة وهو ابن خمس وستين سنة وصلى عليه عثمان رضي الله عنهم. وقد شهد الله لحاطب بالإيمان في سورة الممتحنة. بعثه رسول الله ﷺ سنة ست من الهجرة إلى المقوقس صاحب مصر والإسكندرية فأتاه من عنده بهدايا منها مارية

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١﴾ [الممتحنة: ١].

قال الطبري: لا يدعونكم أرحامكم وقراباتكم وأولادكم إلى الكفر بالله واتخاذ أعدائه أولياء تلقون إليهم بالمودة، فإنه لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم عند الله يوم القيامة لأنه سيدخل أهل طاعته الجنة، وأهل معاصية والكفر به النار[1].

وروى البخاري في صحيحه بسنده عن عليّ ﷺ قال: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد بن الأسود وقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة ومعها كتاب فخذوه منها» فانطلقنا تعادي بنا خيلنا حتى انتهينا إلى الروضة فإذا نحن بالظعينة فقلنا: أخرجي الكتاب. فقالت: ما معي من كتاب، فقلنا: لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب، فأخرجته من عقاصها، فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: يا حاطب ما هذا؟ قال: يا رسول الله لا تعجل عليّ، إني كنت امرءًا ملصقًا في قريش ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون بها أهليهم وأموالهم فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدًا يحمون بها قرابتي وما فعلت كفرًا ولا ارتدادًا ولا رضًا بالكفر بعد الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «قد صدقكم» فقال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق. قال: «إنه قد شهد بدرًا وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» فأنزل الله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾[2] الآيات.

=القبطية. انظر: الاستيعاب ١/٣٤٨ والإصابة ١/٣٠٠.

(١) تفسير الطبري ٢٨/٦١.

(٢) صحيح البخاري كتاب التفسير تفسير سورة الممتحنة ٨/٦٣٣ ح٤٨٩٠.

قال العلامة ابن القيم: يؤخذ من هذه القصة جواز قتل الجاسوس وإن كان مسلمًا، لأن عمر ﷺ سأل رسول الله ﷺ قتل حاطب بن أبي بلتعة فلم يقل رسول الله ﷺ لا يحل قتله إنه مسلم بل قال: «وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فأجاب بأن فيه مانعًا من قتله وهو شهوده بدرًا. وفي الجواب بهذا كالتنبيه على جواز قتل جاسوس ليس له مثل هذا المانع. وهذا مذهب مالك واحد الوجهين في مذهب أحمد، وقال الشافعي وأبو حنيفة: لا يقتل وهو ظاهر مذهب أحمد، والفريقان يحتجان بقصة حاطب.

والصحيح: أن قتله راجع إلى رأي الإمام، فإن رأى في قتله مصلحة للمسلمين قتله وإن كان استبقاؤه أصلح استبقاه والله أعلم[1].

وقال أيضًا: ومن فوائد هذه القصة: أن الكبيرة العظيمة مما دون الشرك قد تكفر بالحسنة الكبيرة الماحية، كما وقع الجس من حاطب مكفرًا بشهوده بدرًا، فإن ما اشتملت عليه هذه الحسنة العظيمة من المصلحة وتضمنته من محبة الله لها ورضاه وفرحه بها، ومباهاته للملائكة بفاعلها؛ أعظم مما اشتملت عليه سيئة الجس من المفسدة، وتضمنته من بغض الله لها فغلب الأقوى على الأضعف، فأزاله وأبطل مقتضاه، وهذه حكمة الله في الصحة والمرض الناشئين من الحسنات والسيئات، الموجبين لصحة القلب ومرضه قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤].

وقال: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١].

إلى أن قال: «فتأمل قوة إيمان حاطب التي حملته على شهود بدر، وبذله نفسه مع رسول الله ﷺ وإيثاره ورسوله على قومه وعشيرته وقرابته وهم بين ظهراني العدو وفي بلدهم ولم يثن ذلك عنان عزمه، ولا فل من حد إيمانه ومواجهته للقتال لمن أهمه

---

(١) زاد المعاد ٣/٤٢٢ بتصرف بسيط.

وعشيرته وأقاربه عندهم، فلما جاء مرض الجس برزت إليه هذه القوة. وكان البُحرانُ[١] صالحًا فاندفع المرض وقام المريض كأن لم يكن به قلبة[٢] ولما رأى الطبيب قوة إيمانه قد استعلت على مرض جسه وقهرته قال لمن أراد فصده: لا يحتاج هذا العارض إلى فصاد وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، وعكس هذا ذو الخويصرة التميمي[٣] وأضرابه من الخوارج الذين بلغ اجتهادهم في الصلاة والصيام والقراءة إلى حد يحقر أحد الصحابة عمله معه كيف قال فيهم: «لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد»[٤]. وقال: «اقتلوهم فإن في قتلهم أجرًا عند الله لمن قتلهم»[٥]. ومن له لب وعقل يعلم قدر هذه المسألة: وشدة حاجته إليها وانتفاعه بها، ويطلع منها على باب عظيم من أبواب معرفة الله سبحانه وحكمته في خلقه وأمره وثوابه وعقابه، وأحكام الموازنة.. وتفاوت المراتب في ذلك بأسباب مقتضية بالغة ممن هو قائم على كل نفس بما كسبت[٦].

والذي يظهر لي – والله أعلم – هو ما ذهب إليه مالك وابن عقيل من أصحاب أحمد وغيرهما أن الجاسوس المسلم يقتل لأن التعليل في قصة حاطب «تعليل بعلة مانعة من القتل منتفية في غيره ولو كان الإسلام مانعًا من قتله لم يعلل بأخص منه، لأن

(١) الأطباء يسمون التغير الذي يحدث للعليل دفعة واحدة في الأمراض الحادة: بحرانا انظر حاشية ص٤٢٥ ج٣ زاد المعاد.

(٢) القلبة: الداء والتعب. انظر: مادة قلب في القاموس المحيط.

(٣) ذو الخويصرة التميمي ذكره ابن الأثير في الصحابة مستدركًا على من قبله ولم يورد في ترجمته سوى ما أخرجه البخاري كتاب المناقب ٦١٧/٦ ح٣٦١٠ ومسلم في الزكاة ٢/ ٧٤٠ ح١٠٦٣ من حديث أبي سعيد قال: بينا رسول الله يقسم ذات يوم قسمًا فقال ذو الخويصرة رجل من بني تميم: يا رسول الله! اعدل فقال: «ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل» الحديث انظر الإصابة لابن حجر ٤٨٥/١.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) صحيح البخاري كتاب المناقب باب علامات النبوة ٦١٨/٦ ح٣٦١١ وصحيح مسلم كتاب الزكاة ٧٤٦/٢ ح١٠٦٦.

(٦) بتصرف: زاد المعاد ٤٢٤/٣ – ٤٢٧.

الحكم إذا علل بالأعم كان الأخص عديم التأثير وهذا أقوى والله أعلم»[1].

ونزول الخطاب القرآني بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾.

يدل على دخول حاطب في المخاطبة باسم الإيمان ووصفه به، وتناوله النهي بعمومه، وله خصوص السبب الدال على إرادته، مع أن في الآية ما يشعر أن فعل حاطب نوع موالاة وأنه أبلغ بالمودة، فإن فاعل ذلك قد ضل سواء السبيل، لكن قوله ﷺ: «صدقكم خلوا سبيله» ظاهر في أنه لا يكفر بذلك إذا كان مؤمنًا بالله ورسوله غير شاك ولا مرتاب، وإنما فعله لغرض دنيوي، ولو كفر لما قيل: «خلوا سبيله»[2]. أما الجاسوس الكافر فهذا يجب قتله لأنه ﷺ قتل جاسوسًا من المشركين. فعن إياس ابن سلمة بن الأكوع عن أبيه قال: أتى النبي ﷺ عين من المشركين وهو في سفر فجلس عند أصحابه يتحدث ثم انتقل فقال النبي ﷺ: «اطلبوه واقتلوه». فقتله فنفلهُ سَلَبَه[3].

❁❁❁❁

(١) زاد المعاد ١١٤/٣ وانظر: أقضية الرسول ﷺ لابن فرج المالكي ص٢٥.

(٢) إرشاد الطالب للشيخ سليمان بن سحمان ص١٥.

(٣) صحيح البخاري كتاب الجهاد باب الحربي إذا دخل دار الإسلام بغير أمان ١٦٨/٦ ح٣٠٥١ وأبي داود في الجهاد ١١٢/٣ ح٢٦٥٣.

الفصل الرابع

هجر أصحاب البدع والأهواء

من تكاليف الولاء والبراء: هجر أصحاب البدع والأهواء والبراءة من معتقداتهم الفاسدة ونحلهم الباطلة. وقد تكلمت في الفصل الثالث من الباب الأول عن طرف من موقف السلف من هؤلاء المبتدعة، وذكرت هناك تعريف البدعة وتقسيمها إلى كفرية وغير كفرية.

أما الحديث هنا فيأتي لبيان أن هجرهم وعدم مخالطتهم والإنكار عليهم واجب من واجبات الولاء والبراء، ومقتضى من مقتضياته، لأن المنطلق في هذه القضية هو حب الله وحب من يحبه وبغض من يغضبه أو يرتكب ما يغضبه. وفساد الدين إنما يأتي من إحدى طريقتين أو هما معًا: فإما أن يقع بالاعتقاد الباطل والتكلم به وهو الخوض، أو يقع في العمل بخلاف الحق والصواب وهو الاستمتاع بالخلاق.

فالأول: البدع، **والثاني**: اتباع الهوى، وهذان هما أصل كل شر وفتنة وبلاء. وبهما كُذبت الرسل، وعُصي الرب، ودُخِلَت النار، وحلت العقوبات. لأن الفساد في الاعتقاد يأتي من جهة الشبهات والفساد في العمل يأتي من جهة الشهوات ولهذا كان السلف يقولون: احذروا من الناس صنفين: صاحب هوى فتنه هواه وصاحب دنيا أعجبته دنياه[1].

ويقولون أيضًا: احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون، لأن الأول يشبه المغضوب عليهم الذين يعلمون الحق ولا يتبعونه، والثاني يشبه الضالين الذين يعملون بغير علم[2].

---

(١) أعلام الموقعين لابن القيم ١٣٦/١ وانظر اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية ص٢٥.

(٢) اقتضاء الصراط ص٢٥.

وخطورة البدعة تكمن في أنها تناقض «الاستسلام لله وحده» كما قال بعض السلف: «قدم الإسلام لا تثبت إلا على قنطرة التسليم»[١] وهي – كما قال الإمام سفيان الثوري – أحب إلى إبليس من المعصية، لأن البدعة لا يتاب منها، أما المعصية فيتاب منها. ذلك أن المبتدع الذي يتخذ دينًا لم يشرعه الله ورسوله قد زُين له سوء عمله فرآه حسنًا، فهو لا يتوب ما دام يراه حسنًا، لأن أول التوبة العلم بأن فعله سيء ليتوب منه. فما دام يرى فعله حسنًا – وهو سيء في نفس الأمر – فإنه لا يتوب.

ولكن التوبة ممكنة وواقعة بأن يهديه الله ويرشده حتى يتبين له الحق، كما هدى الله من هدى من الكفار والمنافقين وطوائف أهل البدع والضلال، وذلك بأن يتبع من الحق ما علمه لأن الله يقول:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد: ١٧][٢].

وإذا انتشرت الجهالة بدين الرسل بين الناس، ونما زرع الجاهلية في نفوسهم: سارعت الطباع إلى الانحلال من ربقة الاتباع لأن النفس فيها نوع من الكبر فهي تحب أن تخرج من العبودية بحسب الإمكان كما قال أحد السلف: ما ترك أحد سنة إلا تكبر في نفسه[٣]. وكما قلنا في الفصل الثاني من الباب الأول: إن العداوة بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان أمر محتم وواقع فإن العداوة هنا بين المتبع والمبتدع تأخذ نفس المرتبة والشأن ولذلك قال الشوكاني: العداوة بين المتبع والمبتدع أوضح من الشمس لأن المتبع يعادي المبتدع لبدعته، والمبتدع يعادي المتبع لاتباعه وكونه على الصواب. بل قد تبلغ عداوات أهل البدع لغيرهم من أهل البدع فوق ما تبلغه عداواتهم لليهود والنصارى[٤]. وقبل أن نعرف كيفية البراءة من أهل البدع والأهواء لابد ن إلمامة بسيطة بكيفية مخالطة الناس. وقد رأيت كلامًا حسنًا لابن القيم رحمه الله. أوجزه

---

(١) شرح السنة للبغوي ١٧١/١.

(٢) انظر التحفة العراقية لابن تيمية ص٣٨.

(٣) ملحق مؤلفات الإمام محمد بن عبد الوهاب ص٨٧ ط جامعة الإمام.

(٤) قطر الولي للشوكاني ص٢٥٩.

فيما يلي:

فقد قسم رحمه الله مخالطة الناس إلى أربعة أضرب[١]:

١) من مخالطته كالغذاء، لا يستغني عنه في اليوم والليلة، فإذا أخذ حاجته منه ترك الخلطة ثم إذا احتاج خالطه. وهذا النوع أعز من الكبريت الأحمر، وهم العلماء بالله وأمره ومكايد عدوه، الناصحون لله ولكتابه ولرسوله ولخلقه. فهذا الضرب في مخالطتهم الربح كله.

٢) من مخالطته كالدواء يحتاج إليه عند المرض، فما دمت صحيحًا فلا حاجة لك فيه. وهم من لا يستغني عن مخالطتهم في المعاش، وما يحتاج إليه من المعاملات والمشاركات فإذا قضيت حاجتك من مخالطته بقيت من مخالطتهم من القسم الثالث وهم:

٣) من مخالطته كالداء على اختلاف مراتبه وأنواعه وقوته وضعفه، فبعضهم كالداء العضال لا تربح عليه في دين ولا دنيا، بل تخسر معه الدين والدنيا أو أحدهما ومنهم من مخالطته كوجع الضرس يؤلمك فإذا فارقك سكن الألم. ومنهم من مخالطته حمّى الروح، وهو الثقيل البغيض العقل، الذي لا يحسن أن يتكلم فيفيدك، ولا يحسن أن ينصت فيستفيد منك، وإذا تكلم فكلامه كالعصى على قلوب السامعين مع إعجابه بكلامه، وظنه أنه كالمسك يطيب به المجلس وإن سكت فأثقل من نصب الرحى التي لا يطاق حملها، ولا جرها على الأرض، وإذا كان لابد من هذا الضرب فليعاشر بالمعروف حتى يجعل الله لك منه فرجًا ومخرجًا.

٤) من مخالطته فيها الهلاك كله، وهي بمنزلة أكل السم، فإن اتفق لأكله ترياق[٢] وإلا فأحسن الله فيه العزاء، وما أكثر هذا الضرب في الناس لا أكثرهم الله. وهم أهل البدع والضلالة، الصادون عن سنة رسول الله ﷺ، الداعون إلى خلافها، الذين

---

(١) بدائع الفوائد ٢/٢٧٤، ٢٧٥.

(٢) الترياق، بكسر التاء: دواء السموم وهو فارسي معرب. مختار الصحاح ص٩١.

يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا، فيجعلون البدعة سنة، والسنة بدعة والمعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، إن جردت التوحيد بينهم قالوا: تنقصت جناب الأولياء والصالحين، وإن جردت المتابعة لرسول الله ﷺ قالوا: أهدرت الأئمة المتبوعين وإن وصفت الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله من غير غلو ولا تقصير قالوا: أنت من المشبهين، وإن أمرت بما أمر الله به ورسوله من المعروف ونهيت عمّا نهى الله عنه ورسوله من المنكر قالوا: أنت من المفتنين، وإن اتبعت السنة وتركت ما خالفها قالوا: أنت من أهل البدع المضلين، وإن انقطعت إلى الله تعالى وخليت بينهم وبين جيفة الدنيا قالوا: أنت من الملبسين، وإن تركت ما أنت عليه واتبعت أهواءهم فأنت عند الله من الخاسرين وعندهم من المنافقين! فالحزم كل الحزم التماس مرضاة الله تعالى ورسوله بإغضابهم، وأن لا تشتغل بعتابهم ولا باستعتابهم ولا تبالي بذمهم، ولا بغضهم فإنه عين كمالك كما قال الشاعر:

وإذا أتتك مذمتي من ناقص ... فهي الشهادة لي بأني فاضل

وعند الممات يحمد القوم التقى، وفي الصباح يحمد القوم السرى. انتهى من البدائع الفوائد.

وموقف المسلم من أصحاب البدع والأهواء يختلف باختلاف ما هم عليه. فأما من كانت بدعته كفرية أو شركية فهذا يتبرأ منه ويهجر هجرًا نهائيًا وليس له أي موالاة بل البراءة منه كالبراءة من الكافر الأصلي أو المشرك. ومثال ذلك: من أحدث حدثًا في الإسلام، أو آوى محدثًا ونصره وأعانه كما جاء في الحديث: «من أحدث حدثًا أو آوى محدثًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»[1]. قال ابن القيم: «ومن أعظم الحديث تعطيل كتاب الله وسنة رسوله وإحداث ما خالفهما، ونصر من أحدث ذلك والذب عنه، ومعاداة من دعا إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ»[2] وأما من كانت بدعته دون ذلك أي من المعاصي والذنوب التي لا تصل إلى حد الكفر أو الشرك فهذه

(١) أبو داود كتاب الديات ٤/٦٦٩ ح٤٥٣٠ والنسائي في القسامة ٨/٢٠ وإسناده حسن.

(٢) أعلام الموقعين لابن القيم ٤/٤٠٥.

تختلف أيضًا باختلاف الأشخاص والأزمان.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يستقيم إلا بالبصيرة والمعرفة التامة، وأقل الأحوال إذا لم يحصل للعبد ذلك: أن يقتصر على نفسه كما قال ﷺ: «إذا رأيت شحًا مطاعًا، وهوى متبعًا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بنفسك»[1]. فإذا رأى المسلم من يعمل شيئًا من المعاصي: أبغضه على ما فيه من الشر، وأحبه على ما فيه من الخير – كما ذكرنا ذلك في معتقد أهل السنة في أول البحث – ولا يجعل بغضه على ما معه من الشر قاطعًا وقاضيًا على ما معه من الخير فلا يحبه، بل إن كان بغضه له يزجره ويزجر أمثاله عن هذه المعصية مثلاً: هجره وأبغضه، وإن كان لا يزجره ذلك ولا يرتدع هو وأمثاله راعى فيه الأصلح، لأن النبي ﷺ هجر من علم أن الهجر يزجره ويردعه، وقبل معذرة من علم أن الهجر لا ينجع فيه شيئًا ووكل سرائرهم إلى الله[2].

وعلى أي حال فإنه ينبغي للمسلم أن لا يخالط أهل البدع والفجور وسائر المعاصي، إلا على وجه يسلم به من عذاب الله ﷻ، وأقل ذلك أن يكون منكرًا لظلمهم، ماقتًا لهم، شانئًا ما هم فيه بحسب الإمكان كما في الحديث: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»[3].

والهجر الشرعي نوعان:

الأول: بمعنى الترك للمنكرات.

---

(١) أبو داود كتاب الملاحم ٤/٥١٢ ح٤٣٤١ والترمذي في التفسير ح٣٠٦٠ وقال: حديث حسن غريب وابن ماجه في الفتن ٢/١٣٣١ ح٤٠١٤ وانظر: جامع الأصول ١٠/٣ ح٧٤٥٣.

(٢) انظر: الدرر السنية في الأجوبة النجدية ٧/٤١.

(٣) تفسير سورة النور لابن تيمية ص٥٥ ط١/١٣٩٧هـ والحديث في صحيح مسلم كتاب الإيمان ١/٦٩ ح٤٩.

والثاني: بمعنى العقوبة عليها.

فالأول: هو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [الأنعام: ٦٨].

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠].

وهذا الهجر من جنس هجر الإنسان نفسه عن فعل المنكرات كما قال ﷺ: «المهاجر من هجر ما نهى الله عنه»[١]. ومن هذا الباب الهجرة من دار الكفر والفسوق إلى دار الإسلام والإيمان، فإنه هجر للمقام بين الكافرين والمنافقين الذين لا يمكنونه من فعل ما أمر الله به، ومن هذا قوله تعالى:

﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ [المدثر: ٥].

أما النوع الثاني: وهو الهجر على وجه التأديب: فهو هجر من يظهر المنكرات حتى يتوب منها كما هجر النبي ﷺ والمسلمون «الثلاثة الذين خلفوا»[٢] حتى أنزل الله توبتهم.

وهذا الهجر يختلف باختلاف الهاجرين في قوتهم وضعفهم، وقلتهم وكثرتهم فإن المقصود به زجر المهجور وتأديبه، ورجوع العامة عن مثل حاله، فإن كانت المصلحة في ذلك راجحة بحيث يفضي هجره إلى ضعف الشر وخفيته كان مشروعًا، وإن كان لا المهجور ولا غيره يرتدع بذلك بل يزيد الشر، والهاجر ضعيف، بحيث تكون مفسدة ذلك راجحة على مصلحته لم يشرع الهجر، بل يكون التأليف لبعض الناس

---

(١) صحيح البخاري كتاب الإيمان باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ج١/٥٣ ح١٠.

(٢) سيرد حديثهم إن شاء الله في الباب الأخير عند الحديث عن كعب بن مالك وهو أحدهم.

أنفع من الهجر.

وقد كان النبي ﷺ يتألف قومًا ويهجر آخرين.

وإذا عرف هذا فالهجر يجب أن يكون خالصًا لله وموافقًا لأمره، لأن من هجر لهوى نفسه أو هجر هجرًا غير مأمور به كان خارجًا عن هذا الأصل، وما أكثر ما تفعل النفوس ما تهواه ظانة أنها تفعله طاعة لله(١).

والهجر من باب «العقوبات الشرعية» فهو من جنس الجهاد في سبيل الله، وهذا يفعل لأن تكون كلمة الله هي العليا، ويكون الدين كله لله، والمؤمن عليه أن يعادي في الله، ويوالي في الله، فإن كان هناك مؤمن فعليه أن يواليه وإن ظلمه، فإن الظلم لا يقطع الموالاة الإيمانية قال تعالى:

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ٩، ١٠].

فجعلهم إخوة مع وجود القتال والبغي(٢).

ومما ينبغي التوبة به: «أن هذا الهجران والتبري والمعاداة لأهل البدع المخالفين في الأصول. أما الاختلاف في الفروع بين العلماء فاختلاف رحمة أراد الله أن لا يكون على المؤمنين حرج في الدين، فذلك لا يوجب الهجران والقطيعة، لأن هذا الاختلاف كان بين أصحاب رسول الله ﷺ إخوانًا مؤتلفين، رحماء بينهم، وتمسك بقول كل فريق منهم طائفة من أهل العلم بعدهم، وكل في طلب الحق، وسلوك سبيل الرشد مشتركون»(٣).

---

(١) انظر مجموع الفتاوى ج٢٨/٢٠٣، ٢٠٧.

(٢) المصدر السابق ٢٨/٢٠٨.

(٣) شرح السنة للبغوي ١/٢٢٩.

كلمات للسلف في الاتباع والنهي عن الابتداع

سلف الأمة رحمهم الله كانوا حريصين على الوقوف عند كتاب الله العزيز وسنة نبيه ﷺ وكانوا يمقتون من يخرج عن هذين المصدرين الأصليين. وقد كثر كلامهم في هذا ولكني أورد بعض هذه الكلمات القيمة لما لها من أثر في تزويد المؤمن بالثبات على ما ثبتوا عليه.

قال الإمام مالك رحمه الله: «من أحدث في هذه الأمة شيئًا لم يكن عليه سلفها فقد زعم أن رسول الله ﷺ خان الدين، لأن الله تعالى يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣].

فما لم يكن يومئذ دينًا لا يكون اليوم دينًا»[١].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ستجدون قومًا يدعونكم إلى كتاب الله وقد نبذوه وراء ظهورهم فعليكم بالعلم وإيّاكم والتبدع والتنطع والتعمق، وعليكم بالعتيق[٢].

وقال أبو العالية الرياحي: تعلموا الإسلام فإذا علمتوه فلا ترغبوا عنه، وعليكم بالصراط المستقيم، فإن الصراط المستقيم: الإسلام، ولا تحرفوه يمينًا ولا شمالاً، وعليكم بسنة نبيكم وأصحابه[٣].

وقال الشافعي رحمه الله: لأن يلقى الله العبد بكل ذنب – ما خلا الشرك – خير من أن يلقاه بشيء من الهوى[٤].

وقيل لسفيان بن عيينة: ما بال أهل الأهواء لهم محبة شديدة لأهوائهم فقال: أنسيت

---

(١) الاعتصام للشاطبي ٥٣/٢.

(٢) التنبيه والرد للمالطي ص٨٥ ومعنى العتيق: أي القديم الأول.

(٣) المصدر السابق ص٨٤.

(٤) الاعتقاد على مذهب السلف للبيهقي ص١١٨.

قوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣] [(١)].

ولذلك قال أبو قلابة: لا تجالسوا أهل الأهواء فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم أو يلبسوا عليكم بعض ما تعرفون[(٢)].

وقال ابن مسعود ﷺ: «اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم»[(٣)] حقًا، لقد كفينا فكتاب الله واضح وجلي، وسنة رسوله ﷺ واضحة ومفصلة وشارحة لكتاب الله، وسيرة سلفنا الصالح محفوظة لدينا وما علينا إلا اتباع الكتاب والسنة والبعد عن كل مبتدع ودخيل، وإذا فعلنا ذلك كنا أمة متميزة لها شخصيتها المستقلة التي لا تجاري أصحاب الأهواء والآراء البشرية الناقصة.

وما تبعت أمة داعي كل ناعق إلا تردت في مهاوي الجهل والظلام والله يريد لعباده المؤمنين النور والصلاح والفلاح وكل ذلك في الإسلام وحده وما عداه فجاهلية وضلال. أعاذنا الله من ذلك.



---

(١) العبودية لابن تيمية ص٧٠.

(٢) الاعتقاد للبيهقي ص١١٨.

(٣) سنن الدارمي في العلم باب كراهية الأخذ بالرأي ٦٩/١. قال السخاوي: وأخرجه الديلمي في مسنده. انظر المقاصد الحسنة ص١٦.

الفصل الخامس

انقطاع التوارث والنكاح بين المسلم والكافر

من حرص الإسلام على تميز المسلم وقطع العلائق والوشائج التي قد ترده عمّا أراده الله له: قطع التوارث بين المسلم وقريبه الكافر، وكان هذا التكليف من مقتضيات الولاء والبراء في التصور الإسلامي.

ولكن ذلك جاء بعد الأمر للنبي ﷺ بالجهاد، فقد كان ﷺ - كما يذكر ابن القيم – قبل أن يفرض الجهاد يقر الناس على ما هم عليه في الأنكحة ويدعوهم إلى الإسلام، وكانت المرأة تسلم وزوجها كافر فلا يفرق الإسلام بينهما حتى صلح الحديبية وبعد هذا الصلح نزل تحريم المسلمة على الكافر[1]. قال تعالى:

﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠].

لقد آن أن تقع المفاصلة الكاملة أن يستقر في ضمير المؤمنين والمؤمنات كما يستقر في واقعهم: أن لا رابطة إلا رابطة الإيمان، وأن لا وشيجة إلا وشيجة العقيدة، وأن لا ارتباط إلا بين الذين يرتبطون بالله[2].

وجاء التحريم أيضًا في سورة البقرة في قوله تعالى:

﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۖ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ

(١) أحكام أهل الذمة ٦٩/١.

(٢) الظلال ٣٥٤٦/٦.

﴿يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٢١﴾ [البقرة: ٢٢١].

قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدى: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ﴾ هذه عامة في جميع النساء المشركات، وخصصتها آية المائدة في إباحة نساء أهل الكتاب كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [المائدة: ٥].

أما قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟﴾ فهذا عام لا تخصيص فيه.

وذكر سبحانه العلة والحكمة في تحريم نكاح المسلم أو المسلمة لمن خالفهما في الدين فقال: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم فمخالطتهم على خطر منهم: بل إنه الشقاء الأبدي(١).

ونكاح المسلم للكتابية مجمع عليه – كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية – من السلف والخلف ولكن يروى عن ابن عمر أنه كره نكاح النصرانية وقال: لا أعلم شركًا أعظم ممن تقول إن ربّها عيسى ابن مريم(٢)، **ولكن الجواب على ذلك من ثلاثة أوجه:**

١) أن أهل الكتاب لم يدخلوا في المشركين بدليل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٦٢].

فإن قيل: قد وصفوا بالشرك بقوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣١﴾ [التوبة: ٣١].

---

(١) تفسير كلام المنان لابن سعدي ١/٢٧٤.

(٢) الحديث في صحيح البخاري كتاب الطلاق باب قول الله تعالى: ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾. عن نافع أن ابن عمر كان إذا سئل عن نكاح النصرانية واليهودية قال: «إن الله حرم المشركات على المؤمنين ولا أعلم من الإشراك شيئًا أكبر من أن تقول المرأة ربها عيسى وهو عبد من عباد الله» ٩/٤١٦ ح٥٣٨٥.

قيل: أهل الكتاب ليس في أصل دينهم شرك، لأن الله بعث الرسل بالتوحيد، ولكن النصارى ابتدعوا الشرك وما دام أنه ميزهم عن المشركين فلأن أصل دينهم اتباع الكتب المنزلة.

٢) أن يقال: آية البقرة عامة وآية المائدة خاصة. والخاص يقدم على العام.

٣) أن يقال: آية المائدة ناسخة لآية البقرة لأن المائدة نزلت بعد البقرة باتفاق العلماء[(١)].

والذي يظهر لي – والله أعلم – أن الجواب الأول من الأجوبة الثلاثة التي ذكرها شيخ الإسلام غير مسلم به، مع التسليم بأن أصل دينهم هو التوحيد، ولكنهم نقضوا هذا الأصل والعبرة بالخواتيم. أما الجواب الثاني والثالث فهذا الذي ذهب إليه كثير من أهل العلم[(٢)].

وأما انقطاع التوارث بين المسلم والكافر فهذا أيضًا من التكاليف، والمقتضيات للولاء والبراء ودليل ذلك قوله ﷺ: «لا يرث المسلم الكافر، ولا الكافر المسلم» متفق عليه[(٣)].

والسبب في ذلك: أن التوارث يتعلق بالولاية. ولا ولاية بين المسلم والكافر لقوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾[(٤)].

قال البغوي: والعمل على هذا عند عامة أهل العلم من الصحابة فمن بعدهم: أن الكافر لا يرث المسلم، والمسلم لا يرث الكافر لقطع الولاية بينهما، إلا ما روي عن معاذ ومعاوية أنهما قالا: المسلم يرث الكافر، ولا يرثه الكافر، وحكي ذلك عن

---

(١) دقائق التفسير لابن تيمية ٢٥٨/١ – ٢٦٠ تحقيق وجمع د. محمد السيد الجليند. الناشر دار الأنصار.

(٢) انظر على سبيل المثال: المغني لابن قدامة ١٢٩/٧.

(٣) صحيح البخاري: كتاب الفرائض ٥٠/١٢ ح٦٧٦٤ وصحيح مسلم في الفرائض ٣/ ١٢٣٣ ح١٦١٤.

(٤) فتح الباري ٥٠/١٢.

إبراهيم النخعي، كما أن المسلم ينكح الكتابية ولا ينكح الكافر المسلمة، وبه قال إسحاق بن راهويه[١].

أما المرتد: فلا يرث أحدًا. لا مسلمًا ولا كافرًا ولا مرتدًا. واختلفوا في ميراثه:

فذهب جماعة: إلى أنه لا يورث منه بل ماله فيء. وهذا قول مالك والشافعي.

وذهب جماعة: إلى أن ميراثه لأقاربه المسلمين وهو قول الحسن والشعبي وعمر بن عبد العزيز والأوزاعي وأبو يوسف ومحمد. وذهب بعضهم: إلى أن ما اكتسبه في الإسلام لورثته المسلمين، وما اكتسبه بعد الردة فيء وهو قول سفيان الثوري وأبي حنيفة[٢].

إن الإسلام دين عزّة وعفة وقوة يرتفع بالمسلم أن تبقي نفسه معلقة بأطماع قاصرة لا تتفق مع مبدأ هذا الدين وتميزه وسمو تشريعه. بل إنه ليقطع كل ما من شأنه أن يثبط المسلم أو يغريه بالتذبذب في دينه أو بالنفاق. لذلك قطع النكاح من الكافر لئلا يكون له سلطة على المسلمة، فالإسلام يعلو ولا يعلى عليه، وقطع النكاح من الكافرة لأنها سبب خطير في (جرف) زوجها إلى ملتها وتنشئة الأطفال على مبدأ الكفر والشرك. وقطع التوارث بين المسلم والكافر حتى يبقى المسلم مصونًا من المال الحرام لأن صاحبه الكافر رضي بالحرام وترك شريعة الله الحلال شريعة الإسلام.

وما دام أنه قد انقطع التناصر والولاء الإيماني بين المسلم والكافر، فلأن يقطع النكاح والتوارث من باب أولى لتخلص نفس المسلم لله رب العالمين وتصبح حياته ومماته كلها قائمة على منهج الله القويم وشرعه الحكيم.

وبهذا يكون التميز الكامل متحققًا في حياة المسلم فهو لا يعبد إلا الله، ومن ثم فلا يتلقى إلا من الله، ولا يرجو ولا يطلب الرزق إلا من الله. ولا يسير في أمر يسير أو كبير إلا بحسب ما أراده الله وهذا هو معنى الاستسلام لله. والطاعة والانقياد له.

---

(١) شرح السنة ٨/٣٦٤.

(٢) شرح السنة ٨/٣٦٥.

الفصل السادس

النهي عن التشبه بالكفار والحرص على حماية المجتمع الإسلامي

الدين الإسلامي ليس حريصًا على تميز المسلمين في المضمون فحسب وإنما حتى في المظهر العام للمسلم في نفسه وللمجتمع الإسلامي في عمومه. ولذلك كان النهي عن التشبه بالكفار أحد التكاليف الربانية لهذه العقيدة. وقد حفل الكتاب والسنة بأدلة كثيرة حول هذه القضية. لأن التشبه بالكفار في الظاهر يورث التشبه بهم في العقيدة، أو مودتهم، ومسايرتهم وموافقتهم على هواهم مما يحدث التميع في حياة المسلم ويجعله إمعة يتبع كل ناعق، والله يريد له العزة والكرامة. وإذا تمعنا في طريقة التربية القرآنية: وجدنا أن الإسلام ربّى المسلمين على العقيدة الصحيحة فترة طويلة قبل نزول التكاليف، فلما رست جذور هذه الشجرة المباركة في النفوس جاءت التكاليف واحدًا إثر الآخر مما جعل المسلمين يترقون في هذا السلم التربوي الإيماني إلى الذروة.

من هنا جاء النهي عن التشبه بالكفار في العهد المدني. وذلك بعد الجهاد من أجل صيانة وحماية المجتمع الإسلامي من كل دخيل، وحرصًا على بناء الشخصية الإسلامية الفريدة. فكما أن هذه العقيدة فريدة في مضمونها وجوهرها فهي أيضًا فريدة في شكلها ومظهرها. لذا وجب على صاحبها أن يكون متميزًا بعد أن أخرجه الله من الظلمات إلى النور.

وتجتاح العالم الإسلامي اليوم موجة من التبعية الجارفة في كل شيء، ومن ذلك التشبه بالغرب الكافر من قبل ضعاف الإيمان الذين يرون أن ذلك الفعل هو سبيل التقدم والرقي!

وفي هذا يقول الأستاذ محمد أسد: «... وإن السطحيين من الناس فقط ليستطيعون أن يعتقدوا أنه من الممكن تقليد مدنية ما في مظاهرها الخارجية من غير أن يتأثروا في الوقت نفسه بروحها.

إن المدنية ليست شكلاً أجوف فقط، ولكنها نشاط حي. وفي اللحظة التي نبدأ فيها. بتقبل شكلها تأخذ مجاريها الأساسية ومؤثراتها الفعالة تعمل فينا، ثم تخلع على اتجاهنا العقلي كله شكلاً معينًا ولكن ببطء ومن غير أن نلحظ ذلك.

ولقد قدر الرسول ﷺ هذا الاختيار حق قدره حينما قال: «من تشبه بقوم فهو منهم»[1]. وهذا الحديث المشهور ليس إيماءة أدبية فحسب، بل تعبير إيجابي يدل على أن لا مفر من أن يصطبغ المسلمون بالمدنية التي يقلدونها.

ومن هذه الناحية قد يستحيل أن نرى الفرق الأساسي بين «المهم» وبين «غير المهم» في نواحي الحياة الاجتماعية وليس ثمة خطأ أكبر من أن نفترض أن اللباس – مثلاً – شيء خارجي بحت وأن لا خوف منه على «حياة الإنسان» العقلية والروحية. إنه على وجه العموم نتيجة تطور طويل الأمد لذوق شعب ما في ناحية معينة. وزي هذا اللباس يتفق مع الإدراك البديعي لذلك الشعب ومع ميوله. لقد تشكل هذا الزي ثم ما فتئ يبدل أشكاله باستمرار حسب التبدل الذي طرأ على خصائص ذلك الشعب وميوله، فالزي الأوروبي اليوم – مثلاً – يتفق تمامًا مع الخصائص العقلية في أوروبة، وبلبس الثياب الأوروبية يوفق المسلم من غير شعور ظاهر بين ذوقه والذوق الأوروبي ثم يشوه «حياته» العقلية بشكل يتفق نهائيًا مع اللباس الجديد وبعمله هذا يكون «المسلم» قد تخلى عن الإمكانيات الثقافية لقومه، وتخلى عن ذوقهم التقليدي، وتقبل لباس العبودية العقلية الذي خلعته عليه المدنية الأجنبية.

إذا حاكى المسلم أوروبة في لباسها، وعاداتها وأسلوب حياتها فإنه يتكشف عن أنه يؤثر المدنية الأوروبية، مهما كانت دعواه التي يعلنها، وإنه لمن المستحيل عمليًا أن تقلد مدنية أجنبية في مقاصدها العقلية والبديعية من غير إعجاب بروحها، وإنه لمن المستحيل أن تعجب بروح مدنية مناهضة للتوجيه الديني، وتبقى مع ذلك مسلمًا صحيحًا.

إن الميل إلى تقليد التمدين الأجنبي نتيجة الشعور بالنقص. هذا ولا شيء سواه، ما

---

(١) سيرد تخريجه بعد قليل.

يصاب به المسلمون الذين يقلدون المدنية الغربية[١].

وأصل المشابهة: أن الله جبل بني آدم – بل سائر المخلوقات – على التفاعل بين الشيئين المتشابهين، وكلما كانت المشابهة أكثر: كان التفاعل في الأخلاق والصفات أتم. والمشاركة بين بني الإنسان أشد تفاعلاً فلأجل هذا الأصل وقع التأثر والتأثير في بني آدم فاكتسب بعضهم، أخلاق بعض بالمشاركة والمعاشرة.

والمشابهة في الأمور الظاهرة: توجب مشابهة في الأمور الباطنة على وجه المسارقة والتدريج الخفي، وقد رأينا اليهود والنصارى الذين عاشروا المسلمين أقل كفرًا من غيرهم، كما رأينا المسلمين الذين أكثروا من معاشرة اليهود والنصارى هم أقل إيمانًا من غيرهم ممن جرد الإسلام[٢].

ثم إن المشاركة في الهدى الظاهر: توجب مناسبة وائتلافًا وأن بعد المكان والزمان وهذا أمر محسوس، بل إنها تورث نوع مودة ومحبة وموالاة في الباطن، كما أن المحبة في الباطن تورث المشابهة في الظاهر.

وإذا كانت المشابهة في الأمور الدنيوية تورث المحبة والموالاة فكيف بالمشابهة في أمور دينية؟ نعم. إنها تفضي إلى نوع من الموالاة أكثر وأشد. والمحبة لهم تنافي الإيمان كما قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [المائدة: ٥١].

وثبوت ولايتهم يوجب عدم الإيمان، لأن عدم اللازم يقتضي عدم الملزوم[٣].

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق. ترجمة د. عمر فروخ ص٨١ – ٨٣ الطبعة الثامنة سنة ١٩٧٤م دار العلم للملايين.

(٢) بتصرف: اقتضاء الصراط المستقيم ص٢٢٠.

(٣) اقتضاء الصراط بتصرف من ص٢١٩، ٢٢٢.

وهنا لابد أن نورد بعض النصوص الكثيرة والمستفيضة من الكتاب والسنة التي نهت عن مشابهة الكفار واتباع أهوائهم.

منها: قوله تعالى:

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية: ١٨، ١٩].

يقول في تفسيرها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: جعل الله محمدًا ﷺ على شريعة من الأمر شرعها له وأمره باتباعها، ونهاه عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون. ودخل في الذين لا يعلمون كل من خالف شريعته. وأهواءهم: هي ما يهوونه وما عليه المشركون من هديهم الظاهر الذين هو من موجبات دينهم الباطل وتوابع ذلك. فموافقتهم فيه اتباع لما يهوونه ولهذا يفرح الكافرون بموافقة المسلمين لهم في بعض الأمور ويسرون بذلك.

ولو فرض أن الفعل ليس من اتباع أهوائهم: فلا ريب أن مخالفتهم في ذلك أحسم لمادة متابعتهم في أهوائهم وأعون على حصول مرضاة الله في تركها[1].

ومن الأدلة أيضًا: قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة: ١٢٠].

فانظر كيف جاء في الخبر «ملتهم» وفي النهي «أهواءهم» لأن القوم لا يرضون إلا باتباع الملة مطلقًا. والزجر وقع عن اتباع أهوائهم في قليل أو كثير، ومن المعلوم أن متابعتهم في بعض ما هم عليه من الدين: نوع متابعة لهم في بعض ما يهوونه. أومظنة

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ص١٤.

لمتابعتهم فيما يهوونه[1].

ومن الأدلة القرآنية أيضًا: ما ورد في سورة البقرة بخصوص تغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [البقرة: ١٤٥].

إلى قوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [البقرة: ١٥٠].

قال غير واحد من السلف: معناه لئلا يحتج اليهود عليكم بالموافقة في القبلة فيقولون: قد وافقونا في قبلتنا فيوشك أن يوافقونا في ديننا. فقطع الله بمخالفتهم في القبلة هذه الحجة. وبين سبحانه أن من حكمة فسخ القبلة وتغييرها: مخالفة الكافرين في قبلتهم ليكون ذلك أقطع لما يطمعون فيه من الباطل، وهذا المعنى ثابت في كل مخالفة وموافقة فإن الكافر إذا اتبع في شيء من أمره كان له من الحجة مثل ما كان — أو قريب مما كان — لليهود من الحجة في القبلة[2].

ومن الأدلة القرآنية أيضًا الدالة على النهي عن التشبه بهم في أي حال وأي وضع: قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يونس: ٨٩].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأعراف: ١٤٢].

---

(١) المصدر السابق ص١٥.

(٢) نفس المصدر ص١٦.

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾ [النساء: ١١٥].

كل ذلك يدل على أن جنس مخالفتهم وترك مشاهتهم أمر مشروع(١).

أما السنة النبوية فورد فيها نصوص كثيرة في هذا الموضوع. ومن ذلك: قوله ﷺ: «من تشبه بقوم فهو منهم»(٢). وفي هذا الحديث يقول ابن تيمية: إسناده جيد وأقل أحواله: أنه يقتضي تحريم التشبه بهم، وإن كان ظاهره يقتضي كفر المتشبه بهم كما في قوله تعالى:

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

وهو نظير ما قاله عبد الله بن عمرو: «من بني بأرض المشركين وصنع نيروزهم ومهرجانهم وتشبه بهم حتى يموت وهو كذلك حشر معهم يوم القيامة»(٣). فقد يحمل هذا على التشبه المطلق الذي يوجب الكفر.. وقد يحمل على أنه صار منهم في القدر المشترك الذي شابههم فيه، فإن كان كفرًا أو معصية أو شعارًا للكفر أو المعصية: كان حكمه كذلك.

أما من فعل الشيء واتفق أن الغير فعله أيضًا، ولم يأخذه أحدهما عن صاحبه ففي كون هذا تشبهًا نظر. لكن قد ينهى عن هذا لئلا يكون ذريعة إلى التشبه ولما فيه من المخالفة(٤). ومن الأدلة النبوية أيضًا قوله ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا شبرًا وذراعًا ذراعًا حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم» قلنا: يا رسول الله! اليهود

---

(١) انظر نفس المصدر ص١٦.

(٢) سنن أبي داود كتاب اللباس ٤/٣١٤ ح٤٠٣١ ومسند أحمد ٧/١٤٢ ح٥١١٤ وقال الشيخ أحمد شاكر إسناده صحيح وقال الألباني: صحيح انظر صحيح الجامع ٥/٢٧٠ ح٦٠٢٥.

(٣) اقتضاء الصراط ص٨٣ والأثر سبق تخريجه.

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم ص٨٢، ٨٣.

والنصارى؟ قال: «فمن؟»[١].

وفي الصحيح أيضًا: عن ابن عمر: أن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ على الحجر – أرض ثمود – فاستقوا من آبارها وعجنوا به العجين فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهريقوا ما استقوا ويعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة[٢].

ولما كان للمشركين شجرة يعلقون عليها أسلحتهم ويسموها «ذات أنواط» قال بعض الناس: يا رسول الله! اجعل ذات أنواط كما لهم ذات أنواط؟ فقال ﷺ: «الله أكبر، قلتم كما قال قوم موسى لموسى اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة، إنها السنن لتركبن سنن من كان قبلكم»[٣]. فأنكر النبي ﷺ مجرد مشابهتهم الكفار في اتخاذ شجرة يعكفون عليها، معلقين عليها سلاحهم، فكيف بما هو أطم من ذلك من مشابهتهم المشركين أو هو الشرك بعينه؟[٤].

أيهما أعظم – يا ترى – شجرة يعلق عليها سلاح نهي عنها لأن فيها اقتداء بفعل الكفار أم نظام حياة فيه التشريع والتحليل والتحريم والإلزام والعقوبة على المخالفة؟

ومن الأحاديث الواردة في النهي عن التشبه قوله ﷺ: «إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم»[٥].

وقوله ﷺ: «خالفوا اليهود فإنهم لا يصلون في نعالهم ولا خفافهم»[٦].

---

(١) صحيح البخاري كتاب الاعتصام ١٣/٣٠٠ ح٧٣٢٠ وصحيح مسلم كتاب العلم ٤/٢٠٥٤ ح٢٦٦٩.

(٢) صحيح مسلم ٤/٢٢٨٥ ح٢٩٨١.

(٣) مسند أحمد ٥/٢١٨ إسناده صحيح ورجاله رجال الصحيح.

(٤) اقتضاء الصراط ٣١٤.

(٥) صحيح البخاري كتاب الأنبياء باب نزول عيسى ٦/٤٩٦ ح٣٤٦٢ وصحيح مسلم كتاب اللباس ٣/١٦٦٣ ح٢١٠٣.

(٦) سنن أبي داود كتاب الصلاة ١/٤٢٧ ح٦٥٢ وقال الألباني: صحيح. انظر صحيح الجامع =

وقوله ﷺ: «ليس منا من تشبه بغيرنا»[1].

إن هذه النصوص وغيرها تهدف إلى سد الذرائع لأن المشابهة في الظاهر ذريعة إلى الموافقة في القصد والعمل[2].

ولكن هناك حالات معينة قد تجعل المسلم يشارك الكفار في الهدي الظاهر. **فمتى تكون الموافقة ومتى تكون المخالفة؟**

يجيب على ذلك شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية رحمه الله بقوله: إن المخالفة لا تكون إلا بعد ظهور الدين وعلوه كالجهاد وإلزامهم بالجزية والصغار، ولما كان المسلمون في أول الأمر ضعفاء فإنه لم يشرع لهم المخالفة، فلما كمل الدين وظهر وعلا شرع ذلك.

ومثل ذلك اليوم — (هذا كلام الشيخ في عصره فكيف بالعصور التالية!؟) — لو أن المسلم بدار حرب أو دار كفر غير حرب: لم يكن مأمورًا بالمخالفة لهم في الهدي الظاهر لما عليه في ذلك من الضرر. بل يستحب للرجل أو يجب عليه أن يشاركهم أحيانًا في هديهم الظاهر إذا كان في ذلك مصلحة دينية من دعوتهم إلى الدين، والاطلاع على باطن أمرهم لإخبار المسلمين بذلك أو دفع ضررهم عن المسلمين ونحو ذلك من المقاصد الصالحة فأما في دار الإسلام والهجرة التي أعزّ الله فيها دينه، وجعل على الكافرين بها الصغار والجزية: ففيها شرعت المخالفة.

وإذا ظهرت الموافقة والمخالفة لهم باختلاف الزمان: ظهرت حقيقة الأحاديث[3] في هذا.

=٣/١٠٦ ح٣٢٠٥.

(١) سنن الترمذي ج٧/٣٣٥ ح٢٦٩٦ وقال: إسناده ضعيف. ولكن الألباني حسنه. انظر: صحيح الجامع ٥/١٠١ ح٥٣١٠.

(٢) أعلام الموقعين لابن القيم ٣/١٤٠.

(٣) اقتضاء الصراط ١٧٦ - ١٧٧.

وقد ذكر العلماء رحمهم الله قاعدة جليلة عليها مدار الشرع وإليها مرجع الخلق والأمر – كما يقول ابن القيم – وهي: إيثار أكبر المصلحتين وأعلاهما، وإن فاتت المصلحة التي هي دونها، والدخول في أدنى المفسدتين لدفع ما هو أكبر منها. فيفوت مصلحة لتحصيل ما هو أكبر منها، ويرتكب مفسدة لدفع ما هو أعظم منها[١].

ولكن مع هذا يجب أن يحذر المسلم فإن هذا أمر لا يتوصل إلى معرفته إلا بنور من الله يقذفه في قلب العبد، يكون سببه تجريد متابعة رسول الله ﷺ، وشدة عنايته بمراتب الأعمال عند الله، وأحبها إليه، وأرضاها له[٢].

وإذا أردنا أن نعرف تفصيل مخالفة أهل الكتاب وجدنا أن ذلك يندرج تحت ثلاثة أقسام[٣]:

١) ما كان مشروعًا في الشريعتين، أو ما كان مشروعًا لنا وهم يفعلونه فهذا كصوم يوم عاشوراء، أو كأصل الصلاة والصيام، فهنا تقع المخالفة في صفة ذلك العمل كما سن لنا صوم تاسوعاء، وعاشوراء، وكما أمرنا بتعجيل الفطر والمغرب مخالفة لأهل الكتاب، وكذلك تأخير السحور مخالفة لهم، والصلاة في النعلين مخالفة لليهود وهذا كثير في العبادات وكذلك في العادات.

٢) ما كان مشروعًا ثم نسخ بالكلية كالسبت، أو إيجاب صلاة أو صوم. ولا يخفى النهي عن موافقتهم في هذا.

وكذلك الأمر في أعيادهم، لأن الأعياد المشروعة يشرع فيها وجوبًا أو استحبابًا من العبادات ما لا يشرع في غيرها كالصلاة أو الذكر أو الصدقة أو النسك ويباح فيها أو يستحب أو يجب من العادات التي للنفوس فيها حظ ما لا يكون في غيرها كذلك كالتوسع في الطعام واللباس.

---

(١) الجواب الكافي ص١٦٧.

(٢) انظر بدائع الفوائد ٢/٢٦٢.

(٣) ذكرها شيخ الإسلام في الاقتضاء من ١٧٨، ١٧٩.

ولهذا وجب علينا فطر العيدين وقرنه بالصلاة في أحدهما الصدقة وقرنه بها في الآخر الذبح وكلاهما من أسباب الطعام فموافقتهم في هذا القسم المنسوخ من العبادات أو العادات أو كليهما أقبح من موافقتهم فيما هو مشروع الأصل. ولهذا كانت الموافقة في هذا محرمة.. وفي القسم الأول قد لا تكون إلا مكروهة.

٣) ما أحدثوه من العبادات أو العادات أو كليهما، فهذا أقبح وأقبح، فإنه لو أحدثه المسلمون لقد كان يكون قبيحًا، فكيف إذا كان مما لم يشرعه نبي قط؟ بل قد أحدثه الكافرون؟ فالموافقة فيه ظاهرة القبح. فهذا أصل.

وأصل آخر: وهو أن كل ما يتشابهون فيه من عبادة أو عادة أو كليهما هو من المحدثات في هذه الأمة ومن البدع إذ الكلام فيما كان من خصائصهم. وأما ما كان مشروعًا لنا وقد فعله سلفنا السابقون فلا كلام فيه.

ونخلص إلى القول: إن حكم الموافقة في الأول مكروهة وفي الثاني محرمة وفي الثالث أشد حرمة.

ما بين التشبه والولاء من علاقة

من نافلة القول: أن الشارع ما ترك خيرًا إلا دل الأمة عليه، وما ترك شرًا إلا حذر الأمة عنه. وحين أمر الشارع الحكيم بمخالفة الكفار – في الهدي الظاهر – فإن ذلك لحكم جليلة[1] منها:

١) **إن المشاركة في الهدي الظاهر**: تورث تناسبًا وتشاكلاً بين المتشابهين يقود إلى الموافقة في الأخلاق والأعمال.

وهذا أمر محسوس، فإن اللابس لثياب الجند المقاتلة – مثلاً – يجد في نفسه نوع تخلق بأخلاقهم، ويصير طبعه مقتضيًا لذلك، إلا أن يمنعه من ذلك مانع.

٢) **إن المخالفة في الهدي الظاهر**: توجب مباينة ومفارقة توجب الانقطاع عن

(١) اقتضاء الصراط ١١، ١٢.

موجبات الغضب وأسباب الضلال. والانعطاف إلى أهل الهدي والرضوان، وتحقق ما قطع الله من الموالاة بين جنده المفلحين وأعدائه الخاسرين.

وكلما كان القلب أتم حياة، وأعرف بالإسلام الذي هو الإسلام – لست أعني مجرد التوسم به ظاهرًا، أو باطنًا بمجرد الاعتقاد أن التقليدية من حيث الجملة – كان إحساسه بمفارقة اليهود والنصارى باطنًا أو ظاهرًا أتم. وبعده عن أخلاقهم الموجودة في بعض المسلمين أشد.

٣) **إن مشاركتهم في الهدي الظاهر:** توجب الاختلاط الظاهر، حتى يرتفع التميز ظاهرًا بين المهديين المرضيين، وبين المغضوب عليهم والضالين إلى غير ذلك من الأسباب الحكمية.

هذا إذا لم يكن ذلك الهدي الظاهر إلا مباحًا محضًا، لو تجرد عن مشابهتهم. فأما إن كان من موجبات كفرهم فإنه يكون شعبة من شعب الكفر، فموافقتهم فيه موافقة في نوع من أنواع ضلالتهم ومعاصيهم. وهذا أصل ينبغي أن يتفطن إليه[1].

مثال واحد من مشابهة اليهود والنصارى

« العيد »

العيد مظهر مميز للأمة، ومن هنا اخترته مثالاً واحدًا من أمثلة التشبه باليهود والنصارى. وقد وردت الأدلة الكثيرة المحرمة للتشبه بهم في هذا الشأن من الكتاب والسنة والإجماع والاعتبار[2].

أما الكتاب: فقد قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ [الفرقان: ٧٢].

قال مجاهد في تفسيرها: إنها أعياد المشركين وكذلك قال مثله الربيع بن أنس

---

(١) نفس المصدر ص١٢.

(٢) أفاض شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في هذا الموضوع بما يكفي ويشفي في كتابه القيم: اقتضاء الصراط المستقيم. ولذا فما أذكره هنا مقتبس من كلامه رحمه الله.

والقاضي أبو يعلى والضحاك[١].

وإذا كان الله قد مدح ترك شهودها الذي هو مجرد الحضور برؤية أو سماع فكيف بالموافقة بما يزيد على ذلك من العمل الذي هو عمل الزور لا مجرد شهوده؟

ومن السنة: عن أنس بن مالك ﷺ قال: قدم رسول الله ﷺ ولهم يومان يلعبون فيهما فقال: ما هذان اليومان؟ قالوا: كنا نلعب فيهما في الجاهلية. فقال رسول الله ﷺ: «إن الله قد أبدلكم بهما خيرًا منهما، يوم الأضحى ويوم الفطر» رواه أبو داود[٢] وأحمد والنسائي على شرط مسلم.

ووجه الدلالة: أن اليومين الجاهليين لم يقرهما رسول الله ﷺ ولا تركهم يلعبون فيهما على العادة بل قال: «إن الله قد أبدلكم بهما خيرًا منهما...» والإبدال من الشيء يقتضي ترك المبدل منه، إذ لا يجمع بين البدل والمبدل منه. وهذه العبارة لا تستعمل إلا فيما ترك اجتماعهما كقوله تعالى:

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ۝٥٠﴾ [الكهف: ٥٠].

وقوله ﷺ: «خيرًا منهما» يقتضي الاعتياض بما شرع لنا عما كان في الجاهلية.

والمحذور في أعياد أهل الكتابين التي نقرهم عليها أشد من المحذور في أعياد الجاهلية التي لا نقرهم عليها، فإن الأمة قد حذروا مشابهة اليهود والنصارى وأخبروا أن سيفعل قوم منهم هذا المحذور، بخلاف دين الجاهلية فإنه لا يعود إلا في آخر الدهر عند احترام أنفس المؤمنين عمومًا، ولو لم يكن أشد منه فإنه مثله على ما لا يخفى، إذ الشر الذي له فاعل موجود يخاف على الناس منه أكثر من شر لا مقتضى له قوي[٣].

---

(١) المصدر السابق ص١٨١.

(٢) كتاب الصلاة ٦٧٥ ح١١٣٤ وانظر: اقتضاء الصراط ص١٨٤.

(٣) انظر: الاقتضاء ص١٨٤ - ١٨٦.

أما الإجماع: فمما هو معلوم من السير أن اليهود والنصارى والمجوس ما زالوا في أمصار المسلمين بالجزية يفعلون أعيادهم التي لهم، ومع ذلك لم يكن على عهد السلف من المسلمين من يشركهم في شيء من ذلك.

وكذلك ما فعله عمر بخصوص أهل الذمة – سيأتي ذكر ذلك قريبًا – وما اتفق عليه الصحابة والفقهاء أن أهل الذمة لا يظهرون أعيادهم في دار الإسلام، وإذا كان هذا اتفاقهم فكيف يسوغ للمسلمين فعلها؟ أو ليس فعل المسلم لها أشد من فعل الكافر لها مظهرًا لها؟

وقد قال عمر ﷺ: «إياكم ورطانة الأعاجم، وأن تدخلوا على المشركين يوم عيدهم في كنائسهم فإن السخطة تتنزل عليهم» رواه أبو الشيخ الأصبهاني ورواه البيهقي بإسناد صحيح[١].

وأما الاعتبار: فالأعياد من جملة الشرع، والمناهج والمناسك التي قال الله فيها:

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

فلا فرق بين مشاركتهم في العيد وبين مشاركتهم في سائر المناهج، فإن الموافقة في جميع العيد: موافقة في الكفر، والموافقة في بعض فروعه: موافقة في بعض شعب الكفر، بل إن الأعياد من أخص ما تتميز به الشرائع، ومن أظهر ما لها من الشعائر، فالموافقة فيها موافقة في أخص شرائع الكفر وأظهر شعائره.

ولا ريب: أن الموافقة في هذا قد تنتهي إلى الكفر في الجملة[٢].

ثم إن عيدهم من الدين الملعون هو وأهله، فموافقتهم فيه موافقة فيما يتميزون به من أسباب سخط الله وعقابه.

ومن أوجه الاعتبار أيضًا: أنه إذا سوغ فعل القليل من ذلك أدى إلى فعل الكثير،

---

(١) نفس المصدر ص١٨٢ – ١٩٩.

(٢) نفس المصدر ص٢٠٨.

ثم إذا اشتهر الشيء دخل فيه عوام الناس وتناسوا أصله حتى يصير عادة للناس بل عيدًا لهم، حتى يضاهى بعيد الله، بل قد يزيد عليه حتى يكاد أن يفضي إلى موت الإسلام وحياة الكفر(١).

أما ما ينعكس على نفوسهم إذا تشبه بهم المسلمون في العيد خاصة فهو السرور والفرح لأن في ذلك رفعة لباطلهم وتنافيًا لمبدأ القهر والجزية والصغار الواقعين تحته.

وخلاصة المشابهة: أنها تفضي إلى كفر أو معصية غالبًا، أو تفضي إليهما في الجملة وليس في هذا المفضي مصلحة، وما أفضي إلى ذلك كان محرمًا فالمشابهة محرمة، والمقدمة الثانية لا ريب فيها، لأن استقرار الشريعة يدل على أن ما أفضى إلى الكفر غالبًا حرام وما أفضى إليه على وجه خفي حرام وما أفضى إليه في الجملة ولا حاجة تدعو إليه حرام(٢).

وبعد أن يتمعن المسلم كل هذه الأحكام بخصوص العيد عليه أن يقيس بمقياس الكتاب والسنة: الأعياد المحدثة اليوم ومن يحدثونها ومن يهنئون بها الكفرة والملاحدة. مثل عيد الثورة! وعيد الجلوس! وعيد الميلاد! وعيد الأم، وعيد تحكيم القانون ونبذ الشريعة وعيد الوطن وعيد الجلاء... إلى آخر هذه المسميات والأسماء الجاهلية التي ما أنزل بها من سلطان، والتي هي مضاهاة ومنازعة لشريعة الله وحكمه.

فواجب المسلم أن لا يقر بها ولا يهنئ أحدًا بها ويكتفي بالعيدين الإسلاميين الفطر والأضحى وفي الأيام الأخرى كالجمعة وغيرها ما يغنينا عن استيراد شعائر وشارات الكفر وأربابه.

صورة مشرقة من صور التميز في المجتمع الإسلامي الأول

كلما عاد الحديث إلى الرعيل الأول كان له حلاوة خاصة تبعث في النفس الأمل والرجاء بالاقتداء بأولئك العظام، وتحفز الهمم لتشمر عن ساعد الجد فتلحق بركب

---

(١) المصدر السابق ص٢٠٩.

(٢) المصدر السابق ص٢١٦.

قافلة الإيمان، ودعاة الهدى والخير.

ولقد كانت الشروط العمرية التي وضعها الفاروق ﷺ مثالاً رائعًا في تعامل المسلمين مع غيرهم وتميز أهل الذمة عن المسلمين مما يحفظ على المجتمع الإسلامي شخصيته المستقلة ويرعى لأولئك الذميين حقوقهم التي أمر بها هذا الدين الحنيف.

إن الحرص العُمري على تميز المسلمين عن غير المسلمين هو عمق هذه العقيدة في نفسه والقيام بمسؤوليته كراع للأمة يعلم أنه مسئول عنها كما في الحديث الصحيح: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»[1] متفق عليه.

والذي جعلني أختار موضوع أهل الذمة في هذه النقطة بالذات هو أن وضع الذميين في الدولة الإسلامية وضع خاص غير وضع الكفار الحربيين أو المهادنين.

وحيث ينشأ ويعيش الذميون وسط المجتمع الإسلامي فإن هذا الشيء يجب أن يكون محاطًا بحصانة خاصة للمسلمين لئلا يؤدي احتكاكهم بالذميين إلى التشبه بهم وذوبان الشخصية الإسلامية التي أراد لها هذا الدين أن تكون فريدة متميزة في كل شيء.

ثم إن من صفات هذا الدين الحنيف العدل حتى مع الكفار، **ولكن ما حدود هذا العدل وما سماته؟ خاصة وأنه قد أقر «الذميين» على العيش وسط المجتمع الإسلامي؟**

الجواب: هو ما ورد في «الشروط العمرية» التي نصت على حماية المسلمين وكفلت للذميين حقوقهم على أن يكونوا هم أيضًا متميزين بزيهم وديانتهم حتى لا يلتبس المسلم بالذمي: وينتج من ذلك خليط لا يعرف له اتجاه محدد وهوية خاصة. وهذه الشروط – كما يقول عنها شيخ الإسلام ابن تيمية – منها: ما مقصوده التميز عن المسلمين في الشعور واللباس، والأسماء، والمراكب والكلام ونحوها ليتميز المسلم

(١) صحيح البخاري كتاب الأحكام ١١١/١٣ ح٧١٣٨ وصحيح مسلم كتاب الإمارة ٣ ١٤٥٩ ح١٨٢٩.

من الكافر ولا يشبه أحدهما الآخر في الظاهر. ولم يرض عمر ﷺ والمسلمون بأصل التمييز، بل بالتمييز في عامة الهدي... وذلك يقتضي: إجماع المسلمين على التميز عن الكفار ظاهرًا، وترك التشبه بهم، ولقد كان أمراء الهدي مثل العمرين وغيرهما يبالغون في تحقيق ذلك بما يتم به المقصود. **ومنها**: ما يعود بإخفاء منكرات دينهم وترك إظهارها، كمنعهم من إظهار الخمر، والناقوس والنيران في الأعياد. **ومنها**: ما يعود بإخفاء شعار دينهم كأصواتهم بكتابهم.

ومنها: ما يعود بترك إكرامهم وإلزامهم الصغار الذي شرعه الله[1].

وإليك نص هذه الشروط:

روى سفيان الثوري عن مسروق عن عبد الرحمن بن غنم قال: كتبت لعمر بن الخطاب ﷺ حين صالح نصارى الشام، وشرط عليهم فيه ألا يحدثوا في مدينتهم ولا فيما حولها ديرًا ولا كنيسة، ولا قلاية[2]، ولا صومعة راهب، ولا يجددوا ما خرب، ولا يمنعوا كنائسهم أن ينزلها أحد من المسلمين ثلاث ليال يطعمونهم، ولا يؤوا جاسوسًا، ولا يكتموا غشًا للمسلمين، ولا يعلموا أولادهم القرآن، ولا يظهروا شركًا، ولا يمنعوا ذوي قراباتهم من الإسلام إن أرادوه وأن يوقروا المسلمين، وأن يقوموا فلهم من مجالسهم إذا أرادوا الجلوس، ولا يتشبهوا بالمسلمين في شيء من لباسهم، ولا يتكنوا بكناهم، ولا يركبوا سرجًا، ولا يتقلدوا سيفًا، ولا يبيعوا الخمور، وأن يجزوا مقادم رءوسهم، وأن يلزموا زيهم حيثما كانوا، وأن يشدوا الزنانير على أوساطهم ولا يظهروا صليبًا ولا شيئًا من كتبهم في شيء من طرق المسلمين، ولا يجاوروا المسلمين بموتاهم، ولا يضربوا بالناقوس إلا ضربًا خفيًا، ولا يرفعوا أصواتهم بالقراءة في كنائسهم في شيء من محضرة المسلمين، ولا يخرجوا شعانين، ولا يرفعوا

---

(١) انظر اقتضاء الصراط المستقيم ١٢٢ - ١٢٤.

(٢) القلاية: مبني يبنيه النصارى كالمنارة ولا تكون إلا لواحد ينفرد فيها بنفسه ولا يكون لها باب، بل فيها طاقة يتناول منها طعامه وشرابه وما يحتاج إليه. انظر أحكام أهل الذمة ٢/ ٦٦٨.

أصواتهم مع موتاهم، ولا يظهروا النيران معهم ولا يشتروا من الرقيق ما جرت فيه سهام المسلمين.

فإن خالفوا شيئًا مما شرطوه فلا ذمة لهم، وقد حل للمسلمين منهم ما يحل من أهل المعاندة والشقاق[1] انتهى.

ولهذه الشروط طرق أخرى في روايتها، ولكنها كلها تلتقي عند هذا المعنى، ولذلك عقب ابن القيم رحمه الله على اختلاف تلك الروايات بقوله: وشهرة هذه الشروط تغني عن إسنادها، فإن الأئمة تلقوها بالقبول وذكروها في كتبهم واحتجوا بها، ولم يزل ذكر الشروط العمرية على ألسنتهم وفي كتبهم، وقد أنفذها من بعده الخلفاء وعملوا بها[2].

سبحان الله!!!

ما هذا البون الشاسع بين تلك القمة وبين هذا الغثاء الذي يعيش اليوم على الأرض متميعًا متسكعًا وراء الكفار والملاحدة؟ ويحسب نفسه مسلمًا؟

أين تلك العزة والقوة والسلطان الربّاني الذي أخذ به ذلك الجيل، وأين الضعف والاستخذاء والتبعية العمياء التي يعيشها «المسلمون» اليوم؟

ترى: هل المنتسبون اليوم للإسلام في درجة الذميين الذين طُبقت عليهم هذه الشروط؟

هل «المسلمون» اليوم ذميون للكفار؟

إن الذي يظهر لي أنه حتى على هذا الافتراض الأخير فإن المسلمين اليوم أقل قدرًا من ذميي الأمس. ذميو الأمس: في صغار وفي ذلة وفي زي معين ومكان معين. نعم.

أما مسلمو اليوم ففي صغار وذلة واستكانة عن إسلامهم وتبعية للشرق الملحد

(١) أحكام أهل الذمة لابن القيم ٢/٦٦١، ٦٦٢.

(٢) أحكام أهل الذمة لابن القيم ٢/٦٦٣ وانظر: اقتضاء الصراط ص١٢٢.

والغرب الكافر، وإعجاب وانبهار بما عليه أعداء الإسلام، وسخرية واستهزاء بما كان عليه سلف هذه الأمة!

من هنا فهم أحط قدرًا عند الله — ما داموا بهذه الصفات — وأحقر من أن يُهابوا وأصغر من أن يُسمع لهم كلمة في المجتمع الدولي المعاصر.

فعلى المسلم الصادق. المسلم الواعي. المسلم المدرك لحقيقة إسلامه أن يعرف أين يضع قدمه ولمن يهب حبه وولاءه، وأن يعلم أن حب أعداء الله وموالاتهم والتشبه بهم لا تلتقي مع صدق إيمانه وإنما يفعل ذلك من يزعم الإسلام زعمًا وبئس ذلك الزعم الكاذب.

وقد ذكر علماء الإسلام ما ينتقض به عهد الذمي حرصًا على حماية المسلمين من أي دخيل يستغل سماحة الإسلام فيغدر بالمسلمين. وهذه النواقض:

١) الإعانة على قتال المسلمين، وقتل المسلم أو المسلمة.

٢) قطع الطريق عليهم.

٣) إيواء جواسيس المشركين أو التجسس للمشركين بأن يكتب لهم أسرار المسلمين.

٤) الزنا بالمسلمة وإصابتها باسم النكاح.

٥) فتن المسلم عن دينه.

٦) سب الله أو النبي ﷺ[١].

والأدلة على انتقاض عهد الذمي بسب الله أو كتابه أو دينه أو رسوله ووجوب قتله، وقتل المسلم إذا فعل ذلك كثيرة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين والاعتبار[٢].

---

(١) انظر الصارم المسلول على شاتم الرسول لابن تيمية ٥ - ٢٦.

(٢) المصدر السابق، والمراد بالاعتبار: القياس.

أما الكتاب: فقوله تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾ [التوبة: ١٢].

وقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب: ٥٧، ٥٨].

ومن السنة: ما رواه الشعبي على عليّ ﷺ: «أن يهودية كانت تشتم النبي ﷺ وتقع فيه، فخنقها رجل حتى ماتت فأبطل رسول الله ﷺ دمها»(١) رواه أبو داود وابن بطة في سننه، والحديث متصل لأن الشعبي رأى عليًا وكان على عهد عليّ قد ناهز العشرين سنة. ثم إن كان فيه إرسال – لأن الشعبي يبعد سماعه من علي – فهو حجة وفاقًا، لأن الشعبي عندهم صحيح المراسيل لا يعرفون له مرسلاً إلا صحيحًا(٢).

وأيضًا ما رواه عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن أعمى كانت له أم ولد تشتم النبي ﷺ وتقع، فينهاها فلا تنتهي، ويزجرها فلا تنزجر، فلما كان ذات ليلة جعلت تقع في النبي ﷺ وتشتمه فأخذ المغول فوضعه في بطنها واتكأ عليها فقتلها، فلما أصبح ذكر ذلك للنبي ﷺ فجمع الناس فقال: «أنشد رجلاً فعل ما فعل لي عليه حق الأقام» قال: فقام الأعمى يتخطى الناس وهو يتدلدل، حتى قعد بين يدي النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! أنا صاحبها، كانت تشتمك وتقع فيك فأنهاها فلا تنتهي

---

(١) سنن أبي داود وكتاب الحدود ٤/٥٣٠ ح٤٣٦٢، والدارقطني في الحدود ٣/١١٢ ح١٠٢ قال الحافظ في بلوغ المرام: رواته ثقات انظر: التعليق المغني ٣/١١٢.

(٢) الصارم المسلول ص٦١.

وأزجرها فلا تنزجر، ولي منها ابنان مثل اللؤلؤتين، وكانت بي رفيقة، فلما كان البارحة جعلت تشتمك وتقع فيك فأخذت المغول فوضعته في بطنها واتكأت عليه حتى قتلتها. فقال النبي ﷺ: «ألا اشهدوا أن دمها هدر» رواه أبو داود والنسائي(١).

ومن السنة أيضًا: ما احتج به الشافعي على أن الذمي إذا سب قتل وبرئت منه الذمة وهو قصة كعب بن الأشرف اليهودي. والحديث متفق عليه(٢).

وأما إجماع الصحابة: فقد نقل ذلك عنهم في قضايا متعددة مستفيضة و لم ينكرها أحد فصارت إجماعًا ومن ذلك: ما رفع إلى المهاجر بن أبي أمية(٣)، وكان أميرًا على اليمامة ونواحيها: أن امرأتين مغنيتين غنت إحداهما بشتم النبي ﷺ فقطع يدها ونزع ثنيتيها وغنت الأخرى بهجاء المسلمين فقطع يدها ونزع ثنيتيها، فكتب إليه أبو بكر: بلغني الذي سرت به في المرأة التي غنت وزمزمت بشتم النبي ﷺ فلولا ما قد سبقتني لأمرتك بقتلها، لأن حد الأنبياء ليس يشبه الحدود، فمن تعاطى ذلك من مسلم فهو مرتد أو معاهد فهو محارب غادر(٤).

وفي عهد عمر ﷺ: جاءه رجل من أهل الكتاب – حين دخل الشام – وهو مشجوج مضروب فغضب لذلك عمر وأمر بإحضار عوف بن مالك(٥) الأشجعي لأنه هو الذي فعل ذلك بالذمي فلما سأله عمر عن فعله هذا قال: يا أمير المؤمنين! رأيت

---

(١) أبو داود كتاب الحدود ٤/٥٢٨ ح٤٣٦١ والنسائي في باب حكم من سب النبي ﷺ ٧/ ١٠٨ وإسناده حسن.

(٢) صحيح البخاري كتاب المغازي ٧/٣٣٦ ح٤٠٣٧ ومسلم في الجهاد ٢/١٤٢٥ ح١٨٠١.

(٣) المهاجر بن أبي أمية بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم القرشي المخزومي أخو أم سلمة زوج النبي ﷺ قال الزبير: شهد بدرًا مع المشركين ولاه رسول الله على صدقات صنعاء، ثم ولاه أبو بكر. الإصابة ٣/٤٦٥.

(٤) انظر الصارم المسلول ص٢٠٠.

(٥) عوف بن مالك الأشجعي قال الواقدي: أسلم عام خيبر ونزل حمص، وقال غيره: شهد الفتح وكانت معه راية أشجع، قال ابن سعد: آخى النبي ﷺ بينه وبين أبي الدرداء ومات سنة ٧٣ في خلافة عبد الملك. الإصابة ٣/٤٣.

هذا يسوق بامرأة مسلمة على حمار فنخس بها لتصرع، فلم تصرع، فدفعها فصرعت فغشيها، وأكب عليها، فقال عمر: ائتني بالمرأة فلتصدق على ما قلت فأتاها عوف، فذهب معه أبوها وزوجها فأخبرا عمر بمثل قول عوف، فأمر عمر باليهودي فصلب وقال: ما على هذا صالحناكم ثم قال: يا أيها الناس اتقوا الله في ذمة محمد ﷺ فمن فعل منهم مثل هذا فلا ذمة له(١).

وأما الاعتبار: فمن وجوه(٢):

أحدها: أن عيب ديننا وشتم نبينا مجاهدة لنا ومحاربة، فكان نقضًا للعهد كالمجاهدة والمحاربة بطريق الأولى.

الثاني: أن مطلق العهد الذي بيننا وبينهم يقتضي أن يكفوا ويمسكوا عن إظهار الطعن في ديننا، وشتم رسولنا، كما يقتضي الإمساك عن دمائنا ومحاربتنا.

الثالث: إن الله فرض علينا تعزيز رسوله وتوقيره، وتعزيزه: نصره ومنعه، وتوقيره: إجلاله وتعظيمه، وذلك يوجب صون عرضه بكل طريق. فلا يجوز أن نصالح أهل الذمة، وهم يسمعونا شتم نبينا وإظهار ذلك، لأنا إذا تركناهم على هذا تركنا الواجب علينا نحو رسول الله ﷺ.

الأمكنة التي يمنع أعداء الله من دخولها والإقامة فيها

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [التوبة: ٢٨].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: بينما نحن في المسجد خرج علينا النبي ﷺ فقال: «انطلقوا إلى يهود» فخرجنا معه حتى إذا جئنا بيت المدراس قام النبي ﷺ فناداهم

(١) الأموال لأبي عبيد ص٢٣٥، ٢٣٦.
(٢) الصارم المسلول ٢٠٦ - ٢٠٩.

فقال: «يا معشر اليهود: أسلموا تسلموا» فقالوا: قد بلغت يا أبا القاسم فقال لهم رسول الله ﷺ ذلك أريد، فقال: أسلموا تسلموا، فقالوا قد بلغت يا أبا القاسم فقال لهم رسول الله ﷺ: ذلك أريد، ثم قالها الثالثة فقال: «اعلموا أنما الأرض لله ورسوله، وأني أريد أن أجليكم من هذه الأرض، فمن وجد منكم بماله شيئًا فليبعه، وإلا فاعلموا أنما الأرض لله ورسوله» متفق عليه ولفظه للبخاري[1].

وقال ﷺ: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب» متفق عليه[2].

وقال أيضًا: «لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع فيها إلا مسلمًا» رواه مسلم[3].

وهذه النصوص الصريحة الواضحة وغيرها توضح – بجلاء – مدى حرص الإسلام على حماية أمته من معاشرة الكفار، ومعايشتهم لما في ذلك من جلب لمودهم وموالاتهم التي نهى الله عنها.

قال الشافعي رحمه الله: يمنعون من الحجاز وهو مكة والمدينة واليمامة وقراها. أما غير الحرم منه فيمنع الكتابي وغيره من الاستيطان والإقامة به، وله الدخول بإذن الإمام لمصلحة كأداء رسالة أو حمل متاع يحتاج إليه المسلمون: وإن دخل لتجارة ليس فيها كثير حاجة لهم يأذن له إلا بشرط أن يأخذ من تجارته شيئًا، ولا يمكن من الإقامة أكثر من ثلاث[4]. وعقب ابن القيم رحمه الله على كلام الشافعي بقوله: أما حرم مكة فإنهم يمنعون من دخوله بالكلية فلو قدم رسول لم يجز أن يأذن له الإمام في دخوله، ويخرج الوالي أو من يثق به إليه. وأما حرم المدينة فلا يمنع من دخوله لرسالة أو تجارة أو حمل متاع[5].

---

(١) كتاب الإكراه ٣١٧/١٢ ح٦٩٤٤ ومسلم في الجهاد ٣٨٧/٣ ح١٧٦٥.
(٢) صحيح البخاري كتاب الجهاد ١٧٠/٦ ح٣٠٥٣ وصحيح مسلم في كتاب الوصية ٣/ ١٢٥٨ ح١٦٣٧.
(٣) كتاب الجهاد ١٣٨٨/٣ ح١٧٦٧.
(٤) أحكام أهل الذمة ١٨٤/١ وقارن بالأموال لأبي عبيد ص٩٠.
(٥) أحكام أهل الذمة ١٨٥/١.

اعتراض وجوابه

إن قيل: إن الله سبحانه إنما منع المشركين من قربان المسجد الحرام و لم يمنع أهل الكتاب منه، ولهذا أذن مؤذن النبي ﷺ يوم الحج الأكبر أنه لا يحج بعد العام مشرك. والمشركون الذين كانوا يحجون هم عبدة الأوثان لا أهل الكتاب؟[١].

والجواب: للناس قولان في دخول أهل الكتاب في لفظ المشركين: فابن عمر رضي الله عنهما وغيره كانوا يقولون: هم من المشركين، قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لا أعلم شركًا أعظم من أن يقول المسيح ابن الله وعزير ابن الله، وقد قال الله فيهم:

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١].

والثاني: لا يدخلون في لفظ «المشركين» لأن الله سبحانه جعلهم غيرهم في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٢].

قال ابن تيمية: والتحقيق أن أصل دينهم دين التوحيد فليسوا من المشركين في الأصل، والشرك طارئ عليهم فهم منهم باعتبار ما عرض لهم لا باعتبار أصل الدين، فلو قدر أنهم لم يدخلوا في لفظ الآية دخلوا في عمومها المعنوي وهو كونهم نجسًا والحكم يعم بعموم علته.

وجميع الصحابة والأئمة فهموا من قوله: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾: أن المراد مكة كلها والحرم و لم يخص ذلك أحد منهم بنفس المسجد الذي يطاف فيه. ولما نزلت هذه الآية كانت اليهود بخيبر وما حولها و لم يكونوا يمنعون من المدينة[٢].

---

(١) المصدر السابق ١/١٨٨.

(٢) المصدر السابق ١/١٨٩.

الفصل السابع

تعامل المسلمين مع غير المسلمين وفيه ثلاثة مباحث

المبحث الأول: الفرق بين الموالاة وحسن المعاملة

(كلمة حول ما يسمى بزمالة الأديان)

أجدني مضطرًا لذكر هذه المسألة لتوضيح وبيان وجه الحق والصواب حول هذا المفهوم الخاطئ، الذي خلط فيه الحق بالباطل. وطالب العلم المبتدئ – مثلي – يعجب لمشائخ كبار من أهل العلم «وقعوا في هذا الفخ الذي تولى كبر الدعوة له أعداء هذا الدين من صليبين ويهود»!

ويراد من وراء هذا التقريب والزمالة المزعومة إضاعة تميز المسلم وانصهار شخصيته في تيار هذه الدعوة المشبوهة.

ونحب أن نقرر ابتداء – أن الرسالات السماوية التي أنزل الله بها رسله عليهم السلام كلها تدعو إلى عبادة الله وحده قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

مع اختلاف في الشرائع اقتضتها حكمة ربانية لا نعلمها.

ولكن الرسالات التي سبقت الرسالة المحمدية الخاتمة: اعتورها التحريف والتبديل الذي صنعته أيد بشرية ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة: ٧٩].

لذلك اقتضت مشيئة الله وحكمته أن تكون رسالة محمد بن عبد الله ﷺ هي

خاتمة الرسالات وناسخة لما قبلها من الشرائع.

ولابد: أن نورد طرفًا من أقوال دعاة التقارب بين الأديان كما يسمون أنفسهم الذين يزعمون أنهم بصنيعهم هذا يخدمون الإسلام والبشرية كلها.

يقول الشيخ مصطفى المراغي في رسالة بعث بها إلى مؤتمر الأديان العالمي: «اقتلع الإسلام من قلوب المسلمين جذور الحقد الديني بالنسبة لأتباع الديانات السماوية الأخرى وأقر بوجود زمالة عالمية بين أفراد النوع البشري. و لم يمانع أن تتعايش الأديان جنبًا إلى جنب»؟[1].

ويقول الشيخ محمد أبو زهرة: «إذا اختلفت الأديان فإن أهل كل دين لهم أن يدعوا إلى دينهم بالحكمة والموعظة (!!) من غير تعصب يصم عن الحقائق ولا إكراه ولا إغراء بغير الحجة والبرهان»[2].

أما الدكتور وهبة الزحيلي فيقول: «ليس من أهداف الإسلام أن يفرض نفسه على الناس فرضًا حتى يكون هو الديانة العالمية الوحيدة، إذ إن كل ذلك محاولة فاشلة، ومقاومة لسنة الوجود، ومعاندة للإرادة الإلهية»[3] وغير هؤلاء الثلاثة خلق كثير. والذي يظهر لي أن هؤلاء وأمثالهم اعتمدوا ما ذكره شيخهم الأول جمال الدين الأفغاني الذي كان متأثرًا بأفكار الماسونية الخبيثة وهو أول من حمل راية الدعوة إلى زمالة الأديان فهو يقول في خاطراته بعنوان «نظرية الوحدة» ما نصه: «وجدت بعد كل بحث وتنقيب وإمعان أن أديان التوحيد الثلاثة على تمام الاتفاق في المبدأ والغاية وإذا نقص في واحد منها شيء من أوامر الخير المطلق استكمله الثاني (!).

---

(١) نقلاً عن آثار الحرب في الفقه الإسلامي للدكتور وهبة الزحيلي ص٦٣ ط٢/ سنة ١٣٨٥هـ وهذا الرجل دعا إلى أكثر من ذلك في تفسيره لبعض آيات القرآن. وتكلم بكلام لا يقره العامي الموحد فضلاً عن طالب العلم والعلماء!!

(٢) العلاقات الدولية في الإسلام ص٤٢ الناشر: الدار القومية للطباعة سنة ١٣٨٤هـ.

(٣) آثار الحرب ص٦٥.

... وعلى هذا لاح لي بارق أمل كبير أن تتحد أهل الأديان الثلاثة مثلما اتحدت الأديان في جوهرها وأصلها وغايتها وأن بهذا الاتحاد يكون البشر قد خطا نحو السلام خطوة كبيرة في هذه الحياة القصيرة وأخذت أضع لنظريتي هذه خططًا وأخط أسطرًا وأحبر رسائل للدعوة كل ذلك وأنا لم أخالط أهل الأديان كلهم عن قرب وكثب ولا تعمقت في أسباب اختلاف أهل الدين الواحد وتفرقهم فرقًا وشيعًا وطوائف... »[1].

وهذه الأقوال فيها من المغالطات ما هو ظاهر لكل ذي عينين، فمن قال: إن الدين الإسلامي يسمح للنصراني: أن يدعو إلى نصرانيته، ولليهودي أن يدعو إلى يهوديته والبوذي أن يدعو إلى بوذيته، وغير ذلك من أديان البشر الوضعية أو الأديان المحرفة؟

هل هؤلاء الدعاء يجهلون ما ذكره القرآن عن بني إسرائيل وقتلهم الأنبياء ثم تحريف التوراة والإنجيل، ثم اللعب بالكتب المنزلة حسبما تمليه عليهم أهواؤهم؟

هل هؤلاء يجعلون قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩].

وقوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ [البقرة: ١٠٩].

وغير ذلك من النصوص الكثيرة التي تبين عداوة أهل الكتاب للمسلمين. ورحم

---

(١) خاطرات جمال الدين الأفغاني/ اختيار عبد العزيز سيد الأهل ص١٤ وانظر ص١٥٨ الناشر: دار حراء بالقاهرة.

الله الأستاذ الجليل، العالم الربّاني سيد قطب حين قال: إن سماحة الإسلام مع أهل الكتاب شيء، واتخاذهم أولياء شيء آخر، ولكنهما يختلطان على بعض المسلمين الذين لم تتضح في نفوسهم الرؤية الكاملة لحقيقة هذا الدين ووظيفته، الذي يهدف إلى إنشاء، واقع في الأرض وفق التصور الإسلامي الذي يختلف في طبيعته عن سائر التصورات التي تعرفها البشرية.

إن هؤلاء الذين تختلط عليهم تلك الحقيقة لأنه ينقصهم الحس التقي بحقيقة العقيدة كما ينقصهم الوعي الذكي لطبيعة المعركة وطبيعة أهل الكتاب فيها: ويغفلون عن التوجيهات القرآنية الواضحة الصريحة فيها، فهم يخلطون بين دعوة الإسلام إلى السماحة في معاملة أهل الكتاب والبر بهم في المجتمع المسلم الذي يعيشون فيه وبين الولاء الذي لا يكون إلا لله ولرسوله وللجماعة المسلمة، ناسين ما يقرره القرآن من أن أهل الكتاب بعضهم أولياء بعض في حرب الجماعة المسلمة، وأن هذا شأن ثابت لهم، وأنهم ينقمون من المسلم إسلامه، ولن يرضوا عن المسلم إلا أن يترك دينه ويتبع دينهم.

وسذاجة أية سذاجة، وغفلة أية غفلة أن نظن أن لنا وإياهم طريقًا واحدًا نسلكه للتمكين للدين! أمام الكفار والملحدين! فهم مع الكفار والملحدين إذا كانت المعركة ضد المسلمين!

يقول السذج: إننا نستطيع أن نضع أيدينا في أيدي أهل الكتاب للوقوف في وجه المادية والإلحاد – بوصفنا جميعًا أهل دين! ناسين تعليم القرآن كله – وناسين تعليم التاريخ كله.

فأهل الكتاب هؤلاء هم الذين كانوا يقولون للذين كفروا من المشركين: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ٥١﴾ [النساء: ٥١].

وهم الذين ألبوا المشركين على المسلمين في المدينة وكانوا لهم درعًا وردءًا.

وأهل الكتاب هم الذين سنوا الحروب الصليبية خلال مائتي عام. وهم الذين

ارتكبوا فظائع الأندلس، وهم الذين شردوا المسلمين في فلسطين وأحلوا اليهود محلهم، متعاونين في هذا مع الإلحاد والمادية!

وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين يشردون المسلمين في كل مكان في الحبشة والصومال وإرتيريا وغيرها حيث يتعاونون في هذا التشريد مع الإلحاد والمادية والوثنية في يوغسلافيا والصين والتركستان والهند وفي كل مكان!

إن هؤلاء الذين يظنون — وهم واهمون — أنه يمكن أن يقوم بيننا وبين أهل الكتاب هؤلاء ولاء وتناصر ندفع به المادية الإلحادية عن الدين: لا يقرءون القرآن، وإذا قرءوه اختلطت عليهم دعوة السماحة التي هي طابع الإسلام فظنوها دعوة الولاء الذي يحذر منه القرآن. ومن هنا يحاولون تمييع المفاصلة الحاسمة بين المسلمين وأهل الكتاب، باسم التسامح والتقريب بين أهل الأديان السماوية. فكما أنهم مخطئون في فهم الأديان هم أيضًا مخطئون في فهم معنى التسامح.

إن الدين الذي نزل على رسول الله ﷺ هو الدين عند الله. والتسامح يكون في المعاملات الشخصية، لا في التصور الاعتقادي ولا في النظام الاجتماعي. أما هؤلاء، فيحاولون تمييع اليقين الجازم في نفس المسلم الذي يقرر أن الله لا يقبل دينًا إلا الإسلام، وأن على المسلم أن يحقق منهج الله الممثل في الإسلام ولا يقبل دونه بديلاً، ولا يقبل فيه تعديلاً — ولو طفيفًا — قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

والإسلام قد جاء ليصحح اعتقادات أهل الكتاب كما جاء ليصحح اعتقادات المشركين والوثنيين سواء، ودعاهم إلى الإسلام جميعًا لأن هذا هو «الدين» الذي لا يقبل الله غيره من الناس جميعًا... والمسلم مكلف أن يدعو أهل الكتاب إلى الإسلام، كما يدعو الملحدين والوثنيين سواء، وهو غير مأذون في أن يكره أحدًا من هؤلاء ولا هؤلاء على الإسلام، لأن العقائد لا تنشأ في الضمائر بالإكراه، فالإكراه في الدين فوق

أنه منهي عنه، هو كذلك لا ثمرة له[1].

الفرق بين الموالاة والمعاملة بالحسنى

قلنا قبل قليل إن الولاء شيء والمعاملة بالحسنى شيء آخر والأصل في هذا قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [الممتحنة: ٨].

وقد اختلف أهل العلم في تفسيرها فقال بعضهم إن المعنى بها: الذين كانوا آمنوا بمكة و لم يهاجروا فأذن الله للمؤمنين ببرهم والإحسان إليهم وإلى هذا ذهب مجاهد.

وقال آخرون: عني بها من غير أهل مكة من لم يهاجر.

وقال آخرون: بل عني بها من مشركي مكة من لم يقاتل المؤمنين و لم يخرجوهم من ديارهم ونسخ الله ذلك بعد بالأمر بقتالهم. ويروى هذا عن قتادة[2].

ورجح ابن جرير: أن أولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عني بذلك: لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلونكم في الدين من جميع أصناف الملل والأديان أن تبروهم وتصلوهم وتقسطوا إليهم. لأن الله ﷻ عم بقوله:

﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾

جميع من كان ذلك صفته، فلم يخصص به بعضًا دون بعض، ولا معنى لقول من قال: ذلك منسوخ. لأن بر المؤمن أحدًا من أهل الحرب ممن بينه وبينه قرابة نسب، أو ممن لا قرابة بينهما ولا نسب غير محرم، ولا منهي عنه إذا لم يكن في ذلك دلالة له أو لأهل الحرب على عورة لأهل الإسلام، أو تقوية لهم بكراع أو سلاح.

---

(١) بتصرف: انظر في ظلال القرآن ج٢/ ٩٠٩ - ٩١٥.

(٢) تفسير الطبري ٢٨/٦٦.

ويبين ذلك الخبر المروي عن ابن الزبير في قصة أسماء مع أمها[١]. والإسلام بفعله هذا – حتى في حالة الخصومة – يستبقي أسباب الود في النفوس بنظافة السلوك، وعدالة المعاملة انتظارًا لليوم الذي يقتنع فيه خصومه بأن الخير في أن ينضووا تحت لوائه الرفيع[٢].

وقد سبق الحديث في أول هذا البحث: أن الله أمر بصلة الأقارب الكفار والمشركين وأن ذلك ليس موالاة لهم في شيء.

ونزيد هذا الأمر إيضاحًا بقصة أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما مع أمها.

فقد روى البخاري ومسلم عن أسماء رضي الله عنها قالت: قدمت على أمي وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ فاستفتيت رسول الله ﷺ قلت: إن أمي قدمت علي وهي راغبة أفأصل أمي؟ قال: «نعم صلي أمك»[٣].

قال الخطابي: فيه – أي الحديث – أن الرحم الكفارة توصل من المال ونحوه كما توصل المسلمة ويستنبط منه وجوب نفقة الأب الكافر والأم الكافرة وإن كان الولد مسلمًا[٤].

قال ابن حجر: البر والصلة والإحسان لا يستلزم التحابب والتوادد المنهي عنه في قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

فإنها عامة في حق من قاتل ومن لم يقاتل[٥].

---

(١) تفسير الطبري ٦٦/٢٨.

(٢) انظر الظلال ٣٥٤٤/٦.

(٣) صحيح البخاري كتاب الهبة باب الهدية للمشركين ٢٣٣/٥ ح٢٦٢٠ وصحيح مسلم كتاب الزكاة ٦٩٦/٢ ح١٠٠٣.

(٤) فتح الباري ٢٣٤/٥.

(٥) فتح الباري ٢٣٣/٥.

وقال ابن القيم: الذي يقوم عليه الدليل وجوب الإنفاق، وإن اختلف الدينان لقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ [لقمان: ١٤، ١٥].

وليس من الإحسان ولا من المعروف ترك أبيه وأمه في غاية الضرورة والفاقة وهو في غاية الغنى. وقد ذم الله قاطعي الرحم وعظم قطيعتها وأوجب حقها وإن كانت كافرة لقوله تعالى:

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ﴾ [النساء: ١].

وفي الحديث: «لا يدخل الجنة قاطع رحم»[١].

وصلة الرحم واجبة، وإن كانت لكافر، فله دينه وللواصل دينه. وقياس النفقة على الميراث قياس فاسد. فإن الميراث مبناه على النصرة والموالاة بخلاف النفقة فإنها صلة ومواساة من حقوق القرابة.

وقد جعل الله للقرابة حقًا – وإن كانت كافرة – فالكفر لا يسقط حقوقها في الدنيا. قال تعالى: ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ﴾ [النساء: ٣٦].

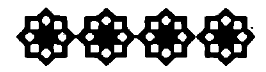
وكل من ذكر في هذه الآية فحقه واجب وإن كان كافرًا، فما بال ذي القربى وحده يخرج من جملة من وصى الله بالإحسان إليه؟[٢].

---

(١) صحيح البخاري كتاب الأدب باب إثم القاطع ٤١٥/١٠ ح٥٩٨٤ وصحيح مسلم في كتاب البر والصلة ١٩٨١/٤ ح٢٥٥٦ ويلاحظ هنا: أن النكرة وقعت في سياق النفي فتعم.

(٢) أحكام أهل الذمة ٤١٧/٢، ٤١٨.

من هنا يتضح لنا: أن الموالاة الممثلة في الحب والنصرة شيء. والنفقة والصلة والإحسان للأقارب الكفار شيء آخر. وسماحة الإسلام أيضًا تتضح في معاملة الأسرى والشيوخ والأطفال والنساء في الحرب. كما هو معلوم من صفحاته المشرقة.



المبحث الثاني: التعامل مع الكفار

١- البيع والشراء

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: الأصل أنه لا يحرم على الناس من المعاملات التي يحتاجون إليها إلا ما دل الكتاب والسنة على تحريمه، كما لا يشرع لهم من العبادات التي يتقربون بها إلى الله إلا ما دل الكتاب والسنة على شرعه. إذ الدين ما شرعه الله، والحرام ما حرمه الله، بخلاف الذين ذمهم الله حيث حرموا من دون الله ما لم يحرمه الله وأشركوا به ما لم ينزل به سلطانًا، وشرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله[(١)].

وانطلاقًا من هذه القاعدة وبناء على النصوص الشرعية وسيرة رسول الله ﷺ وأصحابه الراشدين وأئمة المسلمين نقول: إن التعامل مع الكفار في البيع والشراء والهدية وخلاف ذلك لا يدخل في مسمى الموالاة، بل يباح للمسلم البيع والشراء مع الكفار فهذا شيخ الإسلام ابن تيمية يُسأل عن معاملة التتر فيقول: «يجوز فيها ما يجوز في معاملة أمثالهم، ويحرم فيها ما يحرم في معاملة أمثالهم، فيجوز أن يبتاع الرجل من مواشيهم وخيلهم ونحو ذلك كما يبتاع من مواشي الأعراب والتركمان والأكراد ويجوز أن يبيعهم من الطعام والثياب ونحو ذلك ما يبيعه لأمثالهم. فأما إن باعهم أو باع غيرهم ما يعينهم به على المحرمات، كبيع الخيل والسلاح لمن يقاتل به قتالاً محرمًا فهذا لا يجوز قال تعالى:

﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢].

وإذا كان الذي معهم أو مع غيرهم، أموال يعرف أنهم غصبوها من معصوم فذلك لا يجوز اشتراؤها لمن يمتلكها لكن إذا اشتريت على طريق الاستنقاذ لتصرف في

---

(١) السياسة الشرعية ص١٥٥.

مصارفها الشرعية فتعاد إلى أصحابها – إن أمكن – وإلا صرفت في مصالح المسلمين: جاز هذا. وإذا علم أن في أموالهم شيئًا محرمًا لا تعرف عينه، فهذا لا تحرم معاملتهم فيه كما إذا علم أن في الأسواق ما هو مغصوب ومسروق و لم يعلم عينه[١].

وقد روى البخاري في كتاب البيوع باب الشراء والبيع مع المشركين وأهل الحرب عن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما قال: كنا مع النبي ﷺ ثم جاء، رجل مشرك مشعان[٢] طويل بغنم يسوقها فقال النبي ﷺ: «بيعًا أم عطية» أو قال: أم هبة؟ فقال: لا. بيع فاشترى منه شاة[٣].

قال ابن بطال: معاملة الكفار جائزة إلا بيع ما يستعين به أهل الحرب على المسلمين[٤].

وثبت أيضًا عن النبي ﷺ أنه أخذ من يهودي ثلاثين وسقًا من شعير ورهنه درعه[٥] قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وإذا سافر الرجل إلى دار الحرب ليشتري منها جاز عندنا، كما دل عليه حديث تجارة أبي بكر ﷺ في حياة رسول الله ﷺ إلى أرض الشام وهي حينذاك دار حرب وغير ذلك من الأحاديث.

فأما بيع المسلم لهم في أعيادهم ما يستعينون به على عيدهم من الطعام واللباس والريحان ونحو ذلك، أو إهداء ذلك لهم: فهذا فيه نوع إعانة على إقامة عيدهم المحرم، وهو مبني على أصل وهو: أنه لا يجوز أن يبيع الكفار عنبًا أو عصيرًا يتخذونه خمرًا.

وكذلك لا يجوز بيعهم سلاحًا يقاتلون به مسلمًا[٦].

---

(١) المسائل الماردينية ١٣٢، ١٣٣ تحقيق الشاويش ط٣ سنة ١٣٩٩هـ.
(٢) أي طويل مشعث الشعر.
(٣) ٤/٤١٠ ح٢٢١٦.
(٤) فتح الباري ٤/٤١٠.
(٥) مسند أحمد ٥/١٣٧ ح٣٤٠٩ تحقيق أحمد شاكر وقال: إسناده صحيح.
(٦) اقتضاء الصراط المستقيم ص٢٢٩.

٢- الوقف عليهم أو وقفهم على المسلمين

قال ابن القيم: أما ما وقفوه فينظر فيه، فإن وقفوه على معين أو جهة يجوز للمسلم الوقف عليها كالصدقة على المساكين والفقراء وإصلاح الطرق والمصالح العامة، أو على أولادهم وأنسالهم وأعقابهم: فهذا الوقف صحيح. حكمه حكم وقف المسلمين على هذه الجهات لكن إذا شرط في استحقاق الأولاد والأقارب بقاءهم على الكفر «فإن أسلموا لم يستحقوا شيئًا»: لم يصح هذا الشرط، ولم يجز للحاكم أن يحكم بموجبه باتفاق الأمة لأنه مناقض لدين الإسلام، مضاد لما بعث الله به رسوله ﷺ.

أما وقف المسلم عليهم: فإنه يصح منه ما وافق حكم الله ورسوله، فيجوز أن يقف على معين منهم، أو على أقاربه، وبني فلان ونحوه.

ولا يكون الكفر موجبًا ولا شرطًا في الاستحقاق ولا مانعًا منه – فلو وقف على ولده أو أبيه أو قرابته استحقوا ذلك وإن بقوا على كفرهم، فإن أسلموا فأولى بالاستحقاق.

وأما الوقف على كنائسهم وبيعهم ومواضع كفرهم التي يقيمون فيها شعار الكفر: فلا يصح من كافر ولا مسلم. فإن في ذلك أعظم الإعانة لهم على الكفر والمساعدة والتقوية عليه، وذلك مناف لدين الله[1].

٣- عيادتهم وتهنئتهم

روى البخاري في كتاب الجنائز عن أنس ﷺ قال: كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ فمرض فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه فقال له: أسلم. فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال له: أطع أبا القاسم ﷺ فأسلم، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «الحمد لله الذي أنقذه من النار»[2].

---

(١) أحكام أهل الذمة ٢٩٩/١، ٣٠٢ وانظر مجموعة الرسائل والمسائل ٢٢٩/١.

(٢) ٢١٩/٣ ح١٣٥٦.

وروى أيضًا: قصة أبي طالب حين حضرته الوفاة فزاره النبي ﷺ وعرض عليه الإسلام[١].

قال ابن بطال: إنما تشرع عيادته إذا رجي أن يجيب إلى الدخول في الإسلام، فأما إذا لم يطمع في ذلك فلا[٢].

قال ابن حجر: والذي يظهر: أن ذلك يختلف باختلاف المقاصد، فقد يعق بعيادته مصلحة أخرى[٣].

أما تهنئتهم بشعائر الكفر المختصة بهم فحرام بالاتفاق، وذلك مثل أن يهنئهم بأعيادهم فيقول: عيدك مبارك، أو تهنأ بهذا العيد، فهذا إن سلم قائله من الكفر فهو من المحرمات، وهو بمنزلة أن يهنئه بسجوده للصليب، بل ذلك أعظم إثمًا عند الله، وأشد مقتًا من التهنئة بشرب الخمر وقتل النفس وارتكاب الفرج الحرام ونحوه.

وكثير مما لقدر للدين عنده يقع في ذلك، ولا يدري قبح ما فعل. فمن هنأ عبدًا بمعصية، أو بدعة أو كفر فقد تعرض لمقت الله وسخطه، وقد كان أهل الورع من أهل العلم يتجنبون تهنئة الظلمة بالولايات، وتهنئة الجهال بمنصب القضاء والتدريس والإفتاء تجنبًا لمقت الله وسقوطهم من عينه. «وإن بلي الرجل فتعاطاه دفعًا لشر يتوقعه منهم فمشى إليهم و لم يقل إلا خيرًا ودعا لهم بالتوفيق والتسديد فلا بأس بذلك»[٤].

ويدخل في هذا أيضًا: تعظيمهم ومخاطبتهم بالسيد والمولى وذلك حرام قطعًا، ففي الحديث المرفوع: «لا تقولوا للمنافق سيد فإنه إن يك سيدًا فقد أسخطتم ربكم ﷻ»[٥].

---

(١) صحيح البخاري كتاب الجنائز ٣/٢٢٢ ح١٣٦٠.
(٢) فتح الباري ١٠/١١٩.
(٣) فتح الباري ١٠/١١٩.
(٤) أحكام أهل الذمة لابن القيم ١/٢٠٥، ٢٠٦.
(٥) سنن أبي داود كتاب الأدب ٥/٢٥٧ ح٤٩٧٧ قال الألباني: إسناده صحيح. انظر: المشكاة ٣/١٣٤٩ ح٤٧٨٠.

ولا يجوز أيضًا تلقيبهم – كما يقول ابن القيم – بمعز الدولة أو فلان السديد، أو الرشيد أو الصالح ونحو ذلك. ومن تسمى بشيء من هذه الأسماء لم يجز للمسلم أن يدعوه به، بل إن كان نصرانيًا قال: يا نصراني، يا صليبي، ويقال لليهودي: يا يهودي.

ثم قال ابن القيم بالنص: «... وأما اليوم فقد وقفنا إلى زمان يصدرون في المجالس، ويقام لهم وتقبل أيديهم ويتحكمون في أرزاق الجند، والأموال السلطانية، ويكنون بأبي العلاء وأبي الفضل، وأبي الطيب، ويسمون حسنًا وحسينًا وعثمان وعليًّا! وقد كانت أسماؤهم من قبل: يوحنا ومتى وجرجس وبطرس وعزرا وأشعيا، وحزقيل وحبيي، ولكل زمان دولة ورجال»[1] اهـ.

وإذا كان هذا كلام العلامة ابن القيم وهو المتوفي سنة ٧٥١هـ رحمه الله.

فلينظر المسلم اليوم إلى هذا الغثاء الذي هو كغثاء السيل، ينتسبون للإسلام وهم يتبعون أعداء الله في كل صغيرة وكبيرة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلوه، وليست تبعية لهم فحسب بل إنها تبعية بإعجاب وانبهار! فما تمر بأعدائنا مناسبة إلا وتنهال التهاني عليهم من كل حدب وصوب بالتهنئة والتبريك ومعسول الأماني!!

٤- حكم السلام عليهم

اختلف العلماء في معنى قوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام حين دعا أباه فأبى قال إبراهيم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ﴾ [مريم: ٤٧].

فأما الجمهور فقالوا: المراد بسلامه المسألة التي هي المشاركة لا التحية. وقال الطبري: معناه: أمنة مني لك. وعلى هذا لا يبدأ الكافر بالسلام[2]. وقال بعضهم في معنى تسليمه: هو تحية مفارق. وجوز تحية الكافر وأن يبدأ بها قيل لابن عيينة: هل يجوز السلام على الكافر؟ قال: نعم. قال الله تعالى:

---

(١) أحكام أهل الذمة ٧٧١/٢.

(٢) تفسير القرطبي ١١١/١١، ١١٢.

﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة: ٨].

وقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقال إبراهيم لأبيه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾.

قال القرطبي: قلت: والأظهر من الآية ما قاله سفيان بن عيينة[1].

وفي هذا الشأن حديثان: فقد روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تبدؤوا اليهود ولا النصارى بالسلام، فإذا لقيتم أحدهم في الطريق فاضطروه إلى أضيقه»[2].

وفي الصحيحين عن أسامة بن زيد أن النبي ﷺ ركب حمارًا عليه أكاف تحته قطيفة فدكية، وأردف وراءه أسامة بن زيد، وهو يعود سعد بن عبادة في بني الحرث ابن الخزرج وذلك قبل وقعة بدر، حتى مر في مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان، واليهود، وفيهم عبد الله بن أبي ابن سلول، وفي المجلس عبد الله بن رواحة، فلما غشيت المجلس عجاجة الداية خمّر عبد الله بن أبي أنفه بردائه ثم قال: لا تغبروا علينا، فسلم عليهم النبي ﷺ[3] الحديث.

قال القرطبي: «فالأول يفيد ترك السلام عليهم ابتداء، لأن ذلك إكرام والكافر ليس أهله والثاني: يجوز ذلك. قال الطبري: ولا يعارض ما رواه أسامة بحديث أبي هريرة، فإنه ليس أحدهما خلاف للآخر، وذلك أن حديث أبي هريرة مخرجه العموم، وخبر أسامة يبين أن معناه الخصوص: قال النخعي إذا كانت لك حاجة عند يهودي أونصراني فابدأ بالسلام».

فبان بهذا أن حديث أبي هريرة: «لا تبدؤوهم بالسلام» إذا كان لغير سبب

---

(١) تفسير القرطبي ١١/١١١، ١١٢.

(٢) صحيح مسلم كتاب السلام ١٧٠٧/٤ ح٢١٦٧ وأبو داود في الأدب ٣٨٤/٥ ح٥٢٠٥.

(٣) صحيح البخاري كتاب الاستئذان ٣٨/١١ ح٦٢٥٤ ومسلم في الجهاد ١٤٢٢/٣ ح ١٧٩٨.

يدعوكم إلى أن تبدؤوهم بالسلام من قضاء ذمام أو حاجة تعرض لكم قبلهم، أو حق صحبة أو جوار أو سفر.

قال الطبري: قد روي عن السلف أنهم كانوا يسلمون على أهل الكتاب وفعله ابن مسعود بدهقان صحبه في طريقه قال له علقمة: يا أبا عبد الرحمن أليس يكره أنه يبدؤوا بالسلام؟ قال: نعم. ولكن حق الصحبة.

وقال الأوزاعي: إن سلمت فقد سلم الصالحون قبلك وإن تركت فقد ترك الصالحون قبلك وروي عن الحسن البصري أنه قال: إذا مررت بمجلس فيه مسلمون وكفار فسلم عليهم[١].

قال ابن القيم: إن صاحب هذا الوجه – أي من أجاز ابتداءهم بالسلام – قال: يقال له: السلام عليك. فقط بدون ذكر الرحمة، وبلفظ الإفراد[٢].

أما رد السلام عليهم فاختلف في وجوبه: فالجمهور على وجوبه وهو الصواب. وقالت طائفة: لا يجب الرد عليهم كما لا يجب على أهل البدع وأولى.

والصواب الأول: والفرق: أنا مأمورون بهجر أهل البدع تعزيزًا لهم وتحذيرًا منهم بخلاف أهل الذمة[٣].

قلت: ومما يرجح رأي الجمهور في وجوب الرد على أهل الكتاب قوله ﷺ: «إذا سلم عليكم اليهود فإنما يقول أحدهم: السام عليكم. فقل وعليك»[٤] وقوله ﷺ: «إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم»[٥].

---

(١) تفسير القرطبي ١١٢/١١.

(٢) زاد المعاد ٤٢٥/٢.

(٣) زاد المعاد ٤٢٥/٢.

(٤) صحيح البخاري كتاب الاستئذان ٤٢/١١ ح٦٢٥٧ ومسلم في السلام ١٧٠٦/٤ ح٢١٦٤.

(٥) صحيح البخاري كتاب الاستئذان ٤٢/١١ ح٦٢٥٨ ومسلم في السلام ١٧٠٥/٤ ح٢١٦٣.

المبحث الثالث: الانتفاع بالكفار وبما عندهم

إن الإسلام يتسامح في أن يتلقى المسلم من غير المسلم ما ينفعه في علم الكيمياء والفيزياء والفلك والطب والصناعة والزراعة والأعمال الإدارية وأمثال ذلك. وهذا حين تنعدم الاستفادة من هذه العلوم من مسلم تقي[١].

كذلك يجوز الانتفاع بهم في دلالة الطريق وما عندهم من سلاح وملابس وغير ذلك من الحاجات التي يحتاجها الناس، وجرت العادة فيها أن المسلم والكافر يستويان في الانتفاع بها.

ولكن الإسلام لا يبيح بل يرفض أن يتلقى المسلم أي شيء يتعلق بعقيدته أو مقومات تصوره، أو تفسير قرآنه وسنة نبيه ﷺ أو منهج تاريخه أو نظام حكمه ومنهج سياسته أو موجبات أدبه وتعبيره ممن لا يؤمن بهذا الإسلام[٢].

وقد سبق في أول هذا البحث أن قلنا: إن المسلمين وقعوا في غلطة كبرى حين استوردوا فلسفة اليونان وتصوف الهنود والفرس لأنها غثاء إذا مزج بالتصور الإسلامي التقي نتج من ذلك خليط من غبش العقيدة وانحراف التصورات.

وأحسنوا حين ترجموا كتب الطب والكيمياء ودفعهم ذلك إلى اكتشاف علوم جديدة منها علم الجبر. فقد كانت العقلية الإسلامية المتنورة بنور الله قادرة على الابتكار والإبداع في المجال العلمي بكل ميادينه وفي المجال الأدبي والثقافي.

ذلك أن لديهم من مقومات هذه العقيدة ومقتضياتها ما يدفعهم للعمل بجد وصبر. وهم يعلمون أن ذلك جزء من عبادة الله. لأن نفع ما توصلوا إليه لم ينفعهم هم

---

(١) انظر: معالم في الطريق ص١٣١، ١٣٢ وانظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٤/ ١١٤.

(٢) انظر: المصدر السابق معالم في الطريق ص١٣١.

فحسب بل تعدى ذلك إلى كافة الناس حتى إن أوروبا ظلت قرونًا طوالاً تعتمد على النظريات الإسلامية والأبحاث التي ابتكرها المسلمون. وانعكس هذا على التقدم العلمي الذي توصل إليه الغرب في القرون الأخيرة، بعد أن نام المسلمون، وتركوا مركز القيادة والريادة في كل شيء حتى جاءت الأجيال التي نشهدها اليوم فإذا بها عالة على تلاميذ أجدادها بالأمس!

من أجل ذلك نقول: ونحن نستبشر بالخير حيث بدأ الزحف الإسلامي اليوم في كل أرض – أنه ينبغي للمسلمين أن يعرفوا ماذا يأخذون من غيرهم فيستفيدون به، وماذا يتركونه لئلا يقعوا فيما وقع فيه من قبلهم.

إن عليهم أن يجعلوا هذه العقيدة الإسلامية هي القاعدة التي يقوم عليها البناء الإسلامي من جديد ثم يستوردون من غير المسلمين ما ينقصهم في المجال (العلمي البحت) ويكون هذا الاستيراد بحذر وذكاء، حيث تصاغ هذه العلوم بصياغة علمية مؤمنة سليمة من صياغة الملاحدة ودعاة «اللادين».

وقد يقول قائل: وما دخل الأسلوب العلمي البحت في الأسلوب الديني؟

والجواب: أنه لا فصل بين دين وعلم، بل الدين الإسلامي هو دين العلم. وصياغة الأسلوب العلمي من منطلق إسلامي صحيح يغرس في النفوس إيمانًا عميقًا بقدرة الخالق ﷻ وعظيم صنعه وإبداعه في هذا الكون بكل ما فيه.

ثم إن هذا الاعتراض فيه مغالطة ظاهرة: فإنه مهما ادعى المتجردون للأسلوب العلمي أنهم «حياديون» فإنه يستحيل أن تكون صياغة من تلقي نظرية ماركس أو فرويد أو دوركايم لنظرية علمية ما، مثل صياغة من كان بنفس الكفاءة العلمية ولكنه تلقى عقيدة «لا إله إلا الله» من مشكاة محمد بن عبد الله ﷺ.

وهذا أمر ظاهر لا يستطيع أن ينكره إلا مكابر أو جاهل يجهل أنه يغالط نفسه.

وأدلة الانتفاع بالكفار نجدها في سنة رسول الله ﷺ فقد ورد في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره في كتاب الإجارة باب استئجار المشركين عند

الضرورة أو إذا لم يوجد أهل الإسلام عن عائشة رضي الله عنها واستأجر النبي ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الديّل ثم بني عبد بن عدي هاديًا خريتًا – الخريت: الماهر بالهداية – قد غمس يمين حلف في آل العاصي بن وائل وهو على دين كفار قريش فأمناه، فدفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال، فأتاهما براحلتيهما صبيحة ليال ثلاث فارتحلا[١] الحديث. قال ابن القيم: اسمه عبد الله بن أريقط الدؤلي وفي استئجاره وهو كافر: دليل على جواز الرجوع إلى الكافر في الطب والأدوية والحساب والعيوب ونحوها، ما لم يكن ولاية تتضمن عدالة ولا يلزم من مجرد كونه كافرًا أن لا يوثق به في شيء أصلاً، فإنه لا شيء أخطر من الدلالة في الطريق ولا سيما في مثل طريق الهجرة[٢].

قال ابن بطال: عامة الفقهاء، يجيزون استئجارهم – أي المشركين – عند الضرورة وغيرها لما في ذلك من المذلة لهم، وإنما الممتنع أن يؤاجر المسلم نفسه من المشرك لما فيه من إذلال المسلم[٣]. ولكن ما هو الحكم لو آجر المسلم نفسه من كافر؟

والجواب على ذلك: ما رواه البخاري أيضًا عن خباب ﷺ قال: كنت رجلاً قينًا فعملت للعاص بن وائل فاجتمع لي عنده، فأتيته أتقاضاه فقال: لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: أما والله حتى تموت ثم تبعث فلا. قال: وإني لميت ثم مبعوث؟

قلت: نعم. قال: فإنه سيكون لي ثَم مال وولد، فأقضيك: فأنزل الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧﴾ [مريم: ٧٧][٤].

قال المهلب: كره أهل العلم ذلك – أي مؤاجرة نفسه من مشرك في أرض الحرب – إلا لضرورة بشرطين: **أحدهما** أن يكون عمله فيما يحل للمسلم فعله. **والآخر**: أن

(١) صحيح البخاري كتاب الإجارة ٤/٤٤٢ ح٢٢٦٣.
(٢) بدائع الفوائد ٣/٢٠٨.
(٣) فتح الباري ٤/٤٤٢.
(٤) صحيح البخاري كتاب الإجارة باب هل يؤاجر الرجل نفسه من مشرك في أرض الحرب؟ ٤/٤٥٢ ح٢٢٧٥.

لا يعينه على ما يعود ضرره على المسلمين[١].

أما استئجار المشرك في الغزو فقد ورد النهي بذلك. ففي الحديث الذي رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: خرج رسول الله ﷺ قبل بدر، فلما كان بحرة الوبرة[٢] أدركه رجل، قد كان يذكر منه جرأة ونجدة، ففرح أصحاب رسول الله ﷺ حين رأوه. فلما أدركه قال رسول الله ﷺ: جئت لأتبعك وأصيب معك قال له رسول الله ﷺ: «تؤمن بالله ورسوله»؟ قال: لا. قال: «فارجع فلن أستعين بمشرك» قالت: ثم مضى حتى إذا كان بالشجرة أدركه الرجل فقال له كما قال أول مرة: فقال له النبي ﷺ كما قال أول مرة قال: «فارجع فلن أستعين بمشرك» قال: ثم رجع فأدركه بالبيداء فقال له كما قال أول مرة: «تؤمن بالله ورسوله»؟ قال: نعم. فقال له رسول الله ﷺ: «فانطلق»[٣].

ولكن الحازمي[٤] قال: اختلف أهل العلم في هذا الباب:

فذهبت جماعة إلى منع الاستعانة بالمشركين مطلقًا، وتمسكوا بظاهر هذا الحديث. وقالوا: هذا حديث ثابت عن النبي ﷺ وما يعارضه لا يوازيه في الصحة والثبوت فتعذر ادعاء النسخ لهذا.

وذهبت طائفة: إلى أن للإمام أن يأذن للمشركين أن يغزوا معه ويستعين بهم ولكن بشرطين:

١) أن يكون في المسلمين قلة وتدعو الحاجة إلى ذلك.

---

(١) فتح الباري ٤/٤٥٢.

(٢) موضع على بعد أربعة أميال من المدينة.

(٣) صحيح مسلم كتاب الجهاد ٣/١٤٩٩ ح١٨١٧.

(٤) هو الإمام أبو بكر محمد بن موسى بن عثمان بن حازم المعروف بالحازمي من رجال الحديث أصله من همذان، ولد سنة ٥٤٨هـ وتوفي ببغداد سنة ٥٨٤هـ الأعلام للزركلي ٧/١١٧ ط٤.

٢) أن يكونوا ممن يوثق بهم فلا تخش ثائرتهم.

فمتى فقد هذان الشرطان لم يجز للإمام أن يستعين بهم، قالوا: ومع وجود الشرطين يجوز الاستعانة بهم. وتمسكوا في ذلك بما رواه ابن عباس أن رسول الله ﷺ استعان بيهود بني قينقاع، واستعان بصفوان بن أمية في قتال هوازن يوم حنين، قالوا: وتعين المصير إلى هذا لأن حديث عائشة رضي الله عنها كان يوم بدر وهو متقدم فيكون منسوخًا[1]. ثم قال: «ولا بأس أن يستعان بالمشركين على قتال المشركين إذا خرجوا طوعًا ولا يسهم لهم»[2].

ويدعم ابن القيم هذا الرأي وهو يتحدث عن فوائد صلح الحديبية فيقول: الاستعانة بالمشرك المأمون في الجهاد جائزة عند الحاجة لأن عينه ﷺ الخزاعي كان كافرًا إذ ذاك، وفيه من المصلحة أنه أقرب إلى اختلاطه بالعدو وأخذه أخبارهم[3].

وقال في فوائد غزوة حنين: للإمام أن يستعير سلاح المشركين وعدتهم لقتال عدوه، كما استعار رسول الله ﷺ أدرع صفوان بن أمية وهو يومئذ مشرك[4].

وتبعه الإمام محمد بن عبد الوهاب فقال: الانتفاع بالكفار في بعض أمور الدين ليس مذمومًا لقصة الخزاعي[5].

ونخلص إلى القول:

إن الانتفاع بالكفار وبما عندهم من العلوم التي هي من اجتهاد الإنسان أمر جائز في الإسلام وأدلته كثيرة سبق ذكر بعضها، ومنها أيضًا: مزارعة رسول الله ﷺ لليهود

---

(١) الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار للحازمي ص٢١٩ تحقيق راتب حاكمي.
(٢) المصدر السابق ص٢٢٠.
(٣) زاد المعاد ٣٠١/٣ وقصة الخزاعي فيتاريخ الطبري ٦٢٥/٢.
(٤) زاد المعاد ٤٧٩/٣ والقصة في السيرة لابن هشام ٨٣/٤ وتاريخ الطبري ٧٣٠٣.
(٥) ملحق مصنفات الإمام محمد بن عبد الوهاب ص٧.

في خيبر على أن يعملوها ويزرعوها ولهم شطر ما يخرج منها[١].

أما إجارة المسلم نفسه لهم فجائز إذا لم يكن في ذلك تعظيم لدينهم أو شعائرهم أو ما فيه ذلة ومهانة له. وأما الاستعانة بهم في الغزو فجائز ولكن ذلك منوط بإمام المسلمين إذا رأى أن المصلحة تقتضي استخدامهم وإلا فلا.

ومع هذا فإنه يجب الاحتراز ومنع استعمال الكفار في شيء من ولايات المسلمين التي يكون فيها سلطة لهم على المسلمين كالدواوين فإن في ذلك جناية على الإسلام والمسلمين، ففضلاً عن أن ذلك مخالفة صريحة لحكم الشرع الإسلامي وهيمنته على الأرض فإنه أيضًا إذلال صريح للمسلمين حتى الذين توهموا أن ذلك أمر جائز. وإليك بعضًا من النصوص والحوادث التاريخية الهامة التي يبدو فيها كيد أعداء الله للإسلام والمسلمين حين تولوا هذه المناصب الهامة.

روى الإمام أحمد بإسناد صحيح عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قلت لعمر ﷺ إن لي كاتبًا نصرانيًا. قال: مالك؟ قاتلك الله؟ أما سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١]. ألا اتخذت حنيفًا؟ قال: قلت: يا أمير المؤمنين لي كتابته، وله دينه، قال: لا أكرمهم إذا أهانهم الله ولا أعزّهم إذا أذلهم الله، ولا أدنيهم إذا أقصاهم الله[٢].

وكتب عمر ﷺ أيضًا إلى أبي هريرة كتابًا جاء فيه: «... ولا تستعن في أمر من أمور المسلمين بمشرك. وساعد على مصالح المسلمين بنفسك فإنما أنت رجل منهم غير أن الله تعالى جعلك حاملاً لأثقالهم[٣].

---

(١) الحديث في صحيح البخاري كتاب المزارعة باب المزارعة مع اليهود ١٥/٥ ح٢٣٣١.

(٢) هكذا ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم ص٥٠ من هذا الحديث أحمد و لم أجده في مسند أبي موسى، وقد أورده البيهقي في السنن الكبرى ١٢٧/١٠ كتاب القاضي.

(٣) أحكام أهل الذمة ٢١٢/١ ح٧.

وكتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلى بعض عماله: «أما بعد: فإنه بلغني أن في عملك كاتبًا نصرانيًا يتصرف في مصالح الإسلام، والله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [المائدة: ٥٧].

فإذا أتاك كتابي هذا فادع حسان بن زيد – يعني ذلك الكاتب – إلى الإسلام فإن أسلم فهو منا ونحن منه، وإن أبى فلا تستعن به ولا تتخذ أحدًا على غير دين الإسلام في شيء من مصالح المسلمين فأسلم حسان وحسن إسلامه»[١].

ولما فشا استخدام أهل الكتاب في مصالح المسلمين أيام الخلافة العباسية نهض أحد العلماء بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذا الشأن وهو شبيب بن شيبة[٢] فقد استأذن على أبي جعفر المنصور فأذن له فقال: « ... يا أمير المؤمنين اتق الله فإنها وصية الله، إليكم جاءت وعنكم قبلت، وإليكم تؤدى، وما دعاني إلى قولي إلا محض النصيحة لك والإشفاق عليك، وعلى نعم الله عندك. اخفض جناحك إذا علا كعبك وابسط معروفك إذا أغنى الله يديك. يا أمير المؤمنين إن دون بابك نيرانًا تأجج من الظلم والجور لا يعمل فيها بكتاب الله ولا سنة نبيه محمد ﷺ.

يا أمير المؤمنين سلطت الذمة على المسلمين، ظلموهم وعسفوهم، وأخذوا ضياعهم وغصبوهم أموالهم، وجاروا عليهم، واتخذوك سلمًا لشهواتهم، وإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئًا يوم القيامة. فقال المنصور خذ خاتمي فابعث به إلى من تعرفه من المسلمين وقال: يا ربيع! اكتب إلى الأعمال واصرف من بها من الذمة. ومن أتاك به شبيب فأعلمنا بمكانه لنوقع باستخدامه، فقال شبيب: يا أمير المؤمنين: إن المسلمين لا

---

(١) المصدر السابق ٢١٤/١.

(٢) شبيب بن شيبة بن عبد الله التميمي المنقري الأهتمي. أديب الملوك وجليس الفقراء، وأخو المساكين كان يقال له «الخطيب» لفصاحته وكان شريفًا من الدهاة، يفزع إليه أهل بلده في حوائجهم. انظر: ترجمته في شذرات الذهب ٢٥٦/١ وتهذيب التهذيب ٣٠٧/٤ والأعلام ١٥٦/٣.

يأتونك وهؤلاء الكفرة في خدمتك، إن أطاعوهم أغضبوا الله، وإن أغضبوهم أغروك بهم، ولكن تولي في اليوم الواحد عدة، فكلما وليت رجلاً عزلت آخر[١].

وخلاصة القول: إنه ينبغي التفريق بين استخدام الكافر كشخص بمفرده في أمر من الأمور وبين استخدامه كصاحب سلطة ونفوذ في أمر من أمور الدولة الإسلامية.

فالأول جائز وبه وردت أدلة سبق ذكرها كما علمت.

والثاني لا يجوز لمنافاته مضمون وروح الشريعة الإسلامية وهدفها الأساسي وهو أن تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

والخير كل الخير في أن يعتمد المسلمون على أنفسهم من أجل أن تبقى الأمة الإسلامية أمة متميزة ذات طابع خاص، مصبوغة بصبغتها الربّانية التي أرادها الله لها.

سائلين المولى سبحانه أن يأتي باليوم الذي يعود فيه المسلمون لدينهم الصحيح وقد استغنوا في كل أمورهم وشؤونهم عن الكفار وسائر الأعداء، وما ذلك على الله بعزيز.

التقية والإكراه

وهما أمران ورد حكمهما في الشريعة الإسلامية لبيان حالات معينة من حالات الضررورة التي قد تعرض للمسلم.

تعريف التقية:

عرفها حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما فيما روي عنه أنه قال: التقاة: التكلم باللسان وقلبه مطمئن بالإيمان[٢].

---

(١) المصدر السابق ٢١٥/١ هذا وقد وردتني ملاحظات قيمة من إخوة فضلاء بخصوص هذا الموضوع حيث مالوا فيها إلى ترجيح عدم الاستعانة بالمشرك. وأنا قد ذكرت الرأيين في هذا ولعلي في طبعة قادمة إن شاء الله أتوسع في هذا الموضوع وأعيد صياغته، والله الموفق.

(٢) تفسير الطبري ٢٢٨/٣، ٢٢٩.

وقال أبو العالية: التقية باللسان وليس بالعمل[١].

وقال ابن حجر العسقلاني: التقية الحذر من إظهار ما في النفس من معتقد وغيره للغير[٢].

وقال الأستاذ سيد قطب: التقية: تقية اللسان لا ولاء القلب، ولا ولاء العمل وليس من التقية المرخص بها أن تقوم المودة بين المؤمن وبين الكافر، كما أنه ليس من التقية أن يعاون المؤمن الكافر بالعمل في صورة من الصور باسم التقية فما يجوز هذا الخداع على الله[٣].

متى تكون التقية؟

قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ [آل عمران: ٢٨].

قال البغوي: نهى الله المؤمنين عن موالاة الكفار ومداهنتهم ومباطنتهم إلا أن يكون الكفار غالبين ظاهرين أو يكون المؤمن في قوم كفار يخافهم فيداريهم باللسان وقلبه مطمئن بالإيمان دفعًا عن نفسه من غير أن يستحل دمًا حرامًا أو مالاً حرامًا، أو يظهر الكفار على عورة المسلمين. والتقية لا تكون إلا مع خوف القتل وسلامة النية قال تعالى:

﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ ثم هذه رخصة فلو صبر حتى قتل فله أجر عظيم[٤].

---

(١) تفسير الطبري ٣/٢٢٨، ٢٢٩.
(٢) فتح الباري ١٢/٣١٤.
(٣) انظر الظلال ١/٣٨٦.
(٤) تفسير البغوي ١/٣٣٦ وانظر أحكام القرآن للجصاص ٢/٢٨٩.

وقال ابن القيم: معلوم أن التقاة ليست بموالاة، ولكن لما نهاهم عن موالاة الكفار اقتضى ذلك معاداتهم والبراءة منهم، ومجاهرتهم بالعدوان في كل حال إلا إذا خافوا من شرهم فأباح لهم التقية وليست التقية موالاة لهم[١]. ولأن باب التقاة باب يمكن أن ينفذ منه الشيطان بسهولة يزين للضعفاء ومرضى القلوب أن يركنوا إلى أعداء الله قال بعدها مباشرة:

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٢٨﴾ [آل عمران: ٢٨].

يحذركم في الدنيا أن تتخذوا هذا الباب تكئة، وتستسهلوا هذه الكبيرة – وهي موالاة أعداء الله – وينذركم أن إليه المصير فيجازيكم على ما فعلتم في الدنيا، فلا تحسبوا أن ترتكبوا هذه الكبيرة في الأرض – مخادعين أنفسكم أو مخادعين الناس – ثم تنجوا من عذاب الله في الآخرة[٢].

وقال ابن جرير الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةًۗ﴾ [آل عمران: ٢٨].

أي إلا أن تكونوا في سلطانهم فتخافوهم على أنفسكم فتظهروا لهم الولاية بألسنتكم وتضمروا العداوة، ولا تشايعوهم على ما هم عليه من الكفر ولا تعينوهم على مسلم بفعل[٣].

الإكــراه

قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠٦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى

---

(١) بدائع الفوائد ٣/٦٩.

(٢) دراسات قرآنية ٣٢٦، ٣٢٧.

(٣) التفسير ج٣/٢٢٨.

ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [النحل: ١٠٦، ١٠٧].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت الآية – الأولى – في عمار بن ياسر، وذلك أن المشركين أخذوه وأباه وأمه سمية وصهيبًا وبلالاً وخبابًا وسالمًا. فأما سمية فإنها ربطت بين بعيرين ووجيء قبلها بحربة فقتلت وقتل زوجها ياسر، وهما أول قتيلين قتلا في الإسلام وأما عمار فإنه أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهًا، فأخبر النبي ﷺ بأن عمارًا كفر، فقال: «كلا: إن عمارًا ملئ إيمانًا من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه»(١) فأتى عمار رسول الله ﷺ وهو يبكي فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه وقال: «إن عادوا لك فعد لهم بما قلت»(٢) فأنزل الله هذه الآية(٣).

قال الطبري في معنى الآية: من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره على الكفر فنطق بكلمة الكفر بلسانه وقلبه مطمئن بالإيمان، موقن بحقيقته، صحيح عليه عزمه، غير مفسوخ الصدر بالكفر، لكن من شرح بالكفر صدرًا فاختاره وآثره على الإيمان، وباح به طائعًا: فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم(٤).

وسبب ذلك: أنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة فأقدموا على ما أقدموا عليه من الردة لأجل الدنيا(٥).

شروط الإكراه

قال ابن حجر: شروط الإكراه أربعة:

---

(١) هذا اللفظ ضعيف وإنما اللفظ الصحيح هو ما رواه الحاكم في مستدركه ٣/٣٩٢، ٣٩٣ وكذلك النسائي في كتاب الإيمان ٨/١١١ هكذا: «ملئ عمار إيمانًا إلى مشاشه» وهو حديث صحيح كما قال الألباني: انظر صحيح الجامع الصغير ٥/٢١١ ح٥٧٦٤ وسلسلة الأحاديث الصحيحة ٢/٤٦٦ ح٨٠٧.

(٢) حديث مرسل ورجاله ثقات انظر فتح الباري ١٢/٣١٢.

(٣) أسباب النزول للواحدي ١٦٢ وانظر تفسير الطبري ١٤/١٨٢ وتفسير ابن كثير ٤/٥٢٥.

(٤) تفسير الطبري ١٤/١٨٢.

(٥) تفسير ابن كثير ٤/٥٢٥.

١) أن يكون فاعله قادرًا على إيقاع ما يهدد به، والمأمور عاجز عن الدفع ولو بالفرار.

٢) أن يغلب على ظنه أنه إذا امتنع أوقع به ذلك.

٣) أن يكون ما هدد به فوريًا، فلو قال: إن لم تفعل كذا ضربتك غدًا، لا يعد مكرهًا. ويستثنى ما إذا ذكر زمنًا قريبًا جدًّا، أو جرت العادة بأنه لا يخلف.

٤) أن لا يظهر من المأمور ما يدل على اختياره.

ولا فرق بين الإكراه على القول والفعل عند الجمهور، ويستثنى من الفعل ما هو محرم على التأبيد كقتل النفس بغير حق[١].

قال الخازن: قال العلماء: يجب أن يكون الإكراه الذي يجوز له أن يتلفظ معه بكلمة الكفر أن يعذب بعذاب لا طاقة له به مثل التخويف بالقتل والضرب الشديد، والإيلامات القوية مثل التحريق بالنار ونحوه[٢]. وأجمعوا أيضًا: على أن من أكره على الكفر لا يجوز له أن يتلفظ بكلمة تصريحًا، بل يأتي بالمعاريض وبما يوهم أنه كفر، فلو أكره على التصريح يباح له ذلك بشرط طمأنينة القلب على الإيمان، غير معتقد ما يقوله من كلمة الكفر، ولو صبر حتى قتل كان أفضل لفعل ياسر وسمية وصبر بلال على العذاب[٣].

لقد كان بلال ﷺ تفعل به الأفاعيل حتى إنهم ليضعون الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر ويأمرونه أن يشرك بالله فيأبى عليهم ويقول: أحد. أحد. ويقول: — والله لو أعلم كلمة أغيظ لكم منها لقلتها[٤].

---

(١) فتح الباري ١٢/٣١١، ٣١٢.

(٢) تفسير الخازن ٤/١١٧.

(٣) تفسير الخازن ٤/١١٧.

(٤) انظر تفسير ابن كثير ٤/٥٢٥.

وكذلك حبيب بن زيد الأنصاري[1] لما قال مسيلمة الكذاب: أتشهد أن محمدًا رسول الله؟

قال: نعم. فيقول أتشهد أني رسول الله؟ فيقول: لا أسمع فلم يزل يقطعه إربًا إربًا وهو ثابت على ذلك[2].

وكما فعل الصحابي الجليل عبد الله بن حذافة السهمي[3]: فإنه لما أسرته الروم جاءوا به إلى ملكهم فقال له: تنصر وأنا أشركك في ملكي وأزوجك ابنتي، فقال له: لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب على أن أرجع عن دين محمد طرفة عين ما فعلت. فقال: إذًا أقتلك قال: أنت وذاك، فأمر به فصلب، وأمر الرماة فرموه قريبًا من يديه ورجليه وهو يعرض عليه دين النصرانية فيأبى، ثم أمر به فأنزل، ثم أمر بقدر، وفي رواية ببقرة من نحاس فأحميت، وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر، فإذا هو عظام تلوح، وعرض عليه فأبى، فأمر به أن يلقى فيها، فرفع في البكرة ليلقى فيها، فبكى فطمع فيه ودعاه فقال له: إني إنما بكيت لأن نفسي إنما هي نفس واحدة تلقى في هذه القدر الساعة في الله، فأحببت أن يكون لي بعدد كل شعرة في جسدي نفس تعذب هذا العذاب في الله!

وفي بعض الروايات: أنه سجنه ومنع عنه الطعام والشراب أيامًا ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير فلم يقربه، ثم استدعاه فقال: ما منعك أن تأكل؟ قال: أما إنه قد حل لي ولكن لم أكن لأشمتك في، فقال له الملك: فقبل رأسي وأنا أطلقك، فقال: وتطلق معي

---

(١) حبيب بن زيد بن عاصم بن عمرو الأنصاري أخو عبد الله بن زيد ذكره ابن إسحاق فيمن شهد العقبة من الأنصار وقال: هو الذي أخذه مسيلمة فقتله. قال ابن سعد: شهد حبيب أُحدًا والخندق والمشاهد. الإصابة ٣٠٧/١.

(٢) تفسير ابن كثير ٥٢٥/٤.

(٣) هو عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم القرشي السهمي وأمه آمنة بنت حرثان من بني الحارث، وهو من السابقين الأولين، يقال إنه شهد بدرًا، ولم يذكره موسى ابن عقبة ولا ابن إسحاق ولا غيرهما من أصحاب المغازي. وقصته مع ملك الروم ذكرت سابقًا. انظر ترجمته في الإصابة ٢٩٦/٢ وتهذيب التهذيب ١٨٥/٥.

جميع أسارى المسلمين، قال: نعم فقبل رأسه فأطلقه وأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده، فلما رجع قال عمر بن الخطاب: حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة، وأنا أبدأ، فقام فقبل رأسه[١].

أنواع الإكراه

١) **الإلجاء:** حيث ينعدم الرضا والاختيار، وتنتفي الإرادة والقصد، وذلك بالوقوع تحت التعذيب الشديد أو نحو ذلك، وهذه الحالة هي التي نزلت فيها آية النحل: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦][٢].

٢) **التهديد:** حيث ينعدم الرضا، ولا ينعدم الاختيار تمامًا وهذه في مثل الحالة التي يختار فيها الإنسان أخف الضررين مثل حال شعيب عليه السلام مع قومه إذ خيروه بين العودة إلى الكفر أو الخروج من قريتهم ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩)﴾ [الأعراف: ٨٨، ٨٩]. فلا تجوز الاستجابة لمثل هذا الإكراه لهذا النص ولقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠)﴾ [العنكبوت: ١٠][٣].

---

(١) تفسير ابن كثير ٥٢٦/٤.

(٢) كتاب حد الإسلام وحقيقة الإيمان للأستاذ عبد المجيد الشاذلي ص٥٢٣ مكتوب بالآلة الكاتبة.

(٣) كتاب حد الإسلام وحقيقة الإيمان للأستاذ عبد المجيد الشاذلي ص٥٢٣ مكتوب بالآلة الكاتبة.

٣) **الاستضعاف**: وهنا لا تعذيب ولا تهديد ولكن المستضعف داخل تحت وضع مفروض عليه من غيره كالمقيم في مكة بعد هجرة المسلمين عنها، فإذا كان دخوله تحت هذا الوضع لعجزه عن دفعه وعن الخروج منه، ولو أمكنه ذلك لفعل مهما كانت تضحياته وتكاليفه فهذا قد عفا الله عنه[1]. أما إذا كان قادرًا على الدفع أو الخروج و لم يفعل ذلك إيثارًا للعاقبة فقد سبق كلام الشيخ ابن عتيق وغيره في ذلك.

قال ابن تيمية: تأملت المذاهب فوجدت الإكراه يختلف باختلاف المكره عليه فليس الإكراه المعتبر في كلمة الكفر كالإكراه المعتبر في الهبة ونحوها، فإن أحمد قد نص في غير موضع، أن الإكراه على الكفر لا يكون إلا بالتعذيب من ضرب وقيد، ولا يكون الكلام إكراهًا[2].

كلمة أخيرة حول الإكراه

إنه من المهم والواجب التفريق بين الإكراه وبين مشاعر الخوف التي تتزاوج مع مشاعر الرجاء والتعظيم فإن هذه مشاعر عبادة.

كما أنه يجب أن نفرق بين الاستضعاف وبين الهزيمة الداخلية، والاستكانة للعدو والركون إليه وفقدان الثقة في الله وترك التوكل عليه.

ذلك أن الإنسان يملك في أحلك الظروف قوة عظيمة – هي قوة الرفض بقلبه – وهذه القوة سماها رسول الله ﷺ جهادًا في قوله: «... ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»[3].

فالانهزام أمام الباطل والموالاة التي يحتاجها الباطل حتى وهو قوي لابد من الامتناع عنها وهذا هو جهاد القلب، والله سبحانه يقول للمؤمنين بعد وقعة أحد: ﴿وَكَأَيِّن مِّن

---

(١) المصدر السابق ٥٢٦.

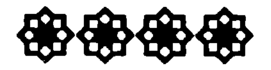
(٢) نقلاً عن الدفاع لابن عتيق ص٣٠.

(٣) صحيح مسلم كتاب الإيمان ١/٧٠ ح٥٠.

نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤٦-١٥٠].

وقال الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود: «بحسب امرئٍ يرى منكرًا لا يستطيع أن يغيره أن يعلم الله من قلبه أنه له كاره» ودلالة الكره: الاعتزال وعدم المشايعة بالعمل.

إن استعلاء القلب على الهزيمة الداخلية، وبقاء قوة رفضه للباطل مهما استطال وانتفش وقوة ضبطه للسلوك لتأكيد الاعتزال وعدم المشايعة بالعمل لهو جهاد القلب وإنه لجهاد له أثره الواقع في حياة الناس[(١)].



(١) بتصرف: حد الإسلام للشاذلي ٥٢٧، ٥٢٨.

الباب الثالث

الصورة التطبيقية للولاء والبراء في الماضي والحاضر

الفصل الأول

كيف طبق السلف الولاء والبراء

تحدثت فيما سبق عن أمثلة من الأمم الماضية التي سبقت الأمة المحمدية ومر معنا بعض الأمثلة والنماذج في عهد النبوة. ولكن ذلك الجيل مليء بالصور المشرقة. لذلك رأيت أن أزيد هذا الأمر وضوحًا وتحليلاً بذكر نماذج أخرى لما لها من أهمية كبرى.

وكل قول لا يدعمه التطبيق العملي يعد زعمًا باطلاً لا يمت للحقيقة بصلة ولا للواقع ببرهان.

لذلك فإن التطبيق الواقعي للولاء والبراء هو المقتضى الصحيح والوجه المشرق لمبدأ كلمة التوحيد «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

وإنه من المعلوم بالضرورة أن سلف الأمة رضوان الله عليهم هم خير من طبق هذه العقيدة بكل مقتضياتها وتكاليفها.

والحديث عن السلف ممتع وجميل، بل هو من الحوافز العملية التي سجلها تاريخ الأمة المسلمة ليكون ذلك مَعْلمًا من معالم الهداية والرشاد لمن جاء بعدهم، ليستن

بسنتهم وينهج نهجهم.

وقد كانوا رضوان الله عليهم يقدرون النعمة التي أنعم الله بها عليهم وهي نعمة الإيمان.

ويقدرون أيضًا فضل نور الله وشريعته الغرّاء التي بعث بها نبيه محمدًا ﷺ

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقدروا رحمهم الله تربية المصطفى ﷺ وأهمية سنته الشريفة قولاً وفعلاً وأدركوا أنهم « لم يكونوا خدمة جنس، ورسل شعب أو وطن، يسعون لرفاهيته ومصلحته وحده، ويؤمنون بفضله وشرفه على جميع الشعوب والأوطان، ولم يخرجوا ليؤسسوا امبراطورية عربية ينعمون ويرتعون في ظلها، ويشمخون ويتكبرون تحت حمايتها ويخرجون الناس من حكم الروم والفرس إلى حكم العرب وإلى حكمهم أنفسهم. إنما قاموا ليخرجوا الناس من عبادة العباد جميعًا إلى عبادة الله وحده كما قال ربعي بن عامر رسول المسلمين في مجلس يزدجر: «الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده. ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».. «فالأمم عندهم سواء والناس عندهم سواء. الناس كلهم من آدم وآدم من تراب.. لم يبخلوا بما عندهم من دين وعلم وتهذيب على أحد، ولم يراعوا في الحكم والإمارة والفضل نسبًا ولونًا ووطنًا، بل كانوا سحابة خير انتظمت البلاد وعمت العباد، وغوادي مزنة أثنى عليها السهل والوعر، وانتفعت بها البلاد والعباد على قدر قبولها وصلاحها»[١].

ويصعب علي هنا أن أذكر معظم الوقائع والمواقف التي برز فيها تطبيق الولاء والبراء عند سلف الأمة رحمهم الله. ولكنني أقتصر على القليل من ذلك لإعطاء فكرة صادقة وصورة حية، وأمثلة مشرقة لتلك النماذج الإيمانية التي أراد الله أن يحقق بها

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص١٢٦، ١٢٧ بتصرف بسيط.

مثالية هذا الدين، ليعلم الناس أن هذا الدين مثالي واقعي[1] في آن واحد إذا وجد الأكفاء الجديرون بحمله وتبليغه للناس بصدق، وأمانة، وطهر ونقاء، وإخلاص وتجرد وابتغاء ما عند الله.

ومن هذه الأمثلة: موقف صحابة رسول الله ﷺ من كعب بن مالك ﷺ ومن معه من المخلفين الثلاثة، حيث قاطعوهم وهجروهم لتخلفهم عن غزوة تبوك.

وانظر إلى هذه المقاطعة لثلاثة من صحابة رسول الله ﷺ يصلون خلف رسول الله ﷺ في مسجد أسس على التقوى: لقد هجروهم و لم يكلموهم حتى في التحية الإسلامية!!

فمن يا ترى من المسلمين اليوم يتبرأ من الذين يحادون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادًا؟!

أما الموقف العظيم الذي يبرز فيه ولاء المسلم لدينه وإخوانه المؤمنين، حتى وهذا المؤمن مهجور من إخوانه وأحبابه، مقاطع عنهم حتى في رد السلام. مبتلى بإغراء مادي عظيم، ومحسّن له المنصب ورفعة المكان في الدنيا: فهو موقف الصحابي الجليل كعب بن مالك ﷺ، فإنه – كما جاء في حديثه الطويل – لما أمر الرسول ﷺ صحابته بهجره ومن معه، حتى زوجته ذهبت إلى أهلها فاجأه أمر عجيب وخطير في آن واحد.

يقول كعب ﷺ: «... فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له، حتى إذا جاءني دفع إلي كتابًا من ملك غسان فإذا فيه: أما بعد قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك. فقلت

---

(١) للوقوف على فكرة صحيحة فيما يتعلق بمثالية الإسلام وواقعيته حبذا مراجعة كتاب خصائص التصور الإسلامي للأستاذ سيد قطب فصل الواقعية. وكتاب منهج التربية الإسلامية للأستاذ محمد قطب ج١ الفصل الأخير وكتاب الإنسان بين المادية والإسلام فصل نظرة الإسلام.

لما قرأتها: وهذا أيضًا من البلاء، فتممت بها التنور فسجرته بها»[١].

لقد صدق كعب ﷺ في قوله: «وهذا أيضًا من البلاء» أجل إنه بلاء عظيم، ولقد كان ولاء كعب ﷺ رغم ما هو فيه من شدة وهجر ومع دواعي الإغراء والإغواء لله ولدينه ورسوله والمؤمنين، وكان براؤه من ملك غسان واضحًا في حرقه لكتاب ذلك الملك.

فانظر إلى هذه العظمة وهذا الصدق في الولاء والحب للإسلام والمسلمين والبعد عن كل ما يصرف عن ذلك من متاع الدنيا ووجاهتها التي لا تساوي عند الله جناح بعوضة.

قال ابن حجر وهو يشرح قصة كعب: دل صنيع كعب هذا على قوة إيمانه ومحبته لله ولرسوله وإلا فمن صار في مثل حاله من الهجر والإعراض قد يضعف عن احتمال ذلك، وتحمله الرغبة في الجاه والمال على هجران من هجره، ولا سيما مع أمنه من الملك الذي استدعاه إليه أنه لا يكرهه على فراق دينه لكن لما احتمل عنده أنه لا يأمن من الافتتان حسم المادة وأحرق الكتاب ومنع الجواب... ورجح ما هو فيه من النكد والتعذيب على ما دعي إليه من الراحة والنعيم حبًا في الله ورسوله كما قال ﷺ: «وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»[٢].

ومثال آخر: قصة الصحابي الجليل عبد الله بن حذافة السهمي وموقفه مع ملك الروم، حيث أغراه حتى بمشاطرته ملكه فرفض، وهدده بالقتل والحرق فأبى أن يتنصر. كل ذلك دلالة واضحة، وبرهان صادق لعمق ذلك الولاء ورسوخ هذه العقيدة في تلك النفوس العظيمة. ولئن كان موقف عبد الله بن عبد الله بن أبي – الذي تحدثنا عنه سابقًا – عظيمًا في منعه أباه من دخول المدينة إلا بإذن رسول الله ﷺ، فإن موقف

---

(١) القصة بطولها في صحيح البخاري كتاب المغازي باب حديث كعب بن مالك ١١٣/٨ ح٤٤١٨ وانظر القصة أيضًا في تفسير الطبري ٦٠/١١ وابن كثير ١٦٦/٤ - ١٦٨.

(٢) فتح الباري ١٢١/٨ والحديث سبق تخريجه وانظر تعليق ابن القيم على القصة في زاد المعاد ٥٨١/٣.

أبي عبيدة ﷺ أعجب من ذلك وأعظم فقد قتل أباه في معركة بدر لأنه كان كافرًا محاربًا لله ورسوله، ولم تكن صلة الأبوة لتمنعه دون تنفيذ الولاء والنصرة لله ورسوله ودينه والمؤمنين. والبراءة والجهاد لعدو الله الذي رضي بالبقاء في حزب الشيطان ليكون حربًا على المؤمنين.

ومثال آخر: فقد روت كتب السير أن زيد بن الدثنة[1] ﷺ، اشتراه صفوان بن أمية – بعد يوم الرجيع – ليقتله بأبيه أمية بن خلف، وخرجوا بزيد إلى التنعيم حيث اجتمع رهط من قريش فيهم أبو سفيان بن حرب فقال له أبو سفيان حين قدم ليقتل: أنشدك الله يا زيد، أتحب أن محمدًا عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وأنك في أهلك؟

قال زيد: والله ما أحب أن محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأني جالس في أهلي فقال: أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحدًا يحب أحدًا كحب أصحاب محمد محمدًا، ثم قتلوا زيدًا ﷺ[2].

فانظر إلى هذا الحب وهذا التفاني وذلك الولاء، وقوة النصرة! إنه ﷺ وهو في مكانه البعيد عن رسول الله – لا يرضى أن تمس رسول الله ﷺ شوكة، فضلاً عن أن يصيبه أكبر من ذلك!!

هذا هو الولاء الصادق الذي بنته هذه العقيدة في النفوس فأخرجت للناس هذه النماذج العظيمة التي تقصر دون عظمتها كل عظمة أرضية.

ومثال آخر: روى الإمام أحمد وغيره أن أنس بن النضر ﷺ غاب عن قتال بدر فقال: غيبت عن أول قتال قاتله رسول الله ﷺ المشركين؟ لئن الله أشهدني قتالاً

---

(١) زيد بن الدثنة: بفتح الدال وكسر المثلثة ابن معاوية بن عبيد بن عامر بن بياضة الأنصاري شهد بدرًا وأُحدًا وكان في غزوة بئر معونة فأسره المشركون وقتلته قريش بالتنعيم. انظر الإصابة ١/٥٦٥.

(٢) انظر القصة في السيرة لابن هشام ٣/١٨١.

للمشركين ليرين الله ما أصنع. فلما كان يوم أُحد انكشف المسلمون فقال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء – يعني أصحابه – وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء – يعني المشركين – ثم تقدم فلقيه سعد بن معاذ دون أحد فقال: أنا معك، قال سعد فلم أستطع أن أصنع ما صنع، قال فوجد فيه بضع وثمانون ضربة سيف وطعنة رمح ورمية سهم فكانوا يقولون فيه وفي أصحابه نزل قوله تعالى:

﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ [الأحزاب: ٢٣] (١).

إن سلفنا الصالح رضوان الله عليهم كانوا شديدي الاعتزاز بدينهم فلم تخدعهم المظاهر الجوفاء، ولا القوى والاعتبارات التي تتعبد الناس في الجاهلية، وأصدق مثال على ذلك قصة ربعي بن عامر ﷺ حين قابل رستم، فقد كان الفرس مدججين بالسلاح وعليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب، ووضعوا البسط والنمارق في مجلس رستم وله سرير من الذهب، فأقبل ربعي يسير على فرس له زباء(٢) قصيرة، معه سيف غمده لفافة ثوب خلق، ورمح وجحفة(٣) وقوس فلما انتهى إلى أدنى البسط قيل له انزل فحملها على البساط فلما استوت عليه نزل عنها وربطها بوسادتين فشقهما ثم أدخل الحبل فيهما، فلم يستطيعوا أن ينهوه ثم قالوا له: ضع سلاحك، فقال: إني لم آتكم فأضع سلاحي بأمركم أنتم دعوتموني، فإن أبيتم أن آتيكم كما أريد رجعت، فأخبروا رستم فأذن له وقال: هل هو إلا رجل واحد! فأقبل ربعي يتوكأ على رمحه وزجه نصل يقارب الخطو، ويزج النمارق والبسط، فما ترك لهم نمرقة ولا بساطًا إلا أفسده وتركه منهتكًا مخرقًا، فلما دنا من رستم تعلق به الحرس، وجلس على الأرض وركز رمحه بالبسط، فقالوا: ما حملك على هذا؟ قال: إنا لا نستحب القعود على زينتكم هذه! فكلمه فقال: ما جاء بكم؟ قال: الله ابتعثنا والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل

---

(١) مسند أحمد ٣٠١/٣ وتفسير ابن كثير ٣٩٤/٦.

(٢) الزباء: أي طويلة الشعر كثيرته.

(٣) الجحفة: الترس.

الإسلام فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه ورجعنا عنه، وتركناه وأرضه يليها دوننا، ومن أبى قاتلناه أبدًا، حتى نفضي إلى موعود الله، قال: وما موعود الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي. فقال رستم: قد سمعت مقالتكم فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا؟ قال: نعم. كم أحب إليكم؟ أيومًا أو يومين؟ قال: لا بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا، وأراد مقاربته ومدافعته فقال: إن مما سن لنا رسول الله ﷺ وعمل به أئمتنا ألا نمكن الأعداء من آذاننا، ولا نؤجلهم عند اللقاء أكثر من ثلاث، فنحن مترددون عنكم ثلاثًا فانظر في أمرك وأمرهم، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل، اختر الإسلام وندعك وأرضك، أو الجزاء فنقبل ونكف عنك. وإن كنت عن نصرنا غنيًا تركناك منه، وإن كنت إليه محتاجًا منعناك أو المنابذة في اليوم الرابع، ولسنا نبدؤك فيما بيننا وبين اليوم الرابع إلا أن تبدأنا، وأنا كفيل لك بذلك على أصحابي وعلى جميع من ترى، قال: أسيدهم أنت؟ قال: ولا لكن المسلمين كالجسد بعضهم من بعض، يجير أدناهم على أعلاهم[1].

ومما يوضح أيضًا صورة الولاء في نفوس أولئك الأخيار قوله ﷺ في غزوة تبوك: «إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا، ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم قالوا: وهم بالمدينة؟ قالوا: وهم بالمدينة حبسهم العذر» متفق عليه[2].

فانظر إلى هذا الولاء والتناصر حتى ممن حبسهم العذر، لأن هذا أمر لا عذر لهم في تركه، فهم مع إخوانهم بالدعاء والمتابعة.

أما اليوم فيرى المغرورون والمبهورون والمنهزمون أن الكفار – كما قال أحدهم – خصوم شرفاء، بل يرونهم أصدقاء أوفياء.

ولكن الذي يجب على المسلمين اليوم أن يفهموه: هو أن الاقتداء بسيرة رسول الله

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٥١٩، ٥٢٠.

(٢) صحيح البخاري كتاب المغازي ٨/١٢٦ ح٤٤٢٣ وصحيح مسلم كتاب الإمارة ٣/ ١٥١٨ ح١٩١١.

ﷺ وسلفنا الصالح في كل شيء، وفي قضية الولاء والبراء من باب أخص هو الأمر المطلوب منهم وليس عليهم بعد ذلك أن تقوم أصوات أرباب التبعية والولاء للغرب الكافر والشرق الملحد لتنادي بما قاله وردده من قبلهم أن هذا الفعل رجعية وتقهقر. بل إن عزم المسلمين المخلصين على تحقيق مقتضيات هذه العقيدة والإصرار على تحكيم الشريعة الربانية هو سبيل النجاح وطريق الفلاح، في الدنيا والآخرة وجدير بهم أن يرتفعوا إلى المستوى المطلوب منهم

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩].



الفصل الثاني

صورة الولاء والبراء في عصرنا الحاضر

إنه بعد أن سبق بيان قضية الولاء والبراء في التصور الإسلامي، ووقفنا على مدى أهمية هذا الموضوع، وبعد سياق تلك الأمثلة المشرقة من تاريخ الصدر الأول من هذه الأمة: لابد أن نقف عند وضع المسلمين في العصر الحاضر، لنرى أين يقف المسلمون اليوم من هذه القضية وما مدى التزامهم بها أو تخليهم عنها؟ وما الذي حل بهم؟ وهل هناك مبشرات لتغيير هذا الواقع المؤلم؟

وإنه لمن البدهي هنا أن نقول: إن العالم الإسلامي في العصور المتأخرة قد بلغ دركات الانحطاط والتخلف في كل شيء.

انحطاط في عقيدته حيث ترك ما عليه السلف الصالح وذهب إلى خزعبلات وحواشي علم الكلام الدخيل والخوض في نقاشات بيزنطية لا تمت للواقع ولا تصلحه بأي حال بل تزيده فسادًا وانهيارًا.

وانحطاط في التزامه بمقتضيات هذه العقيدة من الجهاد والتميز والعزة حيث استبدل بذلك كله التصوف والخرافات والتواكل، مما أطمع العدو فيهم على هذه الحال.

وتخلف في جميع المجالات العلمية وترك مكان القيادة إلى ذلة التبعية فبعد أن كان المسلمون هم الرواد في كل علم نافع جاء الخلف ليترك ذلك الميراث العظيم الذي أخذه أعداء هذا الدين واستفادوا به ودفعهم إلى ما وصلوا إليه الآن.

وأخيرًا فقد أعطى هؤلاء الخلف للناس: صورة هزيلة رديئة عن الإسلام، جعلت أعداء هذا الدين يتكالبون عليه من كل حدب وصوب طامعين في إطفاء نور الله، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. ولقد غزت العالم الإسلامي جيوش كثيرة وعديدة، وهي على كثرتها وضراوتها العسكرية لم تكتف بهذا يل نوعت أساليب

الهجوم، فاستخدمت بعد الهجوم العسكري – الغزو الفكري الخبيث الذي فعل في «المسلمين» ما لم تفعله الجيوش الجرارة!

وأول ما حرص عليه الأعداء هو بث سموم التشكيك وقلب المفاهيم حيث أخذ ينشر أمثال هذه الأفكار: «ما للدين ونظام المجتمع؟ ما للدين والاقتصاد؟ ما للدين وعلاقات الفرد بالمجتمع وبالدولة؟ ما للدين والسلوك العملي في واقع الحياة، ما للدين والملبس وخاصة ملابس المرأة؟ ما للدين والفن؟ ما للدين والصحافة والإذاعة والسينما والتليفزيون؟ وباختصار: ما للدين والحياة؟ ما للدين والواقع الذي يعيشه البشر على الأرض؟»[١].

وكان هدف الاستعمار – كما يقول الشيخ محمد الغزالي -: «تكوين جيل يستحي من الانتساب للإسلام، ويكره أن يرى وهو يقوم بشيء من شعائره، خصوصًا بين المثقفين الكبار! والطبقات التي تهيأ للحكم والنفوذ».

الواحد من هؤلاء يحب أن يراه الناس خارجًا من حانة، ولا يحب أن يروه خارجًا من مسجد ومن السهل عليه أن يوصف بأنه زنى بعشر نسوة، لكن وجهه يسود لو قيل: متزوج من اثنتين أما أن يفكر في تلاوة آيات من القرآن أو يرجع إلى شيء من سنّة رسول الله فذلك ما لا يخطر له ببال[٢].

وأفلح الاستعمار أيضًا في تكوين جيل يرفض العمل تحت لواء الإسلام، وهذا الجيل هو «الطابور الخامس» الذي ألحق بنا الهزائم في كل ميدان[٣].

وحتى لا يكون الحديث مجرد عاطفة أو هجوم – كما يقال ذلك – أرى أن أثبت هنا نصوصًا صريحة واضحة نطق بها أعداؤنا الكفار ونفذوها تدل على مدى عمق عداوتهم للإسلام والمسلمين وأنهم لا يريدون إلا الشر والكيد بهذا الدين وطمس

---

(١) هل نحن مسلمون ص١١٠.

(٢) كفاح دين ص١٤٧ ط٣.

(٣) انظر حصاد الغرور ص٣٩.

معالمه، وفي هذه النصوص أيضًا عظة وعبرة للمتغافلين والمنهزمين والمبهورين بهم من أبناء جلدتنا ومن الذين ينطقون بلغتنا ويتسمون بأسمائنا. ثم يحكم المنصف بعد قراءتها هل تحقق شيء منها أم لا؟

يقول القس زويمر في مؤتمر القدس سنة ١٩٣٥م وهو يخاطب المبشرين بالنصرانية في العالم الإسلامي ما نصه: «... إن مهمة التبشير التي ندبتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية – ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية – فإن في هذا هداية لهم وتكريمًا (!!) وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقًا لا صلة له بالله وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها، ولذلك تكونون أنتم بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية. وهذا ما قمتم به خلال الأعوام المائة السالفة خير قيام، وهذا ما أهنئكم عليه وتهنئكم دول المسيحية والمسيحيون جميعًا من أجله كل التهنئة»[1] وسترد بقية هذه الكلمة. ومع وضوح هذا النص الصليبي الحاقد وجد من «المستسلمين» – وهو محسوب من العلماء – من يقول إن قضية زمالة الأديان والتسامح بها والتقارب والالتقاء بينها أمر محبب كما قد سبق ذكر ذلك في الباب الثاني. مما يدل على مدى الغفلة وعمق الجهل بحقيقة الإسلام وبحقيقة عداوة أعدائه له.

ويقول لويس التاسع: إن الغزو العسكري لا يكفي لهزيمة المسلمين ولكن لابد من غزو عقيدتهم.

ثم نجد عدوًا آخر يقول – وهو يتابع عودة المسلمين إلى إسلامهم -: «ألا إن ثمة قوة جديدة بدأت تظهر ألا وهي الدعوة إلى إسلام «متزمت» والسعي عن طريق الإسلام إلى نظام حياة لا يكون نسخة عن نظام آخر ولا تقليدًا له، بل يكون خاصًا بهويته وتقاليده ومصالحه المعنوية والمادية»[2].

---

(١) جذور البلاء للأستاذ عبد الله التل ص٢٧٥ ط٢.

(٢) الجنرال بيار غالوا. عن مجلة المجتمع الكويتية العدد ٤٥٠ ص٤ سنة ١٣٩٩هـ.

ويقول وليم جيفورد بالكراف: «متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة التي لم يعده عنها إلا محمد وكتابه»[١].

وبالرغم من مئات النصوص التي تشبه ما ذكرنا، والتي مؤداها جميعًا: طمس الإسلام وإخراج المسلمين من إسلامهم فقد وجد للأسف في بلاد المسلمين من كان عونًا لهؤلاء الأعداء على خططهم، أو من ميع قضايا الإسلام في سبيل ملاينة أعداء الله.

يقول الأستاذ عبد القادر عودة رحمه الله: إن بعض الأقطار التي تسمي نفسها إسلامية، تبيح للمبشرين من الإنجليز والفرنسيين والإيطاليين والأمريكيين أن ينشئوا مدارس للتبشير بالدين المسيحي في بلادهم حتى تفتن أطفالنا المسلمين عن دينهم، بل إن بعض الأقطار منع تعليم الدين الإسلامي في المدارس الحكومية وأهمل دراسة التاريخ الإسلامي في الوقت الذي يركز فيه الاهتمام بتدريس تاريخ أوروبا وتمجيد حضارتها وأنها هي قبلة الرقي والمدنية[٢].

وإذا كان هذا على مستوى الحكومات، فإن الأفراد أشد إيغالاً في ذلك وهم صنفان:

١) صنف من العلماء الذين لهم مكانة في التاريخ الحديث، وكتب عنهم مجلدات فيها من المدح وألقاب الإصلاح ما الله به عليم، ولكن التاريخ كشف عن هوياتهم ومواقفهم. ومنهم عبد الرحمن الكواكبي، هذا الرجل الذي يعتبر من أسبق الناس ظهورًا في الدعوة إلى التفريق بين السلطة الدينية والسلطة السياسية. وقد أصدر كتاب «أم القرى» سنة ١٨٩٩م. وورد في هذا الكتاب آراء لم تخل من إشارات مريبة إلى موالاة الدول الأوروبية المستعمرة حيث قال فيما قال: «وكفتح أبواب

---

(١) الغارة على العالم الإسلامي ص٩٤ ط٢.

(٢) انظر الإسلام وأوضاعنا القانونية ص٧٥ ط٢.

حسن الطاعة للحكومات العادلة والاستفادة من إرشاداها وإن كانت غير مسلمة، وسد أبواب الانقياد المطلق ولو لمثل عمر بن الخطاب»[(١)].

أما الشيخ محمد عبده فكما يقول عنه الأستاذ غازي التوبة: قد تجاوز تعاونه مع الإنجليز المحتلين لمصر إلى التعاون مع الجواسيس المستشرقين في انكلترا نفسها، حيث تتضح ثقتهم المطلقة به، وتعاونه البعيد معهم في الرسالتين المبعوثتين إلى «المستر بلنت» جوابًا على سؤال الأخير عن رأي المفتي في الحالة السياسية الجديدة في مصر، وعن رأيه في الدستور المناسب لمصر. وقد أورد محمد رشيد رضا نص الرسالتين في الجزء الأول من تاريخه ص٨٩٩-٩٠٢ وورد في الرسالة الثانية الفقرة الثالثة قوله: «إذا فرض أن كان بعض الوزراء من الانكليز وكان لهم مرءوسون من المصريين فإنه ينبغي أن يعطي هؤلاء المرءوسون المصريون أو الوزراء الثانويون سلطة تسمح لهم بأن يفصلوا في جميع المسائل المختصة بالدين وما أشبه ذلك تحت مراقبة الوزراء الأصليين بحيث لا يكون الموظفون المصريون مجرد ألعوبة في أيديهم كما هو الحال الآن»[(٢)].

أما عباس محمود العقاد فيقول في كتابه «التفكير فريضة إسلامية»: «ما الذي يمنع المسلم أن يعمل للديمقراطية أو يعمل للاشتراكية. أو يعمل للوحدة العالمية؟».

وما الذي يمنع المسلم من أحكام دينه أن يقبل مذهب التطور أو يقبل الوجودية في صورها المثلى؟

إلى أن قال: إن عقيدة المسلم لا تمنعه من أن يكون اشتراكيًا[(٣)]. وأنا أعلم مثل ما علم غيري أن هذا الكلام قد يقابل بالاستنكار والاستغراب لأنه خلاف المعهود ولكن أقول ما قاله الأستاذ الدكتور محمد محمد حسين في كتابه القيم «الإسلام والحضارة الغربية» حيث قال: «نحن حين ندعو إلى إعادة النظر في تقويم الرجال لا نريد أن ننقص من قدر أحد، ولكننا لا نريد أن تقوم في مجتمعنا أصنام جديدة معبودة لأناس

(١) انظر كتاب أزمة العصر للدكتور محمد محمد حسين ١٨ - ٢٠ حول هذا الموضوع.
(٢) الفكر الإسلامي المعاصر. دراسة وتقويم ٣٥ - ٣٧.
(٣) موسوعة العقاد ٩٥٨/٥ وانظر الفكر الإسلامي لغازي التوبة ص١٧١.

يزعم الزاعمون أنهم معصومون من كل خطأ، وأن أعمالهم كلها حسنات لا تقبل القدح والنقد، حتى إن المخدوع بهم والمتعصب لهم والمروج لآرائهم ليهيج ويموج إذا وصف أحد الناس إمامًا من أئمتهم بالخطأ في رأي من آرائه، في الوقت الذي لا يهيجون فيه ويموجون حين يوصف أصحاب رسول الله ﷺ بما لا يقبلون أن يوصف به زعماؤهم المعصومون فيقبلون أن يوصم سيف الإسلام خالد بن الوليد بأنه قتل مالك بن نويره في حرب الردة طمعًا في زوجته، ويرددون ما شاع حول ذلك من أكاذيب. ويقبلون أن يلطخ تاريخ ذي النورين عثمان بن عفان بما ألصقه به، ابن سبأ اليهودي من تهم.. يقبلون ذلك كله ثم يرفضون أن يمس أحد أصنامهم بما هو أيسر منه، ويحتمون بحرية الرأي في كل ما يخالفون به إجماع المسلمين، ويأبون على مخالفيهم في الرأي هذه الحرية. يخطئون كبار المجتهدين من أئمة المسلمين ويجرحونهم بالظنون والأوهام ويثورون لتخطئة ساداتهم أو تجريحهم بالحقائق الدامغة[١].

إننا لابد أن نقول للمخطئ أنت مخطئ وللمصيب نقول: أحسنت وبارك الله فيك. لذا فإن انزلاق هؤلاء العلماء، أو غيرهم في قضية موالاة الكفار أو التساهل معهم في بعض الأمور بغير دليل شرعي أمر يرفضه الإسلام ويأباه لأن موضع القدوة لنا هو رسول الله ﷺ وصحابته الأجلاء وسلفنا الصالح وكفى. وليس من حق فرد – كائنًا من كان – أن يجعل من آرائه وعلمه سلمًا يرتقي عليه الموالون للكفار، ثم يزعم بعد هذا أنه داعية إسلامي، أو مصلح عظيم!!

٢) **أما الصنف الثاني:** فهم الذين صنعهم الاستعمار على عينه، ورباهم تربية أوروبية خالصة في التفكير والسلوك من أجل أن يكونوا أداة للتقريب بين المسلمين وبين المستعمر الأوروبي.

ومن هذا الصنف طه حسين الذي يقول في كتابه مستقبل الثقافة في مصر: «لكن السبيل إلى ذلك – أي الرقي – ليست في الكلام يرسل إرسالاً، ولا في المظاهر الكاذبة والأوضاع الملفقة، وإنما هي واضحة بينة ومستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء،

---

(١) الإسلام والحضارة الغربية ص٥٠.

وهي واحدة فذة ليس لها تعدد، وهي: أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادًا، ولنكون لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يحب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب[1].

وما دام أننا عرفنا هدف أعدائنا بصورة عامة، ووقفنا على حقيقة بعض مواقف المخدوعين بهم: فإنه لحري بنا أن نعرف بعض تفاصيل خططهم ورسائلهم التي منها:

١- التربية والتعليم

العلم كما يقال: سلاح ذو حدين، ومن هذا المنطلق أدرك أعداء الله من جميع الكفار أن صخرة العقيدة الإسلامية لا يمكن النيل منها عن طريق القوة والسلاح فهي قد أدمتهم كثيرًا، ولا يستطيعون الصمود أمام هتاف المجاهدين الصادقين في سبيل الله، ولذلك لجئوا إلى وسيلة أخرى هي أخبث في التأثير وأشد في الدهاء. وهذه الوسيلة هي غزو مناهج التربية والتعليم في العالم الإسلامي بأفكار ونظريات وشبهات وشكوك يضفي عليها – كذبًا وبهتانًا – ثوب التجرد العلمي، والبحث العلمي!! وسلك أعداء الإسلام في هذا سبيلين: **الأول**: السيطرة على التعليم في الداخل، **والثاني**: عن طريق الابتعاث إلى الدول الكافرة.

فأما الأمر الأول: فيقول عنه القس زويمر الذي أوردنا صدر كلمته سابقًا يقول أيضًا: «... لقد قبضنا أيها الإخوان في هذه الحقبة من الدهر من ثلث القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا على جميع برامج التعليم في الممالك الإسلامية المستقلة أو التي تخضع للنفوذ المسيحي أو التي يحكمها المسيحيون حكمًا مباشرًا، ونشرنا في تلك الربوع مكامن التبشير المسيحي والكنائس والجمعيات وفي المدارس الكثيرة التي تهيمن عليها الدول الأوروبية والأمريكية وفي مراكز كثيرة ولدى شخصيات لا تجوز الإشارة إليها، الأمر الذي يرجع الفضل فيه إليكم أولاً وإلى ضروب كثيرة من التعاون بارعة باهرة النتائج، وهي من أخطر ما عرف البشر في حياته الإنسانية كلها. إنكم أعددتم

---

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ٢٢٩/٢ ط بيروت والفكر الإسلامي للتوبة ص١٠٤.

بوسائلكم جميع العقول في الممالك الإسلامية إلى قبول السير في الطريق الذي مهدتم له كل التمهيد «إخراج المسلم من الإسلام» إنكم أعددتم نشئًا لا يعرف الصلة بالله ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من الإسلام و لم تدخلوه في المسيحية وبالتالي: جاء النشء الإسلامي طبقًا لما أراده له الاستعمار، لا يهتم بالعظائم ويحب الراحة والكسل، فإذا تعلم فللشهوات، وإذا جمع فللشهوات، وإن تبوأ أسمى المراكز ففي سبيل الشهوات يجود بكل شيء[1].

أجل صدق هذا القس وهو كافر أن هناك جيلاً تربى على ثقافة الغرب فخرج لا يعرف الصلة بالله أبدًا.

وانطلاقًا من مبدأ هذا الصليبي الحاقد قام «اللورد كرومر» – المعتمد البرطاني في مصر أيام الاحتلال – بإنشاء كلية فكتوريا حيث قصد بها تربية جيل من أبناء الحكام والزعماء والوجهاء في محيط إنجليزي ليكونوا من بعدهم أدوات المستعمر الغربي في إدارة شئون المسلمين[2].

وجاء «دنلوب» المتخرج من كلية اللاهوت البريطانية ليرسم سياسة التعليم في مصر، حيث وضع مناهج كفيلة بإخراج النماذج التي عناها القس زويمر «لا تعرف الصلة بالله».

ومصداق ذلك أن درس الدين لا يدرس منه إلا نتف يسيرة مثل: أن الإسلام جاء ليبطل عبادة الأوثان ويعبد الله الواحد، ويحرم وأد البنات. وأستاذ هذه المادة يختار من أسن الأساتذة وبمظهر رث، ثم تلغى مادة الدين في نهاية العام الدراسي[3].

أما مادة التاريخ فكان يخفى على الطالب فيها: أن الإسلام جاء ليحارب الشرك

---

(١) جذور البلاء ص٢٧٦.

(٢) الإسلام والحضارة الغربية للدكتور محمد محمد حسين ص٤٦.

(٣) انظر: هل نحن مسلمون ص١٣٦ - ١٣٨ ومذكرة المذاهب الفكرية المعاصرة للأستاذ محمد قطب لطلاب السنة المنهجية بالدراسات العليا في كلية الشريعة.

بكل مظاهره ويعطي نبذًا عن دراسة صدر الإسلام، وأن مهمة الإسلام تغيير ما كان عليه العرب في جاهليتهم ويركز فيه أيضًا على الجانب السياسي والصراع بين الطبقات الحاكمة. أما حياة المجتمع الإسلامي فلا شيء يذكر من ذلك.

وكذلك البطولات الإسلامية والحركة العلمية الإسلامية. كل ذلك يخفى عن الطلاب في الوقت الذي يدرس فيه بتوسع تاريخ أوروبا ونهضتها ورجالها وأبطالها وأنها بلد التقدم والرقي ومهبط المدنية لأن فيها فحم وحديد[١]!!

وخلاصة القول: إنه كان يلقن الطلاب أن أوروبا هي العملاق الضخم الذي لا يقهر. والإسلام هو القزم الضئيل الذي عليه أن يتعبد هذا العملاق ليعيش[٢]!

وأما السبيل الثاني: وهو الابتعاث إلى الخارج أي إلى الدول الكافرة فقد حقق هذا نتائج ترضي من خطط لها. ذلك أن هذا الابتعاث – في الغالبية العظمى منه – يكسر صفة التميز بين المسلم والكافر، ويجعل ولاء المسلم متذبذبًا وهو يرى ما بُهر به، ثم إنه يزيد الطالب جهالة بدينه وقيمه ومثله، ويزيده تعلقًا بالغرب أو الشرق ويبدأ بتطبيعه بطابع غير إسلامي، ثم يصير هذا التطبع – مع الزمن – طبعًا، ثم انسلاخًا من حيث يشعر الطالب أو لا يشعر فتجده في لبسه ومأكله ومشربه وكلامه وطريقة تعامله، غربيًا، أو شرقيًا بل ربما أكثر من ذلك[٣].

وكان من أوائل المبتعثين وأولهم سبقًا في خدمة ما أريد له: رفاعة الطهطاوي حيث مكث في فرنسا خمس سنوات من ١٨٢٦-١٨٣١م ولما رجع بدأ ينشر كلامًا يسمع للمرة الأولى في البيئة الإسلامية مثل: الوطن والوطنية والاهتمام بالتاريخ القديم ليدعم به المفهوم الوطني الجديد، ثم يتحدث عن الحرية وأنها سبيل التقدم وكذلك طالب بتقنين الشريعة على نمط المدونات القانونية الأوروبية، ثم يتحدث بكلام كثير وطويل

---

(١) انظر المصدرين السابقين.

(٢) هل نحن مسلمون؟ ص١٤١.

(٣) انظر أساليب الغزو الفكري للدكتور علي جريشة وزميله ٦٤، ٦٥.

عن المرأة؛ كتعليمها ومنع تعدد الزوجات وتحديد الطلاق واختلاط الجنسين(١).

وخلاصة ما يريده أعلام الإسلام في قضية التربية والتعليم هو ما قاله المستشرق «جب» في كتابه «وجهة الإسلام» حيث قال: «... والسبيل الحقيقي للحكم على مدى التغريب «أو الفرنجة» هو أن نتبين على أي حد يجري التعليم على الأسلوب الغربي، وعلى المبادئ الغربية، وعلى التفكير الغربي. والأساس الأول في كل ذلك: هو أن يجري التعليم على الأسلوب الغربي وعلى المبادئ الغربية، وعلى التفكير الغربي.. هذا هو السبيل الوحيد، ولا سبيل غيره، وقد رأينا المراحل التي مر بها طبع التعليم بالطابع الغربي في العالم الإسلامي، ومدى تأثيره على تفكير الزعماء المدنيين، وقليل من الزعماء الدينيين»(٢).

إن العالم «الإسلامي» كله اليوم يسير في تعليمه وتربيته العلمية على النهج الغربي والشرقي بدليل أن كل الجامعات – مثلاً – تدرس نظرية فرويد في البحوث النفسية ونظرية دوركايم في علم الاجتماع ونظرية ماركس الاشتراكية والشيوعية، ونظرية فريزر في علم مقارنة الأديان.

وينادي بإحياء الجاهليات التي سمّاها الله في كتابه وسنّة رسوله جاهلية: تدرس على أنها حضارة راقية ضاربة في أعماق التاريخ أكثر من سبعة آلاف سنة!!

وكذلك التغني بأمجاد أوروبا ومعرفة «أبطال» حضارتها، وفصل الدين عن الدولة، وأن الدين علاقة بين العبد وربه ولا دخل له في شئون الحياة... كل ذلك كان ثمارًا طبيعية للغزو الثقافي(٣).

وأخيرًا: فإن هذه المناهج التعليمية قد جردت المسلم من ولائه لله ورسوله ودينه

---

(١) يراجع في هذا بتوسع كتاب الإسلام والحضارة الغربية د. محمد محمد حسين ص١٧ - ٣٠.

(٢) عن الاتجاهات الوطنية ٢/ ٢١٧ ط٣.

(٣) حبذا الاطلاع بتوسع على رسالة «العلمانية وأثرها في العالم الإسلامي» للأستاذ سفر بن عبد الرحمن الحوالي.

وإخوانه المؤمنين ومحت عداوته لأعداء الله، فنشأ جيل لا يعرف الصلة بالله، ولا يقيم ولاءه وانتماءه على أساس عقيدته بل على ما تعلمه وانتسب إليه من المذاهب والانتماءات الجاهلية.

صورة من صور الولاء الفكري المعاصر

وتستوقفني هنا صورة واحدة أجد أن ذكرها هنا ذو أهمية بالغة ذلك أن هذه الصورة يظهر فيها بوضوح حب التبعية للغرب، مع الاعتزاز والفخار بالتعليم العلماني والمطالبة – وبإلحاح شديد – بعودته – إن كان قد فقد – وإلا ففتح الأبواب له على مصارعها إذا كان مضيقًا عليه.

كتب رئيس تحرير جريدة يومية مقالاً طويلاً بعنوان: «الإنسان العربي ومعضلة التعليم» وجاء هذا المقال في صفحتين كاملتين من الجريدة هما الصفحتان الثانية والثالثة.

وإليك مقتطفات من هذا المقال لترى فيه الصورة الصادقة للولاء والتبعية لأعداء الله.

قال الكاتب: «إن التعليم في البلاد العربية ارتبط بأسلوبين مختلفين: **الأول**: المنهج الذي وضعه دنلوب باشا البريطاني ناظر المعارف في مصر، والذي انعكست آثاره على بقية الرقعة العربية من خلال الاتفاقيات الثقافية الثنائية أو الجماعية ويقوم هذا المنهج التعليمي على إبطال القدرة على التفكير «وتفريخ» العديد من الكتبة الذين يؤدون وظائف روتينية لا تحتاج إلى أكثر من معرفة متقنة لقواعد القراءة والكتابة... وبنظرة مجردة نجد أن غالبية المتعلمين في بلادنا ينتمون إلى هذه المدرسة».

وصدق الكاتب في أكثر ما قاله هنا وإن كان اعتراضنا على منهج دنلوب لا يقتصر على هذه النقطة إنما ينصب ابتداء على نقطة أخطر منها بكثير هي تخريج أجيال من المسلمين لا تعرف حقيقة الإسلام بل تتجه إلى الانسلاخ من الإسلام والارتماء في تبعية ذليلة للغرب. ثم تابع معي ما يقول:

«والأسلوب الثاني في التعليم داخل الوطن العربي. بريطاني أيضًا، ويهدف هذا

الأسلوب – على خلاف الأول – إلى خلق مجموعات بشرية تمتلك القدرة على التفكير السليم بالأنماط الغربية!!» .

«وتجسد هذا الأسلوب في مدرستي كلية فكتوريا في الإسكندرية والقاهرة... وعلى خلاف ما قيل عن هذه المدارس التي أُتهمت بالتربية الاستعمارية أو الأدوار التبشيرية فإن الأدلة الدامغة تثبت أن معظم مفكري أبناء الأمة العربية الذين تلقوا تعليمهم الأولي والثانوي داخل منطقة الشرق الأوسط ينتمون إلى إحدى هاتين المدرستين ذلك لأن النظام التعليمي بهما يعتمد على أسلوب البحث العلمي (!) الذي ينمي في الطفل والشاب طوال مدارج التعليم: القدرة على التفكير السليم وإيجاد العلاقات بين الظواهر المختلفة.

وتتضح جدية هذا الدور التعليمي من واقع المناهج الدراسية المقررة التي كانت هي ذات المناهج المقررة على الطلبة البريطانيين بأسلوب اكسفورد وكامبردج في مراحل التعليم العام، المبدئي والإعدادي والثانوي... فالباعث الحقيقي لوضع هذا الأسلوب التربوي والتعليمي من خلال فكتوريا الإسكندرية والقاهرة كان يهدف «إلى» إيجاد مجموعات من أبناء البلاد العربية، بمستوى ثقافي قادر على التفاهم والتعامل مع الغرب في مواطن المعرفة العلمية، التي تربط بينهم بأسلوب المخاطبة المتعارف عليها (!).

واستطاع بالفعل أبناء الأمة العربية المتخرجون من هاتين المدرستين حتى بعد تلقيهم التعليم الجامعي سواء في بريطانيا أو أمريكا أو حتى داخل الوطن العربي أن يقوموا بأدوار واضحة في خدمة مصالح بلادهم من المواقع المختلفة نتيجة توافر القدرة لديهم في مخاطبة الغرب بالأسلوب العلمي المقبول والمفهوم نتيجة انسجام منطق التفكير عندهم مع المعطيات الحضارية المعاصرة (!)».

ثم تحدث الكاتب – وهو يؤدي دوره – عن الصراع بين مدرسة فكتوريا ومدرسة دنلوب وعن الرابطة التي جمعت بين خريجي كلية فكتوريا ثم قال إن هذه الرابطة ألغيت ولكن مع هذا الإلغاء «ظل الترابط والود» قائمًا بين هؤلاء الخريجين، حتى قامت رابطتهم الجديدة المنظمة بشكل دقيق في العاصمة البريطانية لندن. ولقد

أقيم هذا الاحتفال الجديد في يوم الجمعة ٤ مايو سنة ١٩٧٩م.

وبعد هذا تساءل الكاتب: لماذا ألغيت هذه الكلية مع أن مدرسة دنلوب لا تزال قائمة؟ ثم تحدث عن البديل للمناهج الهزيلة التي تدرس الآن فقال:

«وبغض النظر عن تعاطفي الشخصي مع كلية فكتوريا كمدرسة أجنبية وجدت على التراب العربي، تشرفت بالانتماء إليها: فإنني أجد أن الإسراع في فتحها الآن بالأنماط التعليمية التي كانت تمارسها من المنابع الفكرية السائدة في اكسفورد وكامبردج كفيلة بأن تمثل أولى الخطوات السليمة على الخط العلمي الذي نهدف إليه... ومن الممكن التوسع في فتح المدارس الأجنبية المختلفة البعيدة عن السمات التبشيرية وهي كثيرة وكفيلة بإخراج أنماط متعددة من التفكير العلمي السليم الذي يلتقي مع غيره من أنماط علمية سليمة أخرى، ليؤدي التفاعل بينها إلى خلق القدرة العربية في الوصول إلى أسلوب المخاطبة مع الغرب، والتعبير عن مصالحنا وأهدافنا القومية»[1].

إنني أعتقد أن هذه الفقرات التي أوردتها كافية في الدلالة على صدق صورة هذه الموالاة للغرب، وهي صادقة في براء هذا الفكر من الفكر الإسلامي السليم.

فالكاتب لا يرى في الإسلام بديلاً صالحًا للمناهج الهزيلة التي تدرس الآن في العالم الإسلامي، لأنه غير مقتنع بصلاحية الإسلام، الذي يربي المؤمنين على العقيدة الإسلامية الصحيحة وعلى الولاء الخالص الصادق لهذه العقيدة. مع البراء من كل دخيل عليها، والشعور بالاعتزاز بهذه المكرمة الربانية التي لا يستحق هذا الكاتب وأمثاله أن يتحلوا بها. لأنها لا تكون إلا للمؤمنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وليست لمجموعة من «أفراخ» التعليم الغربي الكافر.

فهل وعي ذو الحجى منا خطورة هؤلاء التلاميذ الذين ينشرون هذا الكلام في صحفنا ويضعون مناهج التعليم في بلادنا؟

اللهم بلغت اللهم فاشهد.

---

(١) جريدة عكاظ العدد الأسبوعي رقم ٤٧٢٨ بتاريخ ١٣٩٩/٦/١٦هـ.

٢- وسائل الإعلام

لوسائل الإعلام - الكتاب، القصة، الإذاعة، التليفزيون، المجلة، الجريدة، السينما وأخيرًا الفيديو - أثر كبير وخطير على جميع طبقات المجتمع وقد أدرك أعداء الإسلام خطورة هذه الوسائل وما لها من تأثير عميق فأحكموا قبضتهم عليها، وبثوا من خلالها ما رسموه لإفساد المسلمين وإخراجهم من إسلامهم.

وجميع هذه الوسائل تحرص - وبكل ما أوتيت - على فسخ وخلع ولاء المسلم لدينه وإخوانه المؤمنين وتركز بكل قوة على تذويب تميز المسلم عن غيره، وعلى زعزعة برائه وعداوته للكفار، حيث تحسن للناس: أن البلاد الصناعية هي بلاد الحرية وبلاد التقدم وبلاد العلم والرقي والمدنية وأن الذي يشعر أو يدين بالعداوة الدينية لهذه الشعوب العظيمة هو إنسان لم يعرف روح العصر وروح العلم الذي مزق الحواجز بين الأجناس ووصل القارات وجعل الناس أخوة في الشرق والغرب!! وهي البلاد التي يستطيع الإنسان فيها أن يمارس ما يشاء وكيف شاء!!

ولقد قامت وسائل الإعلام في البلاد الإسلامية - ولا تزال تقوم - بحرب شعواء على الدين الإسلامي وعلى المسلمين ففضلاً عن أنها تحسن وتدعو إلى موالاة الكفار: هي أيضًا حريصة على نشر الفاحشة في الذين آمنوا.

والمتتبع للصحف الصادرة في أوائل هذا القرن الميلادي يجد فيها صورة صادقة لما نقول فصحيفة المقطم - مثلاً - تجدها موالية للإنجليز، تعمل لحسابهم، وتصور أفعالهم بأنها أفعال إنسانية، حيث إنهم - أي الإنجليز - لم يقيموا في مصر إلا لرفع الظلم وإحياء العدل، وإليهم وحدهم يرجع الفضل في إنقاذ مصر من كل ما أصابها!! وكذلك كانت مجلة المقتطف تدور كتابتها وآراؤها حول هذا الموضوع[١].

وقد عملت هذه الصحف والمجلات المأجورة على إماتة الجهاد بمفهومه الأساسي الإسلامي الصحيح، وتردد ما يقوله أسيادها من أن المسلمين أناس همج يحبون الحروب

---

(١) انظر بتوسع الاتجاهات الوطنية ١/ ٩٠، ١١٣.

وسفك الدماء، ولا تتسع صدورهم للتسامح «لأنهم أناس متعصبون»؟!

فإذا أرادوا الخروج من هذه الوصمة فعليهم بالتسامح والتحبب للآخرين وتغيير النظرة إليهم، ويجب عليهم أن يبرءوا من ذلك «التراث» الذي يعمق تلك الروح المتعصبة في نفوسهم[١]!

وكذلك كانت مجلة الهلال والمقتطف على «تطوير الفكر الإسلامي وإشرابه الروح العلمانية التحررية التي سادت أوروبا في القرن التاسع عشر»[٢].

ومن المهام التي عنيت بها وسائل الإعلام: إشاعة الفاحشة، والإغراء بالجريمة، والسعي بالفساد في الأرض لخلخلة العقيدة وتحطيم الأخلاق وإذا انهدم الركنان الأساسيان – وهما العقيدة والأخلاق – فكيف يرجى بعد ذلك قيام بناء سليم[٣]؟

وإذا كان هذا هو تأثير وسائل الإعلام بوجه عام، فكيف إذا علمنا أن معظم القائمين على هذه الصحف والمجلات، أناس كفار، قد ملئت صدورهم حقدًا وكراهية لهذا الدين، وامتلأت نفوسهم غيظًا من شدة ما يرون من تأثير هذا الدين، وما تصنعه هذه العقيدة.

وهؤلاء كثير. منهم على سبيل المثال لا الحصر: جورجي زيدان مزيف التاريخ وهو صاحب دار الهلال وسليم تقلا مؤسس جريدة الأهرام، ويعقوب وفؤاد صروف صاحبا المقتطف.

وهذه الوسائل قد قامت بمحاربة الله في الأرض، تريد أن تحلل ما حرم الله، وتحرم ما أحل الله، فنصبت نفسها طاغوتًا يعبد من دون الله.

ومصداق ذلك: أن الصحافة المأجورة أيام تأسيسها في مصر ظلت تكتب عن

---

(١) انظر المصدر السابق ١/١١٢.

(٢) الإسلام والحضارة الغربية ص٦٠.

(٣) انظر أساليب الغزو الفكري ص٧١ ط٢.

مشكلة البغاء ثلاثين سنة، وكذلك عن مشكلة المرأة واختلاطها بالرجال، وتحطيم هيبة الدين ووصمه بالرجعية والجمود والتقاليد البالية، وأنه لم يعد صالحًا لمواكبة العصر، كما قال ذلك الصحافي المأجور «هيكل» حين قال: «إن التقدم التكنولوجي قد أحال أقدس الكتب الدينية – أي القرآن – إلى أوراق صفراء تحفظ في المتاحف»[١]. بل تعدت وسائل الإعلام المأجورة من قبل أعداء الإسلام على الألوهية. فقال نجيب محفوظ في إحدى قصصه إن الله قد مات[٢] «ألا لعنة الله على الظالمين».

أما عن قضية حجاب المرأة المسلمة فهذا شيء هاجت له جميع وسائل الإعلام ولا تزال وأول من قاد هذه الدعوة المحمومة قاسم أمين في كتابه «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة» ونادى بالمرأة المصرية أن تجاري أختها الأوروبية في كل شيء، ومن ثمار هذه الدعوة من سميت أمينة وهي ليست أمينة، إنها أمينة السعيد التي قالت وهي تهاجم الحجاب «عجبت لفتيات مثقفات كيف يلبسن أكفان الموتى وهن على قيد الحياة»، وقبلها كانت «الزعيمة» هدى شعراوي وصفية زغلول، وغيرهما من اللائي أحرقن الحجاب في ميدان الإسماعيلية الذي سمي بعد ذلك «ميدان التحرير»[٣]!

وخلاصة ما يمكن أن نقوله عن وسائل الإعلام ومن يخطط لها: إنها قلبت المنكر معروفًا وأمرت به، وقلبت المعروف منكرًا ونهت عنه.

ومن يراجع بروتوكولات حكماء صهيون يجد مصداق ما ذكرنا كله حرفًا بحرف بل وأكثر من ذلك، وإليك هذا النص الصريح من نفس البروتوكولات.

جاء في البروتوكول الثالث عشر ما نصه: «ولكي نبعد الجماهير من الأمم غير اليهودية عن أن تكشف بنفسها أي خط عمل جديد لنا سنلهيها بأنواع شتى من الملاهي والألعاب وهلم جرا».

---

(١) نقلاً عن مذكرة المذاهب الفكرية للأستاذ محمد قطب.

(٢) انظر المصدر السابق.

(٣) راجع كتب الدكتور الأستاذ محمد محمد حسين «الاتجاهات الوطنية»، والإسلام والحضارة الغربية وحصوننا مهددة من داخلها.

وسرعان ما سنبدأ الإعلان في الصحف داعين الناس إلى الدخول في مباريات شتى من كل أنواع المشروعات كالفن والرياضة وما إليها.

إن هذه المتع الجديدة ستلهي ذهن الشعب حتمًا عن المسائل التي سنختلف فيها معه وحالما يفقد الشعب تدريجيًا نعمة التفكير المستقل بنفسه سيهتف جميعًا معنا لسبب واحد هو: إننا سنكون أعضاء المجتمع الوحيد بين الذين يكونون أهلاً لتقديم خطوط تفكير جديدة.

وهذه الخطوط سنقدمها متوسلين بتسخير آلاتنا وحدها، من أمثال الأشخاص الذين لا يستطاع الشك في تحالفهم معنا.

إن دور المثاليين المتحررين سينتهي حالما يعترف بحكومتنا وسيؤدون لنا خدمة طيبة حتى يحين ذلك الوقت، ولهذا السبب سنحاول أن نوجه العقل العام نحو كل نوع من النظريات المبهرجة التي يمكن أن تبدو تقدمية أو تحررية.

لقد نجحنا نجاحًا كاملاً بنظرياتنا على التقدم في تحويل رءوس الأميين الفارغة من العقل نحو الاشتراكية. ولا يوجد عقل واحد بين الأميين يستطيع أن يلاحظ أنه في كل حالة وراء كلمة «(التقدم)» يختفي ضلال وزيغ عن الحق[1].

وأحسب أن كل عاقل سيقف بروية عند قولهم: وحالما يفقد الشعب تدريجيا نعمة التفكير المستقل بنفسه سيهتف جميعًا معنا... إلخ.

ولكن مع هذا أيضًا نقول: إن هذا الغزو الفكري مهما كان من الشراسة والحنكة والتخطيط مع الدقة وضبط التوقيت المناسب للمادة المناسبة مع هذا كله فإن المسلمين أو أكثر المحسوبين على الإسلام قد أسهموا في عمل هذه الوسائل الخبيثة لأنهم ابتعدوا عن دينهم وتخلوا عن مفاهيم عقيدتهم والله سبحانه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

---

(١) بروتوكولات حكماء صهيون ص١٦٨ ترجمة محمد خليفة التونسي ط٤ وانظر: مكائد يهودية للميداني ص٣٤٦.

٣- نشر كتب المستشرقين

لئن كانت حركة الترجمة الأولى قد صحبها من الانحرافات ما سبقت الإشارة إليه، فإن حركة الترجمة المعاصرة أشد خبثًا من سابقتها وأكثر إفسادًا منها.

ذلك أن الترجمة الحديثة لم تكن في غالب الأحوال عن طريق غير المسلمين فحسب، بل اتجهت إلى ترجمة كتب المستشرقين الحاقدين الذين قاموا بأعمال فكرية كثيرة هدفها الأساسي تشويه مصادر التلقي عند المسلمين وتكديرها بالأفكار المغرضة والدسائس الحاقدة لينشأ جيل إسلامي مفصول العرى عن دينه وأمته، يتخذ من الطرائق الغربيـ ـي التفكير والبحث قبلته الوحيدة، ولا يشعر بالانتماء للإسلام دينًا ومنهجًا وحضارة.

وكتابة المستشرقين تتفق في معظمها على أسلوب واحد هو: أنها دراسات موجهة من قبل المستشرقين أنفسهم ومن قبل من يمولهم في عملهم فهي ليست دراسات علمية يقصد بها وجه العلم، يدل على ذلك قول «سمث» في كتابه «الإسلام في التاريخ الحديث» في الفصل الثالث الذي تكلم فيه عن العرب: إن الإسلام كان عاملاً أساسيًا وسببًا مهمًا من أسباب وجود الهوة التي تفصل بين الغرب والعرب ثم يقول: «لقد أصبح من الحقائق الجديدة في مدنيتنا العصرية أن من الواجب سد هذه الثغرات ببناء قنطرة فوق مثل هذه الهوة، وخلق الأسباب الموصلة للتفاهم والتواصل... وخلق مثل هذا التفاهم بين المدنيات المختلفة والأديان المتباينة يتطلب جهودًا مبتكرة لا يتوصل عليها إلا بصعوبة[1].

ولقد قام المستشرقون بجهود كبيرة تمثلت في إحياء بعض النصوص والمخطوطات الإسلامية وكان لهم في ذلك طرق منظمة إلى حد ما، ولهم أيضًا في ذلك أخطاء كثيرة في فهم النصوص وتفسير الأحداث، ولكن مع كل ذلك فليست العبرة بالجهد الذي بذل وإنما العبرة بالهدف الذي بذل هذا الجهد من أجله هل كان هذا الهدف هو

---

(١) ص١٠٢، ١٠٣ نقلاً عن الإسلام والحضارة الغربية ص١٠٩.

« خدمة » الإسلام أم تشويه الإسلام وتلويث صورته في النفوس؟[١].

ويدعي المستشرقون في كل ما يكتبون الروح العلمية أو الروح المتجردة! وغير ذلك من الشعارات التي تكذبها كتابة المستشرقين أنفسهم، ودليل ذلك أن مرجليوث – وهو من أئمتهم – يقول في فصل له منشور في موسوعة « تاريخ العلم » أن محمدًا ﷺ رجل مجهول النسب لأنه محمد « بن عبد الله » وقد كان العرب يطلقون على من لا يعرفون نسبه اسم عبد الله!!!

أوليس منبع هذا هو الحقد الصليبي لا الروح العلمية المتجردة؟

أوليس دافع هذا: التشكيك في الحقائق المسلمة البدهية؟

كيف يقال هذا الكلام ورسول الله ﷺ من قوم لا تعرف شيئًا كما تعرف الأنساب ولا تعتز بشيء كاعتزازها بالأنساب؟

أي سخف وأي تفاهة في هذا التفكير الاستشراقي الخبيث؟[٢].

وماذا ينتظر من هؤلاء وواحد من زعمائهم « جولد تسيهر » يقول في كتابه « العقيدة والشريعة » أن النظام الفقهي الإسلامي الدقيق مستمد من « القانون الروماني » ونظامه السياسي متأثر بالنظريات السياسية الفارسية، وتصوفه يمثل الآراء الهندية والأفلاطونية الجديدة!!! [٣].

ولو أردنا تتبع الأمثلة لطال الحديث في ذلك.

ولكننا نقول: ما دام هؤلاء الناس بهذه الروح الحاقدة والنية السيئة والفعل الخبيث. سلاحهم التشكيك، وديدنهم الكذب والتزوير وطابعهم الحقد الصليبي القديم، ما داموا كذلك فما هو – يا ترى – قيمة كل ما كتبوه؟

---

(١) هل نحن مسلمون ص١٧٤ بتصرف بسيط.

(٢) انظر المصدر السابق ص١٧٢.

(٣) المصدر السابق ص١٧٦.

وماذا يرتجى من تلاميذهم الذين ينظرون إليهم بروح الإجلال والإكبار وأنهم هم أساطين البحث العلمي المتجرد؟

إن كثيرًا من تلاميذهم يستطيع أن يغالط نفسه وغيره ممن هو على شاكلته كثير ولكنه لا يستطيع أن ينكر واقعًا مشهودًا في حياة المستشرقين أنفسهم غير ما ذكرنا من الأمثلة السابقة.

ذلك أن الطلاب المبتعثين للدراسة على أيدي المستشرقين لابد أن يختاروا بحوثهم العلمية على ما يريده لهم أساتذتهم. فإن لم يكن كذلك وأعطي الطالب حرية الاختيار فلابد أن تكون الكتابة في أي موضوع خاضعة لما يمليه هذا المستشرق وما يصبو إليه من الطعن في الإسلام شريعة وعقيدة ونظام حياة. خاصة إذا كان البحث في «قضايا الإسلام».

وخير مثال على ذلك ما ذكره الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله حيث قال: «حدثني البروفسور «أندرسون» نفسه أنه أسقط أحد المتخرجين من الأزهر الذين أرادوا نوال شهادة الدكتوراه في التشريع الإسلامي من جامعة لندن، لسبب واحد هو أنه قدم أطروحته عن حقوق المرأة في الإسلام، وقد برهن فيها على أن الإسلام أعطى المرأة حقوقها كاملة، فعجبت من ذلك، وسألت هذا المستشرق: وكيف أسقطته ومنعته من نوال الدكتوراه لهذا السبب، وأنتم تدعون حرية الفكر في جامعاتكم؟

قال: لأنه يقول: الإسلام يمنح المرأة كذا والإسلام قرر للمرأة كذا، فهل هو ناطق رسمي باسم الإسلام؟»!![1].

لقد أحدثت كتب المستشرق زعزعة كبيرة في نفوس ضعاف الإيمان، فخرج من هذه المدرسة التشكيكية أجيال تولت القيادات الفكرية والعلمية في العالم الإسلامي

---

(١) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ص١٣ ط٢ وذكر أيضًا – رحمه الله – أمثلة كثيرة حول هذا الموضوع فليراجعها من شاء في ذلك الكتاب القيم.

وأخذت تردد كالببغاء ما أملاه عليها أساتذهما «العلماء».

ولقد كان من أهم أهداف المستشرقين وتلاميذهم الطعن في سنّة رسول الله ﷺ ومحاولة النيل منها. ومصداق ذلك أن أحد هؤلاء التلاميذ وهو الدكتور علي حسن عبد القادر قال لتلاميذه بعد أن رجع «دكتورًا» أني سأدرس لكم تاريخ التشريع الإسلامي ولكن على طريقة علمية لا عهد للأزهر بها، وأني أعترف لكم بأني تعلمت في الأزهر قرابة أربعة عشر عامًا فلم أفهم الإسلام ولكني فهمت الإسلام حين دراستي في ألمانيا!! [1] قال الأستاذ السباعي رحمه الله: ثم تبين لنا فيما بعد أنه يملي علينا ترجمة حرفية لكتاب «جولد تسهير» دراسات إسلامية!! [2].

أما أكثر ما يعتمدون عليه في الطعن في السنة من غير الشبه والشكوك فهو حكاية عرض الحديث على «العقل» وهي حكاية قديمة نادى بها المعتزلة، وتبعهم عليها المستشرقون وتلاميذهم أمثال أحمد أمين وأبي رية وغيرهم كثير.

وللمستشرقين أيضًا كتابات أخرى دس فيها السم بالعسل وذلك أنهم يصدرون كتاباتهم بقليل من المدح للإسلام وأنه فعل كذا وكذا... إلخ، وهم يهدفون من وراء ذلك إلى كسب ثقة القارئ، ثم يبدءون بنفث الحقد الدفين في نفوسهم بأن يشككوا في العقيدة والشريعة ويوردوا سيلاً من الشبه التافهة من أجل زعزعة ثقة المسلم بدينه[3] تحقيقًا لقوله تعالى:

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [آل عمران: ٧٢].

ومما لا شك فيه أن هناك أموالاً وحكومات وراء نشر كتب المستشرقين في العالم

---

(١) السنة للسباعي ص١٩.

(٢) نفس المصدر ص١٩.

(٣) الأستاذ الدكتور محمد محمد حسين جزاه الله خيرًا تتبع مزيدًا من هذه البحوث في كتابه الإسلام والحضارة الغربية خاصة في الفصول الرابع والخامس والسادس فليراجع.

الإسلامي لأن هذا الغزو يحقق لأعداء الإسلام ما لم يحققه لهم الغزو العسكري.

على أنه من المهم أن نقول هنا: أن تخلي المسلمين عن منهجهم العلمي بعد تخليهم عن مفاهيم العقيدة الصحيحة وترك منهج المحدثين الذي هو أعظم منهج علمي وضع في تاريخ البشرية سبب مباشر يقف إلى جانب كيد المستشرقين في ازدياد هوة هذا الانحراف الذي وقع في حياة المسلمين.

وخلاصة القول: أن كل من تأثر بالمسشرقين – فكرًا أو منهجًا – لا يمكن أن يكون ولاؤه لدينه وأمته صافيًا صادقًا كما أن براءه لن يكون وفق التصور الإسلامي الصحيح.

٤- المذاهب اللادينية

إن من أخبث وأخطر ما واجه المسلمين في عصرهم الحاضر انتشار المذاهب اللادينية بينهم، حيث أريد لهذه المذاهب الهدامة أن تمحو شريعة الله من الأرض وتقصيها من واقع حياة المسلمين. وتشتت ولاء المسلمين الواحد إلى ولاءات جاهلية متعددة، فإذا انتزع ولاء المسلم لدينه سهل حينئذ تقبله لأي فكر، ورضى بأي وضع يعيش فيه مهما كان في ذلك من التبعية والانهزام.

من هنا عمل أعداء الإسلام على بث هذه المذاهب مستخدمين لذلك وسيلتين:

١) الهجوم الشرس على العقيدة الإسلامية والشريعة ورميها بأحط ما وضعوا من عبارات مسفة كقولهم إن الشريعة الإسلامية شريعة بربرية تشوه يد السارق، وترتكب جريمة فظيعة برجم الزاني المحصن ولا تساير روح العصر الذي سيطرت عليه المعارف «التكنولوجية» بل ليس في الإسلام مواد قانونية تنظم حياة الناس... إلى آخر ذلك الهراء.

٢) إضفاء صبغة البهرجة الكاذبة، والدعاية لتلك المذاهب الهدامة ووصفها بأنها هي علامة التقدم ومسايرة الركب الحضاري العالمي، وهي التي تعطي الناس الحرية في كل شيء. وهي مذاهب لا تقيد الإنسان بدين معين، بل يأخذ ما يريد ويدع ما لا

يريد، مذاهب تخلو من التزمت وضيق الأفق... إلى آخر ما هنالك مما يقال.

ولقد وقع كثير من المنتسبين للإسلام فريسة لهذا الغزو الفكري الماكر ولا أريد هنا أن أدخل في قضية الردود على كل جزئية فإن ذلك ليس من منهج هذا البحث، كما قد أشرت إلى ذلك سابقًا وصدق القائل.

لــو كــل كلب عوى ألقمته حجرًا لأصــبح الصــخر مــثقالاً بديــنار

ثم إننا لم نعد بحاجة كبيرة لتتبع الرد على شبهات الأعداء وقولهم إن هذا العصر لم يعد بحاجة إلى الدين، لأن هذا كلام يكذبه واقعهم هم، بدليل ما نشاهده اليوم في البلاد الكافرة كأمريكا وأوروبا من حالة الضياع والانتحار والقتل وفظائع الجريمة والخواء الروحي. وبحثهم عما يشبع جوعهم الروحي الذي لا يملأه إلا الإسلام.

وأما ما يتعلق ببهجرة مذاهبهم الإلحادية فأكبر مثال يكذبها عندهم هم هو فشلها في بلادهم.

ثم ما كتبه مفكروهم عن تدهور الحضارة الغربية، حيث ذكروا أنها في طريقها إلى الزوال وهذا أمر ثابت لا يحتاج إلى جدال. فإن كل بناء قام على غير ما شرع الله، مصيره الزوال والدمار كما قال تعالى:

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٤].

وأوروبا اليوم قد فتح عليها كل شيء في العلم المادي والتقدم الصناعي والسياسة والمال والاقتصاد وغير ذلك، ولكنها مع هذا كله في طريقها للزوال وفق سنن الله التي لا تتبدل ولا تتحول.

هذا وبالرغم من أنني سأعطي فكرة موجزة عن هدف كل مذهب يتعلق ببحثي إلا أنني أبادر إلى القول بأن الهدف الأول والأخير من كل هذه المذاهب الكافرة هو: إخراج المسلم من إسلامه وقطع ولاء المسلم بربه ودينه وإخوانه المؤمنين، ثم العودة إلى

روح الجاهلية التي تتمثل في الطاعة والانقياد والخضوع لهذه المذاهب الكافرة ولطواغيتها الذين يخططون لها. والعودة أيضًا بالمسلمين إلى جاهلية العرق والنسب والتراب وسائر أنواع النتن التي أمر الله المسلمين بتركها لأنها تنقض عرى الإسلام عروة عروة. وهذا الهدف تتفق عليه كل المذاهب الكافرة باتجاهاتها المختلفة وانتماءاتها المتنوعة ولكنني - وأنا أكتب عن عقيدة الولاء والبراء - سأقتصر على تلك المذاهب التي تبدو فيها صورة منافاتها لهذه العقيدة واضحة جلية. وتناقضها معها أمرًا ظاهرًا.

ومن ذلك القومية والوطنية، اللتان تحصران الولاء في دائرة الجنس أو التراب فيلتقي فيها مثلاً اليهودي العربي والنصراني العربي والمشرك العربي، والبعثي العربي مع المسلم العربي لأن رابطة القومية العربية تجمعهم!! وهذا أمر يرفضه الدين الحنيف لأن الرابطة فيه هي رابطة العقيدة، فضلاً عن أن الوطنية والقومية ضيقتا دائرة الولاء.

إن العالم الإسلامي كان أمة واحدة تظله راية «لا إله إلا الله محمد رسول الله» ورغم خط الانحراف الذي يرتفع ويهبط في تاريخ المسلمين إلا أنهم إلى ما يقرب من ثلاثة قرون كانوا يشعرون أنهم أمة واحدة لأنهم يدينون بدين واحد ويؤمنون بكتاب واحد وسنة واحدة ويتحاكمون إلى شريعة واحدة.

ولقد كان المسلم يخرج من طنجة حتى ينتهي به المقام في بغداد لا يحمل معه جنسية قومية أو هوية وطنية وإنما يحمل شعارًا إسلاميًا هو كلمة التوحيد، فكلما حل أرضًا وجد فيها له أخوة في الإيمان وإن كانت الألسنة مختلفة والألوان متباينة لأن الإسلام أذاب كل تلك الفوارق واعتبرها من شعارات الجاهلية.

ولكنه نتيجة لضعف المسلمين وتمكينهم عدوهم من أنفسهم سهل استعمارهم من قبل أرذل خلق الله. وهم اليهود والنصارى ومن جاء بعدهم كالملاحدة الشيوعيين.

وبعد أن تمكن العدو من السيطرة على أرض الإسلام أخذ يبث سمومه ويغرس في نفوس الضعاف والسذج والعملاء حبه ونصرته وموالاته، واستحسان ما هو عليه من باطل وكفر، وهنا نزع الولاء الإسلامي ليحل محله الولاء الجاهلي الكافر.

ومصداق هذا الكلام قول أحد المستشرقين في كتاب «الشرق الأدنى مجتمعه وثقافته» وهو يتحدث عن أسلوب نزع ولاء المسلمين فيقول: «إننا في كل بلد إسلامي دخلناه نبشنا الأرض لنحصل على تراث الحضارات القديمة قبل الإسلام، ولسنا نعتقد بهذا أن المسلم سيترك دينه ولكنه يكفينا منه تذبذب ولائه بين الإسلام وتلك الحضارات»[(١)].

وهذا الكلام صادق في ذاته، لأن نشوء فكرة إحياء الحضارات والنعرات الجاهلية أمر خطير على قضية الولاء، حيث ينشأ من ذلك نظام نكد، ويبتدئ الميل والحب – بفعل شياطين الجن والإنس – يكبر تجاه هذه الحضارات ويقل ثم يضمحل الولاء الإسلامي الخالص لله رب العالمين.

وبعد أن كان البراء أمرًا ملازمًا للولاء تجاه هذه النعرات الجاهلية أصبح أمرًا لا وجود له – إلا عند من رحم الله – لأن هذه الأفكار كفيلة بغسل فكرة البراء من النفس عند ضعاف الإيمان، أو المغالطة عند البعض بأن هذه الأفكار والمذاهب لا تتعارض مع الإسلام! ويقال: ما الذي يمنع المسلم أن يكون مسلمًا وقوميًا أو مسلمًا علمانيًا أو مسلمًا اشتراكيًا.. إلخ.

ولما أدرك أعداء الإسلام مدى جدوى وفاعلية هذه الفكرة التي تمسخ المسلم حتى يصبح مخلوقًا لا صلة له بالله - كما قالوا -: بدأوا ببث فكرة القومية والوطنية، مبتدئين بتركيا مقر آخر خلافة إسلامية، حيث نشأت هناك: القومية الطورانية وتزعم هذه الدعوة حزب «الاتحاد والترقي» فبدأ بالمطالبة «بتتريك» تركيا، وعودة القومية الطورانية متخذين لذلك شعار: الذئب الأغبر الذي هو معبود الأتراك قبل أن يعرفوا الإسلام.

وبهذا «التتريك» أخذت الدولة العثمانية تضغط على العرب، حيث تعطي الأتراك امتيازات خاصة بهم لأنهم ترك! وهذا الفعل فضلاً عن كونه يعارض مبدأ العدل

---

(١) نقلاً عن مذكرة المذاهب الفكرية.

الإسلامي هو أيضًا مؤشر للعرب أن يتحدوا في قومية عربية جديدة! وهذا هو الذي حصل فعلاً.

فلقد قام الجاسوس لورنس – الذي سماه المغفلون – «لورنس العرب» بالتخطيط لقيام ما يسمى بالثورة العربية الكبرى ضد الخلافة العثمانية وانضم العرب إلى جيوش الحلفاء الذين لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة ولا يراعون في مسلم عهدًا ولا حرمة[١]. ومن المضحك المخزي أن محرك هذه الجيوش العربية هو لورنس العرب!!

فانظر أيها القارئ إلى جيوش عربية تزعم أنها مسلمة وولاؤها لجاسوس غربي كافر اسمه لورنس!!

وبعد انتهاء مهمة هذه الجيوش قال أحد القادة الإنجليز «اللينبي» قولته المشهورة: «الآن انتهت الحروب الصليبية»!! يقصد بذلك أن الحقد الصليبي ظل كامنًا في نفوس الصليبيين إلى أن استردوا بيت المقدس[٢].

وانفصل العرب عن إخوانهم المسلمين في أنحاء المعمورة واعتنقوا القومية العلمانية من أجل تقليد الغرب الذي آمن بها بالأمس وكفر بها اليوم. وأصبح «كل تجمع أو حتى تضامن أو تقارب على أساس العقيدة والدين مظهرًا من مظاهر التخلف والرجعية يجب أن تبرأ منه الجماهير لتكون عصرية تقدمية»[٣].

ولما انتكست العرب وعادت إلى نعرة الجاهلية، فقدت روح التضحية والجهاد، وولت وجهها تجاه اليمين واليسار، حيث اليمين له ألوان وضروب من واشنطن إلى باريس إلى لندن واليسار له ألوان أحمر وأصفر وبينهما بعد ما بين موسكو وبكين[٤].

---

(١) العرب والإسلام للندوي ص٩.

(٢) انظر المحاضرة القيمة: المخططات الصهيونية للأستاذ محمد قطب الطبعة الأولى سنة ١٣٩٨هـ ـ المختار الإسلامي بالقاهرة.

(٣) درس النكبة الثانية للأستاذ يوسف القرضاوي ص٣٥ ط الأولى.

(٤) درس النكبة الثانية ص٣٦.

ولما وقعت هذه النعرة الجاهلية، وقع معها كل باطل وكل شر.

فأما شريعة الله وحكمها وقيامها بما يحتاج إليه البشر لأنها من عند الله وهو العليم سبحانه بما يصلح أحوال البشر: فقد أقصيت وحل محلها قانون البعث العربي الاشتراكي الذي أخذ يردد هذا الشعار:

لا تسـل عـن ملـتي أو مذهـبي أنـا بعـثي اشـتراكي عـربي

ومن المضحك أن صاحب هذا الشعار حين تلقى صفعة موجهة من اليهود بالرغم من ولائه لهم — مسح ذلك الشعار وكتب مكانه كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله!!! [(١)].

أما ثمار هذا «الفتح الجديد» بعد الرضى بالقومية فشيء يصعب حصره، حيث انطلقت الغرائز البهيمية وطغت الشهوات، وانتشر المجون والفسق، وتحللت الأخلاق وغربت الفضائل، فأصبح العفاف والاحتشام والحياء: رجعية متزمتة لم تر نور القرن العشرين، وأصبح اللهو والخلاعة والصور العارية والقصص الخليعة والأدب الرخيص، والأزياء المثيرة والغناء والرقص والاختلاط سمات الحضارة وعنوان التقدم وشارة التحرر من ربقة التقاليد البالية!! [(٢)].

وأعجب من ذلك كله أن اليهود الذين هم وراء هذه الردة الجديدة يعلنون وبصراحة وجدية واضحة أنهم لم ولن يتخلوا عن دينهم فهذا موشى ديان حين سئل هل كنتم تشعرون أن الله معكم في معركة ٥ حزيران؟

قال: كنا نشعر أننا في جانب الله[(٣)].

ويقول زعيم الصهيونية الأول «هرتزل»: إن العودة إلى صهيون يجب أن تسبقها

---

(١) نظرية التربية الإسلامية للشيخ محمد الغزالي. وهو بحث قدم لندوة أسس التربية الإسلامية بمكة في ١١/٦/١٤٠٠هـ.

(٢) انظر درس النكبة الثانية ص٣٩.

(٣) المصدر السابق ص٨٢.

عودة إلى اليهودية[١].

ونشطت الدعوات الهدامة، فهذه النعرة الفرعونية تطل برأسها وتسفر عن وجهها بعد أن كانت لا تظهر إلا مقنعة أو من خلف ستار.

نشط دعاتها في الصحف والندوات ورسموا رأس «أبي الهول» على طوابع البريد وعلى أوراق النقد، واجتاحت مصر موجة من الفرعونية، تحاول غزو سائر النواحي الثقافية، وتدعو إلى إقامة الفنون على أسس فرعونية، وتزعمت صحيفة «السياسة الأسبوعية» هذا الاتجاه الجديد، فأفسحت صدرها لهؤلاء الدعاة ولم يخل عدد من أعدادها من حديث عن حضارة الفراعنة وثقافتهم ومجدهم[٢].

وكثر التغني بهذه الأمجاد من أجل ذبذبة ولاء المسلم، فهذا حافظ إبراهيم يقول:

أنـــا مصـــري بـــناني مـــن بـــنى   هـــرم الدهـــر الـــذي أعـــيى الفنى

ورجعت العراق لعنصرية الآشوريين، وكل بقعة أخذت تنادي بهذه الردة الجديدة.

أما الشعار الوطني الجديد: فهو ما أعلنه سعد زغلول بقوله: الدين لله والوطن للجميع! أي الوطن ليس لله، ثم قال: لا تنادوا بشعارات إسلامية خشية أن يغضب إخواننا الأقباط[٣].

ونادى دعاة القومية الناس بأسلوب ماكر فقالوا: ما المانع أن يكون المسلم العربي – عربيًا مسلمًا، ثم قالوا: يكون عربيًا فقط. أليس الإسلام عربيًا؟ إذن ما هو عيب القومية العربية؟ إن العرب إذ ذلوا ذل الإسلام فلنناد بالقومية العربية!!

وهذا كلام غير صحيح لأنه يوم ذل العرب جاء صلاح الدين الكردي، وجاء قطز المملوكي فأنقذوا المسلمين من ذلك الهوان، وانتصر القائدان بقوهما وإسلامهما.

---

(١) نفس المصدر ص٨٢.

(٢) انظر: أزمة العصر للدكتور محمد محمد حسين ص٤٣ – ٥٣.

(٣) مذكرة المذاهب الفكرية.

ولم يكن في حسهم ولا في عقيدتهم هذه التفرقة ولا هذه النعرة الجاهلية[١].

إن الإسلام يكذب ذلك الزعم الذي يزعمه القوميون لأنه جاء لانتزاع هذه النعرات فجمع في دعوته بل في أول دعوته، أبا بكر العربي القرشي وبلالا الحبشي وصهيبا الرومي وسلمان الفارسي. وكما قال عمر ﷺ: نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فإذا التمسنا العزة بغيره أذلنا الله.

إن تقليد الغرب في استيراد مبدأ القومية أو العلمانية أو أي مذهب أو فكر: يعيد للأذهان تلك القصة الرمزية القديمة التي تتحدث عن حمارين كان أحدهما يحمل ملحا وكان الآخر يحمل اسفنجا. فرأى حامل الاسفنج صاحبه ينزل إلى الماء فيذيب بعض الملح ويخرج منه أخف حملا، فخطر له أن يحصل على المزية نفسها بالأسلوب نفسه، فكانت النتيجة على عكس ما توقعه، وخرج من تجربته أثقل حملا[٢].

وخلاصة القول في القومية: إنها شرك بالله لأنها بإيجابها العمل لها وحدها. والتضحية والجهاد في سبيلها، وصرف الكره والبراء وما يتبعهما ضد كل خارج عن القومية، وصرف الحب والولاء وما يتبعهما للقوميين ومن والاهم: هي بهذا تكون ندا يعبد من دون الله لأن ذلك يقوم مقام النفي والبراء والإثبات والولاء وهما ركنا الألوهية، أو العبادة في قول: «لا إله إلا الله» فلا «إله» نفي وبراء، و«إلا الله» إثبات وولاء لله لا شريك له. والدليل على ذلك قوله تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥][٣].

---

(١) مذكرة المذاهب الفكرية.

(٢) الإسلام والحضارة الغربية ص٢٣٧.

(٣) انظر فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام ص١٢٩ للشيخ صالح العبود وهي أوسع كتاب فيما أعلم في قضية القومية العربية مكتوبة بالآلة الكاتبة في الدراسات العليا بكلية الشريعة بمكة. ويراجع أيضا كتاب الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية للندوي ص١٢٤ - ١٦٢ الطبعة الثالثة، وكتاب الاتجاهات الوطنية ٦٧/١، ١٠٥، ٢٩٢/٢ وكتاب الشعوبية الجديدة لمحمد مصطفى رمضان.

وليس بعد الحق إلا الضلال. فليحذر كل مسلم على نفسه من الوقوع في هذا الشرك المقنع.

وأما العالمية: أو «الإنسانية» فهي تتفق أيضًا مع القومية والوطنية في مناقضة عقيدة الولاء والبراء، ولكن هذا التناقض يتخذ شكلاً آخر: هو توسيع دائرة الولاء بحيث يدخل فيها كل الأقوام والأديان والأوطان. وهذا في حقيقة الأمر ضياع للولاء ومسخ للبراء حتى لا يعود المسلم يشعر بالفارق بينه وبين أي كافر في بقاع الأرض.

ويقوم هذا المبدأ على ألفاظ خادعة وموهمة مثل: الحرية والأخوة والعدل والمساواة.

وفي ذلك يقول «كالفرلي»: «وحينما يصبح في مقدور الجميع الوقوف على كل المعلومات المجردة عن الهوى، وحينما يصبح الجميع أحرارًا في تفكيرهم، لهم من الشجاعة ما يجعلهم يتقبلون ما هو خير وعدل وجميل، وعندئذ يكون من المحتمل أن يسود العالم دين واحد. وإني سأكون سعيدًا باتباع دين عالمي موحد، تنبع مصادره من حقائق التاريخ، وتشمل مبادئه العدالة الاجتماعية، وتقوم بفضله مظاهر الحب والإخاء على أنقاض الكراهية والخصومة[1].

وهذا الكلام هدم صريح للإسلام، ومعول هدم لطمس الجهاد الإسلامي الذي يقوم على تحرير الناس من عبودية بعضهم لبعض، ومن انقسامهم إلى «ملأ» وهم السادة الأقوياء و«عبيد» وهم التابعون الأذلاء: إلى جعلهم كلهم عبادًا لله.

وكما نعلم جميعًا أن الجهاد يرهب أعداء الله، ويخافونه كثيرًا، ولذلك ما فتئوا يبحثون عن وسائل متنوعة لإبطاله ومحوه من أفكار المسلمين، إنهم تارة يقولون: الإسلام انتشر بالسيف، وتارة يقولون: إنه دين وحشي لا يرحم الناس وقد لا تكون هذه مجدية لما يريدون، فقالوا: العالمية والإنسانية هي المذهب الجديد الذي يعيش فيه الناس بأمن وسلام وعدالة وأخوة، بصرف النظر عن الأديان والأوطان!

---

(١) الإسلام والحضارة الغربية ص١٣٢.

ويزيد هذا الأمر إيضاحًا ما قاله معروف الدواليبي: « ... إننا نشاهد منذ المنتصف الثاني لعصرنا الحاضر من القرن العشرين تطلعًا كبيرًا نحو إقامة الحياة البشرية على مفاهيم وقواعد إنسانية، ورغبة أكيدة من قبل رجال الفكر والعلم وقادة السياسة للانتقال بالمجتمع الإنساني المتمايز المتناحر إلى مجتمع إنساني واحد متعاون وذلك في إطار « وحدة الأسرة البشرية » من غير تفاضل بين الأقوام إلا بالتقوى، وفي إطار « حق الجميع في الحياة الكريمة » من غير تمايز في الأعراق أو في الأجناس أو في الأديان وفي إطر « وحدة المصالح الاقتصادية للجميع » من غير استئثار من قبل الكبار والأقوياء على حساب الصغار والضعفاء. وفي إطار « العدالة المطلقة بين الجميع حماية لسلام الإنسان »، ثم ذكر أن هيئة الأمم المتحدة أخذت تدعو لهذه المفاهيم العالمية الجديدة التي « تدعو إلى محو التمايز فيما بين الأسرة البشرية وأجناسها، قوميًا وعرقيًا واقتصاديًا وفقًا لمبادئ حقوق الإنسان »[1].

---

(١) مجلة رابطة العالم الإسلامي الشهرية العدد الخامس، السنة التاسعة عشرة، جمادى الأولى سنة ١٤٠١هـ هذا ومن الجدير بالذكر أنه قد ورد في مجلة العربي الكويتية في العدد ٢٦٧ ربيع الأول سنة ١٤٠١هـ مقالان حول هذه الدعوة.

الأول منها: ص١٨ للدكتور محمد فتحي عثمان تحدث فيه عن « المسلمون والآخرون » وطالب المسلمين المعاصرين في إعادة النظر حول قضية دار الحرب ودار الإسلام، وأن هذا تقسيم غير صحيح، ولا يدل عليه الكتاب ولا السنة، بل هو من صنيع الفقهاء مبينًا أن الخلافة الإسلامية كانت صورة تاريخية وهي لم تعش طويلاً فعلى المسلمين ألا يفكروا فيها مرة أخرى، وعليهم إعادة النظر في قضية العلاقات الدولية مع العالم المعاصر، لكي يتقنوا فن التعاون الدولي مستفيدين من إعادة نظر الولايات المتحدة العملاقة في سياستها إزاء الكساد الاقتصادي في الثلاثينات من القرن العشرين. وكذلك ما حدث في الكتلة الشرقية حين عدل خروشوف عن سياسة سلفه ستالين.. إلخ.

والكاتب يرى التعديل في المفاهيم الإسلامية مثلما يرى أرباب القانون الوضعي تعديل قوانينهم القاصرة وكأنه يجهل أو يتجاهل أنه لا مقارنة بين الدين الرباني الذي نزل من الحكيم الخبير وبين أفكار البشر القاصرة الهزيلة، وهذه الدعوة فيها خدمة لمبدأ العالمية ودعوة غير مباشرة لإبطال شرعية الجهاد في الإسلام.

أما المقال الثاني: وهو أخبث من سابقه فهو لفهمي هويدي بعنوان « المسلمون والآخرون أشواك وعقد على الطريق » ص٤٩ وهذا المقال يدعو لما دعا إليه الكاتب السابق مع زيادة هي: تجهيل علماء المسلمين ووصمهم بعدم معرفة دلالات النصوص وملابساتها، قائلاً: إن

ونتساءل بعد هذا الكلام. أي قانون بشري يريد دعاة العالمية أن يعيش الناس تحت لوائه؟

هل هو ميثاق هيئة الأمم المتحدة؟ فهي: منظمة السيطرة فيها لليهود والنصارى والشيوعيين وأكبر دليل على ذلك ما يسمى بـــ« حق الفيتو » الذي يرفض كل ما يتعارض مع مبدأ أولئك المسيطرين أم أنها الغفلة والانخداع بما خطط له دعاة هذا المذهب الفاسد؟

أم أنه الخبث والدهاء في تخدير الأمة الإسلامية بأن الجهاد أمر لم يعد يصلح لمسايرة العصر الحديث لأن العالمية لا تقره ولا ترضيه؟

وأقرب الإجابات إلى نفسي هو جواب السؤال الأخير ذلك الجواب الذي يعرفه كل مخلص لدينه وربه وكل مؤمن يعرف كيد الجاهلية المعاصرة فيبرأ بنفسه أن ينخدع بأي دعوة لا تنبثق من مشكاة النبوة المحمدية والرسالة الربانية الخالدة.

ونحن إذ نقرر هذا الجواب المؤكد، فليس ذلك تجنبًا أومجرد ثورة عاطفة ضد هذا المذهب الإلحادي الكافر، بل هو عين ما يهدف إليه دعاة الماسونية العالمية التي تولت كبر الدعوة إلى هذه النحلة الجديدة بجميع أهدافها وشعاراتها.

ولذلك يقول أحد الماسون: «إن ما تبغيه الماسونية هو: وصول الإنسانية شيئًا فشيئًا إلى النظام الأمثل الذي تتحقق فيه الحرية بأكمل معانيها وتزول منه الفوارق بين

=تلك المرحلة – يريد مرحلة التاريخ الإسلامي الطويلة المشرقة – كانت لها حساباتها وموازينها الخاصة التي لا يمكن تعميمها على بقية مسيرة التاريخ البشري ومؤكدًا «أنه ليس صحيحًا أن المسلمين صنف متميز ومتفوق لمجرد كونهم مسلمين، وليس صحيحًا أن الإسلام يعطي أفضلية لهم، ويخص غيرهم بالدونية لأنهم كفار» ويكفي أن هذا الكلام فضلاً عن كونه دعوة لمبدأ الإنسانية الماسوني هو أيضًا صورة واضحة من صور الولاء للكفار لأن هذا الكلام الذي ساقه هويدي أمنية للكفار أن يتحدث به أبناء المسلمين لكسر التميز الذي ينبني على الولاء والبراء والحب والبغض حسب المقياس الإسلامي الصحيح فعلى المسلمين أن يتبينوا مواقع الزلل والانحرافات في مثل هذه الدعوات الإلحادية.

الأفراد والشعوب ويسود فيه العلم والجمال والفضيلة»(١).

وختامًا نقول: إن كل المذاهب البشرية القائمة اليوم في الأرض التي لا تستمد وجودها من الكتاب والسنّة محادة لله ولدينه وكتابه وسنّة رسوله ﷺ، وأي تقبل لها أو عمل بمبادئها فإن ذلك موالاة صريحة للكفار، وبراءة صريحة من الإسلام والله قد بين لنا في كتابه العزيز أن من تولى الكفار فهو منهم:

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

والإسلام هو الدين الذي يجمع ولا يفرق، وهو الذي يجعل الناس في ميزانه الإيماني سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على عجمي ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى.

وهو الذي تتحقق فيه العدالة في أسمى صورها، ويتحقق فيه الأمن لأنه لا خوف إلا من الله وهو الذي يكسر شوكة كل طاغوت يريد إذلال الناس له من دون الله.

وهو الذي فيه الطمأنينة والسعادة: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨].

وهو الذي تتحقق فيه الحياة الكريمة: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

وهو الذي يحصل به التمكين الربّاني: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥].

(١) الإسلام والحضارة الغربية ص١٩٧.

الخـاتمـة

الإسلام طريق الخلاص وسبيل النجاة

ما الخلاص من هذا الهوان والتبعية اللذين أصيبت بهما الأمة الإسلامية اليوم؟

ما سبيل النجاة مما يراد بالمسلمين اليوم في جميع أنحاء الأرض؟

هل من سمات معينة لذلك المخلص؟ ولمن المستقبل في نهاية الأمر؟

الجواب: إنه الإسلام ولا شيء غيره فهو الذي ينقذ الناس مما هم فيه من حالة الضياع والهبوط والعبودية لغير الله، فيخرجهم كما أخرج سلف هذه الأمة من الظلمات إلى النور، ومن الجور إلى العدل، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا ونعيم الآخرة.

ولكن هذا الطريق المستقيم يحتاج إلى سالك جاد، وسائر يسير فيه دون الالتفات إلى اليمين أو اليسار ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣].

والحق أنه لا يمكن أن ينهض صرح الحياة الإسلامية الكاملة الخالصة إلا على دعائم الإقرار بالتوحيد الذي يحيط بجميع نواحي الحياة الإنسانية الفردية والجماعية، والذي يحسب[1] الإنسان بموجبه أنه هو وكل ما بيده من شيء ملك لله، ويرى أن الله هو المالك الشرعي الحقيقي له وللعالم كله، المعبود المطاع الذي له الأمر والنهي.

وأن لا ينبوع للهداية إلا هو، وتطمئن نفسه بكل شعور إلى أن الانحراف عن

---

(١) هكذا بالنص ولعل المراد: يحس.

طاعة الله أو الاستغناء عن هدايته أو إشراك غيره به في ذاته وصفاته وحقوقه وتصرفاته إن هو إلا إمعان في الضلالة من أي ناحية جاء أو في أي لون كان.

ثم إن هذا البناء – بناء الإيمان بالله – لا يمكن توطيد دعائمه إلا إذا رأى المرء في باطن أمره رأيًا جازمًا، وقطع على نفسه بشعور كامل وإرادة قوية أنه هو وكل ما بيده ملك لله وراجع إلى مرضاته، وقضى على ما في نفسه من مقياس للرضا والسخط وجعله مذعنًا لرضاء الرب تعالى وسخطه، ونفى عن نفسه الأثرة والكبرياء، وصاغ نظرياته وأفكاره وآراءه ونزعاته ومناهج تفكيره في قالب ذلك العلم الذي قد أنزله الله تعالى في كتابه العزيز.

وخلع عن عنقه ربقة جميع أنواع الولاء الذي لا يذعن لطاعة الله... ومكن محبة الله تعالى ومودته من سويداء قلبه، ونفى عن أعماق فؤاده كل صنم يطالبه بإجلاله وإكباره أكثر من الله تعالى وأدغم حبه وبغضه وصداقته وعداوته ورغبته ونفوره وصلحه وحربه... إلخ في مرضاة الله تعالى حيث لا ترضى نفسه إلا بما يرضى به الله، ولا تكره إلا ما يكرهه الله... وهذه مرتبة الإيمان الحقيقية وغايته المرموقة[(١)].

إن الوضع الذي تعيشه البشرية اليوم في جميع بقاع الأرض والذي يتوجه الضياع والخواء الروحي، وهذه الهتافات التي ترتفع من كل مكان تنادي بمنقذ ومخلص يخلصها من ذلك الهوان لأمر بشيء بأنه هو الإسلام لأنه دين الله العليم بما يصلح النفوس والخبير بجميع مكنونات الضمائر.

إن الإسلام «هو المنهج الوحيد الذي يعطي الفطرة ما يلائمها وهو الذي ينسق خطاها في الإبداع المادي وخطاها في الاستشراف الروحي وهو وحده الذي يملك أن يقيم لها نظامًا واقعيًا للحياة يتم فيه هذا التناسق الذي لم تعرفه البشرية قط إلا في ظل النظام الإسلامي – وحده – على مدى التاريخ»[(٢)].

---

(١) الأسس الأخلاقية للمودودي ص٤٩، ٥٠ ط١ سنة ١٩٧١ بيروت. بتصرف بسيط.

(٢) المستقبل لهذا الدين ص١٠٩ بقليل من التصرف.

وأعداء الإسلام يعرفون جيدًا أن عدوهم الوحيد هو الإسلام، ومن أجل ذلك فهم يسعون جادين إلى تحطيم هذا الجبل الشامخ لأنه يعوقهم عن أهدافهم الاستعمارية كما يعوقهم عن الطغيان والتأله في الأرض كما يريدون، لذلك فهم يضعون التصورات والمناهج التي لا تمت إلى هذا الدين بصلة من أجل أن تكون هي البديلة عن هذا الدين القيم[1].

وليكن من المعلوم لكل مسلم جاد: أن هذا الدين لا يقوم بألف كتاب تكتب عن الإسلام ولا بالخطب والمواعظ ولا بأقلام الدعاية للإسلام، وإنما يقوم على واقع حي متحرك – يتمثل هذا في المسلمين الصادقين – واقع تراه العين وتلمسه اليد وتلاحظ آثاره العقول[2]. ومن سمات أصحاب هذا الواقع الذي يغير مجرى حياة البشرية المعاصر أن يستعلوا بأنفسهم من موالاة أعداء الله – سواء من الكافرين أو المنافقين أو الملحدين – فلا يخدعهم هيلمان الباطل المعاصر، وأن الشرق والغرب يملك القنبلة الذرية، والصواريخ العابرة للقارات بل يعلمون أن الله هو الأكبر، وهو الولي الناصر، وأن الغلبة للحق مهما استطال الباطل:

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧٣].

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١].

ويقول سبحانه في شأن الأعداء: ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾﴾ [آل عمران: ١١١].

---

(١) انظر الفصل الأخير من كتاب المستقبل لهذا الدين.

(٢) انظر فصل طريق الإخلاص ص١٨٢ من كتاب الإسلام ومشكلات الحضارة للأستاذ سيد قطب رحمه الله.

ولن يصل المسلمون الصادقون إلى هذه الدرجة الرفيعة إلا بالبراءة من كل منهج وتشريع يخالف شريعة الله، والبراءة أيضًا من كل فكر يناقض هذه العقيدة التي كانت سبب نصر وعزة السلف الصالح. واستمداد حكم كل صغيرة وكبيرة من هذه الشريعة الربّانية التي هي «صراط الله المستقيم الذي لا أمت فيه ولا عوج، وملته الحنيفية التي لا ضيق فيها ولا حرج... لم تأمر بشيء فيقول العقل لو نهت عنه لكان أوفق، ولم تنه عن شيء فيقول الحجى: لو أباحته لكان أرفق، بل أمرت بكل صلاح، ونهت عن كل فساد، وأباحت كل طيب، وحرمت كل خبيث. أوامرها غذاء ودواء، ونواهيها حمية وصيانة من كل داء، ظاهرها زينة لباطنها وباطنها أجمل من ظاهرها. شعارها الصدق وقوامها الحق، وميزانها العدل وحكمها الفصل، لا حاجة لها البتة أن تكمل بسياسة ملك أو رأي ذي رأي أكملها الله بقوله:

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وقال ﷺ: «لقد تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك»(١).

وحري بدعاة الخير الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر أن يعودوا بالأمة إلى صفاء العقيدة الممثل في:

١) تصحيح مفهوم لا إله إلا الله محمد رسول الله. ودعوة الناس إلى فهم هذه الكلمة العظيمة كما فهمها رسول الله ﷺ وأصحابه الأخيار، ومحو ذلك المفهوم الخاطئ الذي يردده المتأخرون وهي أنها مجرد لفظ عار من كل تكليف.

مع بيان أن من تكاليفها موالاة المؤمنين والبراءة من الكافرين، وتحكيم شريعة الله واتباع ما أنزله الله والكفر بالآلهة المزيفة والأرباب المتعددة من العرف والهوى والعادات والمتألهين الذين يشرعون للناس بغير ما أنزل الله.

---

(١) انظر أعلام الموقعين لابن القيم ٣/٢٠٧ والحديث سبق تخريجه.

٢) تصحيح مفهوم العبادة وأنه مفهوم شامل كامل وليس مجرد شعائر تؤدى بينما نظام الحياة والممات قائم على مناهج وضعها البشر تفصل بين الدين والدولة، وبين الدين والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية.

فالعبادة هي عقيدة وشريعة ونظام حياة. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

٣) تربية جيل على منهاج الكتاب والسنة. لأن هذا هو الطريق الصحيح الذي به ترجع الأمة إلى ربها ودينها.

٤) طرد آثار الغزو الفكري وذلك بتعرية الجاهلية الحديثة، وتمزيق زيفها وبهرجتها فتبين انحرافاتها مع إيجاد البديل الإسلامي الصحيح.

٥) تعميق قضية ولاء المسلم للمسلم وانتمائه لإخوانه المؤمنين فقط، وخلع الولاءات الجاهلية من قومية وعرقية ووطنية وعالمية وغيرها فالمسلم أخو المسلم في أي بقعة كانت، دار الإسلام هي دار كل مسلم في جميع أنحاء الأرض.

ومن تاريخنا ما يشهد بكل جلاء على أهمية هذه القضية. فإن امرأة مسلمة أهينت بعمورية فاستغاثت، وامعتصماه. فقال المعتصم: لبيك أيتها المرأة المسلمة وجهز الجيوش وفتح عمورية ونصر المرأة المؤمنة، و لم يقل إنها في وطن وأنا في وطن بل انطلق من واقع مسئوليته كخليفة مسلم. كل الأمة المسلمة أمانة فى عنقه وهو مسئول عنها يوم يلقى الله.

ومن هنا فإن نصرة المسلمين المضطهدين في كل بقعة من بقاع الأرض أمر واجب تفرضه هذه العقيدة. ويكون واجب المؤمن – حينئذ – محبة هؤلاء المسلمين ومناصرتهم باليد واللسان والمال والنصرة في كل موطن ومناسبة.

٧) تعميق قضية المعاداة والبراءة من أعداء الله الكفار منهم والمشركين. والمنافقين والمرتدين. وأنه لا يجتمع إيمان في قلب مع حب للكفر وأهله كما قال تعالى:

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

والحرص على تمييز المسلم عن كل وضع وفكر يخالف كتاب الله وسنة رسوله ﷺ

٧) التأكيد على قضية عداوة أولياء الشيطان لأولياء الرحمن، فإن هذه العداوة قائمة منذ آدم عليه السلام إلى قيام الساعة فالحزبان لا يلتقيان أبدًا لأن حزب الله يريد دعوة الناس إلى عبادة الله وحزب الشيطان يدعو الناس إلى عبادة الطاغوت وطاعته، وقتال المؤمنين لصدهم عن دينهم:

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧].

٨) بعث الأمل وتقويته في النفوس بقرب نصر الله كما قال ﷺ: «لتقاتلن اليهود لتقتلنهم حتى يقول الحجر: يا مسلم هذا يهودي فتعال فاقتله»[1].

هذه رءوس أقلام تبين ملامح طريق الخلاص، وإذا صدق المسلمون مع الله وجدوا معية الله وعونه لهم، لأنهم الأعلون، وهم القائمون بأمر الله في أرض الله، ومن ثم فهم المستحقون لولاية الله وتكريمه لهم:

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس: ٦٢].

إنهم حزب الله وأكرم بذلك الحزب الذين يجاهدون لإعلاء كلمة الله ولا تأخذهم في الله لومة لائم ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: ٢٢].

ونحن مستبشرون بخير إن شاء الله، لأن طلائع وبشارات الجيل الإسلامي الجديد الذي يخلص الأمة من هذا الهوان والضياع والتبعية بادية ظاهرة في كل صقع من أصقاع الأرض، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

---

(١) صحيح مسلم كتاب أشراط الساعة ٤/٢٢٣٨ ح٢٩٢١.

فهرس الأحاديث

والآثار

فهرس الأحاديث والآثار

حسب الترتيب الهجائي

أول الحديث أو الأثر	الصفحة

فهرس الأعلام

فهرس الأعلام

المترجم لهم

فهرس المصادر والمراجع

فهرس المصادر والمراجع

حسب الحروف الهجائية

(أ)

١) القرآن الكريم.

٢) الابتعاث ومخاطره/ محمد لطفي الصباغ/ الطبعة الأولى سنة ١٣٩٨هـ/ المكتب الإسلامي.

٣) أبو بصير قمة في العزة الإسلامية/ محمد حسن بريغش/ الثانية سنة ١٣٩٧/ مكتبة الحرمين بالرياض.

٤) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر/ د. محمد حسين/ الثالثة سنة ١٣٩٢هـ دار النهضة العربية — بيروت.

٥) الإتقان في علوم القرآن/ جلال الدين السيوطي ت[1] سنة ٩١١هـ/ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم/ ١٩٧٤م الهيئة المصرية للكتاب.

٦) آثار الحرب في الفقه الإسلامي/ د. وهبة الزحيلي/ الثانية ١٣٨٥هـ.

٧) الاحتجاج بالقدر/ شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ت سنة ٧٢٨هـ/

(١) هذه الإشارة (ت) تعني أن المؤلف توفي سنة كذا...،

ط سنة ١٣٩٣هـ/ المكتب الإسلامي.

٨) أحكام أهل الذمة/ للعلامة محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية ت سنة ٥٧١هـ تحقيق صبحي الصالح/ الأولى سنة ١٣٨١هـ جامعة دمشق.

٩) أحكام القرآن/ لأبي بكر محمد بن عبد الله بن العربي ت سنة ٥٤٣هـ تحقيق علي البجاوي/ ط سنة ١٣٩٢هـ عيسى الحلبي.

١٠) أحكام القرآن/ لأبي بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص ت سنة ٣٧٠هـ تحقيق محمد قمحاوي/ الثانية/ دار المصحف بالقاهرة.

١١) الأدب المفرد/ للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ت سنة ٢٥٦هـ ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي/ الأولى سنة ١٣٧٥هـ السلفية بمصر.

١٢) الأربعون النووية/ للإمام يحيى بن شرف الدين النووي ت سنة ٦٧٦هـ/ الثانية سنة ١٩٧٣م مطابع قطر الوطنية.

١٣) إرشاد الطالب للشيخ سليمان بن سحمان ت سنة ١٣٤٩هـ الأولى سنة ١٣٤٠هـ مطبعة المنار مصر.

١٤) أزمة العصر/ د. محمد محمد حسين/ الأولى سنة ١٣٩٩هـ/ دار عكاظ جدة.

١٥) أساليب الغزو الفكري/ د. علي جريشة وزميله/ الثانية سنة ١٣٩٨هـ/ دار الاعتصام – القاهرة.

١٦) أسباب النزول/ لأبي الحسين علي بن أحمد الواحدي ت سنة ٤٦٨/ الثانية سنة ١٣٨٧هـ مصطفى الحلبي مصر.

١٧) الاستيعاب في أسماء الأصحاب/ لأبي عمر يوسف بن عبد البر/ ت سنة ٣٦٣

هـ/ الأولى سنة ١٣٢٨هـ/ مطبعة السعادة بمصر.

١٨) الأسس الأخلاقية/ لأبي الأعلى المودودي ت سنة ١٣٩٩هـ الأولى ١٩٧١م/ مؤسسة الرسالة – بيروت.

١٩) الإسلام على مفترق الطرق/ محمد أسد/ ترجمة عمر فروخ/ الثامنة سنة ١٩٧٤م دار العلم للملايين – بيروت.

٢٠) الإسلام في حل مشاكل المجتمعات الإسلامية المعاصرة/ د. محمد البهي/ الثانية سنة ١٣٩٨هـ/ مكتبة وهبة بالقاهرة.

٢١) الإسلام وأوضاعنا القانونية/ عبد القادر عودة/ الثانية سنة ١٣٨٦هـ/ مؤسسة الرسالة – بيروت.

٢٢) الإسلام والطاقات المعطلة/ الشيخ محمد الغزالي/ الثانية سنة ١٣٨٣هـ/ دار الكتب الحديثة – مصر.

٢٣) الإسلام ومشكلات الحضارة للأستاذ سيد قطب/ ت سنة ١٩٦٦م/ دار الشروق.

٢٤) الإصابة في تمييز الصحابة/ للإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني/ ت سنة ٨٥٢هـ/ الأولى سنة ١٣٢٨هـ/ السعادة بمصر.

٢٥) الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار/ لأبي محمد بن موسى الحازمي الهمذاني ت سنة ٥٨٤هـ تحقيق راتب أحاكمي الطبعة الأولى سنة ١٣٨٦هـ الناشر راتب أحاكمي.

٢٦) الاعتصام/ للإمام أبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي/ ت سنة ٧٩٠هـ المكتبة التجارية – مصر.

٢٧) الاعتقاد على مذهب السلف لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي/ ت سنة ٤٥٨ هـ تحقيق أحمد مرسي/ الأولى سنة ١٣٨٠هـ.

٢٨) الأعلام/ خير الدين الزركلي/ الرابعة سنة ١٩٧٩م/ دار العلم للملايين – بيروت.

٢٩) أعلام السنة المنشورة للشيخ حافظ الحكمي/ ت سنة ١٣٧٧هـ/ الثالثة سنة ١٣٩٩هـ دارات البحوث العلمية بالرياض.

٣٠) أعلام الموقعين لابن القيم تحقيق طه عبد الرءوف سعد ط ١٩٧٣م/ تصوير دار الجيل – بيروت.

٣١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن القيم/ تحقيق محمد حامد الفقي/ الثانية سنة ٣٩٥هـ تصوير دار المعرفة – بيروت.

٣٢) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم لابن تيمية تحقيق محمد حامد الفقي/ الثانية سنة ١٣٦٩هـ مطبعة أنصار السنة بالقاهرة.

٣٣) أقضية الرسول ﷺ/ عبد الله بن محمد بن فرج المالكي/ الناشر حمد بن فالح آل ثاني.

٣٤) أمثال القرآن/ لابن القيم/ تحقيق د.ناصر الرشيد/ الأولى سنة ١٤٠٠هـ/ دار مكة للطباعة.

٣٥) الأموال/ لأبي عبيد القاسم بن سلام/ ت سنة ٢٢٤ تحقيق د. محمد خليل هراس/ الثانية ١٣٩٥هـ/ مكتبة الكليات الأزهرية.

٣٦) الإنسان ين المادية والإسلام للأستاذ محمد قطب/ الخامسة سنة ١٣٩٨هـ دار الشروق.

٣٧) الإيضاح والتبيين: حمود التويجري/ الأولى سنة ١٣٨٤هـ مؤسسة النور بالرياض.

٣٨) الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية/ الثانية سنة ١٣٩٢هـ المكتب الإسلامي.

٣٩) الإيمان. حقيقته. أركانه. نواقضه/ د. محمد نعيم ياسين/ الأولى سنة ١٣٩٨هـ. جمعية عمال المطابع. الأردن.

٤٠) الإيمان لأبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة/ ت سنة ٢٣٥هـ تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني سنة ١٣٨٥هـ المطبعة العمومية بدمشق.

(ب)

٤١) بدائع الفوائد/ للعلامة ابن القيم/ إدارة الطباعة المنيرية بالقاهرة.

٤٢) البداية والنهاية للحافظ إسماعيل عماد الدين بن كثير/ ت سنة ٧٧٤هـ/ ط سنة ١٩٦٦م (مكتبة المعارف – بيروت).

٤٣) بضع رسائل في عقائد الإسلام/ للشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب/ ت سنة ١٢٠٦هـ/ تحقيق محمد رشيد رضا/ الأولى سنة ١٣٤٩هـ المنار بمصر.

٤٤) بروتوكولات حكماء صهيون/ ترجمة محمد خليفة التونسي/ الرابعة/ دار الكتاب العربي – بيروت.

٤٥) بيان النجاة والفكاك من موالاة المرتدين وأهل الإشراك/ للشيخ حمد بن عتيق ت سنة ١٣٠١هـ/ الطبعة الرابعة سنة ١٣٨٣هـ/ دار الفكر/ بيروت.

(ت)

٤٦) تاريخ الأمم والملوك/ للإمام محمد بن جرير الطبري ت سنة ٣١٠هـ تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم/ الثانية ١٣٨٧هـ/ دار المعارف – مصر.

٤٧) التبيان في أقسام القرآن/ لابن القيم/ تعليق طه يوسف شاهين/ مكتبة القاهرة – مصر.

٤٨) تحفة الإخوان بما جاء في الموالاة والمعاداة والهجران/ للشيخ حمود التويجري الأولى سنة ١٣٨٣هـ/ مؤسسة النور بالرياض.

٤٩) التحفة العراقية/ لشيخ الإسلام ابن تيمية/ الثانية سنة ١٣٩٩هـ/ المطبعة السلفية بالقاهرة.

٥٠) تحكيم القوانين للشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ/ ت سنة ١٣٨٩هـ طبع سنة ١٣٨٠هـ/ مطابع الثقافة بمكة.

٥١) التدمرية لشيخ الإسلام ابن تيمية/ تحقيق زهير الشاويش/ الطبعة الثانية سنة ١٣٩١هـ/ المكتب الإسلامي.

٥٢) تذييل على كشف الشبهات للشيخ عبد الرحمن الدوسري/ الثالثة سنة ١٣٨٨/ مؤسسة النور بالرياض.

٥٣) التشريع الجنائي/ للأستاذ عبد القادر عودة/ الثالثة سنة ١٣٨٣هـ/ مكتبة دار العروبة – بمصر.

٥٤) التصوير الفني في القرآن/ سيد قطب/ الطبعة الشرعية الرابعة سنة ١٣٩٨هـ/ دار الشروق.

٥٥) التطور والثبات في حياة البشر/ للأستاذ محمد قطب ط سنة ١٣٩٤هـ دار الشروق.

٥٦) تعجيل المنفعة لابن حجر/ طبع هاشم اليماني.

٥٧) التعليق المغني على الدارقطني/ عبد الله هاشم اليماني/ ط سنة ١٣٨٦هـ.

٥٨) التفسير القيم لابن القيم/ جمع محمد أويس الندوي/ تحقيق محمد حامد الفقي/ تصوير لجنة التراث – بيروت.

٥٩) تفسير كلام المنان/ للشيخ عبد الرحمن بن سعدي تحقيق محمد زهري النجار/ المؤسسة السعدية بالرياض.

٦٠) تفسير سورة النور/ لابن تيمية/ الأولى سنة ١٣٩٧هـ/ مكتبة المنار الإسلامية بالكويت.

٦١) تفسير البغوي المعروف بـ«معالم التنزيل» لأبي محمد الحسين بن مسعود الفرا البغوي/ ت سنة ٥١٦هـ/ الثانية سنة ١٣٧٥هـ/ مطبعة الحلبي بمصر.

٦٢) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير/ تحقيق عبد العزيز غنيم وعاشور والبنا/ مطبعة الشعب.

٦٣) تفسير الخازن المسمى «لباب التأويل في معاني التنزيل»/ لعلاء الدين علي بن محمد الخازن/ ت سنة ٧٢٥هـ الثانية سنة ١٣٧٥هـ مصطفى الحلبي بمصر.

٦٤) تقريب التهذيب/ لابن حجر تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف. طبع مصر.

٦٥) تلبيس إبليس لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي/ ت سنة ٥٩٧ تحقيق خير الدين علي/ دار الوعي – بيروت.

٦٦) تلخيص المستدرك لأبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي/ ت سنة ٨٤٨ مطبوع مع المستدرك.

٦٧) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع لأبي الحسين محمد بن أحمد الملطي/ ت سنة ٣٧٧هـ/ تحقيق محمد زاهد الكوثري/ الثانية سنة ١٣٨٨ مكتبة المثنى ببغداد.

٦٨) تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني/ الأولى سنة ١٣٢٦هـ بحيدر آباد/ تصوير دار صادر – بيروت.

٦٩) تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد للشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد ابن عبد الوهاب ت سنة ١٢٣٣هـ ط إدارات البحوث العلمية في الرياض.

(ج)

٧٠) جامع الأصول/ لمجد الدين أبي السعادات المبارك محمد بن الأثير ت سنة ٦٠٦هـ تحقيق عبد القادر الأرناؤوط/ الأولى سنة ١٣٨٩هـ. مكتبة الحلواني والملاح ببيروت.

٧١) جامع البيان عن تأويل القرآن (تفسير الطبري) لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري/ الثالثة سنة ١٣٨٨هـ مصطفى الحلبي.

٧٢) الجامع الفريد/ مجموعة من علماء الدعوة/ مطبعة المدينة بالرياض.

٧٣) جامع العلوم والحكم لأبي الفرج عبد الرحمن بن رجب الحنبلي ت سنة ٧٩٥ هـ الثالثة سنة ١٣٨٢هـ مصطفى الحلبي.

٧٤) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي ت سنة ٦٧١هـ تحقيق أبو إسحاق أطفيش/ تصوير عن طبعة دار الكتب سنة ١٣٨٧هـ. دار الكتاب العربي القاهرة.

٧٥) الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي/ د. محمد البهي/ الخامسة سنة ١٣٩١هـ. دار الفكر ببيروت.

٧٦) جاهلية القرن العشرين للأستاذ محمد قطب/ ط سنة ١٣٩٤هـ دار الشروق.

٧٧) جذور البلاء/ للأستاذ عبد الله التل/ الثانية سنة ١٣٩٨هـ/ المكتب الإسلامي.

٧٨) جريدة عكاظ/ العدد الأسبوعي رقم ٤٧٢٨ في ١٦/٦/١٣٩٩هـ.

٧٩) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لشيخ الإسلام ابن تيمية/ تصوير مطابع المجد بالرياض.

٨٠) الجواب الكافي لابن القيم/ الأولى سنة ١٣٩٤هـ المكتبة السلفية بالقاهرة.

(ح)

٨١) حد الإسلام وحقيقة الإيمان/ للأستاذ عبد المجيد الشاذلي. مكتوب بالأدلة الكاتبة.

٨٢) حصاد الغرور/ للشيخ محمد الغزالي/ الأولى سنة ١٣٩٠هـ/ دار البيان بالكويت.

٨٣) حصوننا مهددة من داخلها/ د محمد محمد حسين/ الرابعة سنة ١٣٩٧هـ المكتب الإسلامي.

٨٤) الحضارة الإسلامية. أسسها ومبادؤها للمودودي/ الطبعة الثانية سنة ١٣٩٠ هـ/ دار العربية – بيروت.

٨٥) الحكم الجديرة بالإذاعة لابن رجب (ضمن مجموع) تحقيق محمد حامد الفقي مطبعة أنصار السنة.

٨٦) حلية الأولياء/ للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني/ ت سنة ٤٣٠هـ/ المكتبة السلفية.

٨٧) الحوادث والبدع/ لأبي بكر محمد بن الوليد الطرطوشي ت سنة ٥٢٠هـ/ تحقيق محمد الطالبي/ دار الأصفهاني بجدة.

٨٨) حياة الصحابة/ للشيخ محمد يوسف الكاندهلوي/ دار المعرفة – بيروت.

(خ)

٨٩) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته للأستاذ سيد قطب/ دار الشروق.

٩٠) خاطرات جمال الدين الأفغاني/ اختيار عبد العزيز سيد الأهل/ الناشر دار حراء بالقاهرة.

٩١) دراسات قرآنية للأستاذ/ محمد قطب/ دار الشروق.

٩٢) الدرر السنية في الأجوبة النجدية جمع الشيخ عبد الرحمن بن قاسم/ الثانية سنة ١٣٨٥هـ دار الإفتاء بالرياض.

٩٣) درس النكبة الثانية/ د. يوسف القرضاوي/ الأولى سنة ١٣٨٨هـ.

٩٤) الدفاع عن أهل السنة والإتباع/ للشيخ حمد بن عتيق/ نشرها إسماعيل بن عتيق. بدون تاريخ.

٩٥) دقائق التفسير لابن تيمية/ جمع وتحقيق د. محمد السيد الجليند/ الأولى سنة ١٣٩٨هـ. دار الأنصار بالقاهرة.

٩٦) دمروا الإسلام أبيدوا أهله/ جلال العالم/ الطبعة الثانية ١٣٩٥هـ.

٩٧) دور الإسلام في حياة البشرية/ محمد قطب/ الطبعة الثانية سنة ١٣٩٩هـ المختار الإسلامي بالقاهرة.

(ر)

٩٨) رد ابن حزم على ابن النفريلة اليهودي/ تحقيق حسان عباس/ سنة ١٣٨٠هـ/ دار العروبة بالقاهرة.

٩٩) ردة ولا أبا بكر لها لأبي الحسن الندوي/ الثالثة سنة ١٣٩٨هـ المختار الإسلامي بالقاهرة.

١٠٠) الردة بين الأمس واليوم. محمد كاظم جبيب/ الأولى سنة ١٣٩٨هـ المكتبة العلمية بلاهور باكستان.

١٠١) الرسائل المنيرية/ مجموعة من العلماء/ المطبعة المنيرية بالقاهرة.

١٠٢) الرسائل المفيدة للشيخ/ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن تصحيح عبد الرحمن الرويشد/ ط سنة ١٣٩٨هـ دار العلوم بالقاهرة.

١٠٣) الرسائل التبوكية لابن القيم/ الثانية سنة ١٣٩٤هـ/ المكتبة السلفية بالقاهرة.

١٠٤) رياض الصالحين للنووي/ تحقيق الألباني/ الأولى سنة ١٣٩٩هـ المكتب الإسلامي.

١٠٥) زاد المعاد في هدي خير العباد للعلاّمة ابن القيم/ تحقيق شعيب الأرناؤوط وأخيه/ الأولى سنة ١٣٩٩هـ. مؤسسة الرسالة – بيروت.

(س)

١٠٦) سبيل الدعوة الإسلامية/ د. محمد أمين المصري/ الأولى سنة ١٤٠٠هـ/ دار الأرقم بالكويت.

١٠٧) سلسلة الأحاديث الصحيحة/ محمد ناصر الدين الألباني/ الثانية سنة ١٣٩٩

المكتب الإسلامي.

١٠٨) سنن ابن ماجه/ للحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني/ ت سنة ٢٧٥ هـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي/ ط سنة ١٣٩٥هـ تصوير دار إحياء التراث العربي – بيروت.

١٠٩) سنن أبي داود/ للإمام أبو داود سليمان الأشعث السجستاني/ ت سنة ٢٧٥ هـ تحقيق وتعليق عزت الدعاس الأولى سنة ١٣٩١هـ الناشر محمد علي السيد سوريا.

١١٠) سنن الترمذي/ الإمام محمد بن عيسى الترمذي/ ت سنة ٢٧٩هـ/ تعليق عزت الدعاس/ ط سنة ١٣٨٥هـ دار الدعوة. حمص.

١١١) سنن الدارقطني/ الإمام علي بن عمر الدارقطني/ ت سنة ٣٨٥/ نشر عبد الله هاشم اليماني سنة ١٣٨٦هـ.

١١٢) سنن الدارمي/ لأبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي/ ت سنة ٢٥٥هـ طبع بعناية محمد أحمد دهمان/ دار إحياء السنة النبوية. تصوير الباز بمكة.

١١٣) السنن الكبرى للإمام أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي/ تصوير دار الفكر ببيروت.

١١٤) سنن النسائي للإمام أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي/ ت سنة ٣٠٣ هـ/ الأولى سنة ١٣٤٨هـ تصوير دار الفكر – بيروت.

١١٥) السنة للإمام أحمد بن حنبل/ ت سنة ٢٤١هـ/ تصحيح الشيخ إسماعيل الأنصاري/ إدارات البحوث العلمية بالرياض.

١١٦) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي/ د. مصطفى السباعي/ الثانية سنة

١٣٩٦هـ المكتب الإسلامي.

١١٧) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية لشيخ الإسلام ابن تيمية/ ط سنة ١٣٧٩ الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

١١٨) سيرة الرسول ﷺ/ للأستاذ محمد عزة دروزة/ الثالثة سنة ١٤٠٠هـ/ مؤتمر السيرة الثالث بقطر.

١١٩) السيرة النبوية/ للإمام عبد الملك بن هشام/ ت سنة ٢١٨هـ/ تحقيق مصطفى السقا وآخرون/ الأولى سنة ١٣٥٥هـ/ مصطفى الحلبي.

(ش)

١٢٠) شذرات البلاتين/ مجموعة من العلماء/ تحقيق محمد حامد الفقي/ الأولى سنة ١٣٧٥هـ/ مطبعة أنصار السنة بالقاهرة.

١٢١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب/ عبد الحي بن العماء الحنبلي/ ت سنة ١٠٨٩هـ تصوير عن الطبعة الأولى/ دار الآفاق – بيروت.

١٢٢) شرح السنة للإمام الحسين بن مسعود البغوي/ ت سنة ٥١٦هـ تحقيق شعيب الأرناؤوط/ الطبعة الأولى سنة ١٣٩١هـ المكتب الإسلامي.

١٢٣) شرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي/ ط ٤ سنة ١٣٩١هـ المكتب الإسلامي.

١٢٤) شرح النووي على صحيح مسلم/ للإمام يحيى بن شرف النووي/ الثانية سنة ١٣٩٢/ تصوير دار الفكر – بيروت.

١٢٥) الشريعة لأبي بكر محمد بن الحسين الآجري/ ت سنة ٣٦٠هـ/ تحقيق محمد

حامد الفقي/ الأولى سنة ١٣٦٩هـ مطبعة أنصار السنة.

١٢٦) الشعوبية الجديدة/ محمد مصطفى رمضان/ الأولى سنة ١٣٨٩هـ.

(ص)

١٢٧) الصارم المسلول على شاتم الرسول/ لشيخ الإسلام ابن تيمية/ تحقيق محيي الدين عبد الحميد/ الأولى سنة ١٣٧٩هـ مكتبة تاج بالقاهرة.

١٢٨) صحيح البخاري للإمام محمد بن إسماعيل البخاري/ ت سنة ٢٥٦هـ ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي/ الأولى سنة ١٣٨٠هـ السلفية بمصر.

١٢٩) صحيح الجامع الصغير/ للشيخ محمد ناصر الدين الألباني/ الأولى سنة ١٣٨٨ المكتب الإسلامي.

١٣٠) صحيح مسلم/ للإمام مسلم بن الحجاج القشيري/ ت سنة ٢٦١هـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي/ الأولى سنة ١٣٧٤هـ/ دار إحياء الكتب العربية – القاهرة.

١٣١) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية لأبي الحسن الندوي/ الثالثة سنة ١٣٩٧هـ دار القلم بالكويت.

١٣٢) الصلاة لابن القيم/ الثانية سنة ١٣٩١هـ/ المكتبة السلفية بالقاهرة.

١٣٣) صيد الخاطر لابن الجوزي/ تحقيق علي وناجي الطنطاوي/ الثانية سنة ١٣٩٨/ دار الفكر – بيروت.

١٣٤) طبقات الحنابلة لأبي الحسين محمد بن أبي يعلى ت سنة ٤٥٨هـ تحقيق محمد حامد الفقي/ سنة ١٣٧١هـ مطبعة أنصار السنة.

١٣٥) طريق الدعوة في ظلال القرآن/ جمع أحمد فائز/ الثالثة سنة ١٣٩٧.

١٣٦) طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن القيم/ الأولى سنة ١٣٧٥هـ/ المكتبة السلفية بالقاهرة.

١٣٧) ضعيف الجامع الصغير وزيادته/ للألباني/ الثانية سنة ١٣٩٩هـ/ المكتب الإسلامي.

(ع)

١٣٨) العبودية/ لشيخ الإسلام ابن تيمية/ الرابعة سنة ١٣٩٧هـ/ المكتب الإسلامي.

١٣٩) العرب والإسلام لأبي الحسن الندوي/ الثانية سنة ١٣٨٩هـ المكتب الإسلامي.

١٤٠) عصور المأمون/ د. أحمد مزيد رفاعي/ الثانية سنة ١٣٤٦هـ/ دار الكتب المصرية.

١٤١) العقيدة الطحاوية لأبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي/ ت سنة ٣٢١هـ/ الرابعة ١٣٩١هـ المكتب الإسلامي.

١٤٢) العقيدة في الله للأستاذ عمر سليمان الأشقر/ الأولى سنة ١٣٩٩هـ/ مكتبة الفلاح بالكويت.

١٤٣) العقيدة الواسطية لابن تيمية بشرح الهراس الطبعة الثالثة سنة ١٣٨٦هـ/ المكتبة السلفية بالمدينة.

١٤٤) علماء نجد خلال ستة قرون/ عبد الله بن عبد الرحمن البسام/ الأولى ١٣٩٨ هـ/ مكتبة النهضة بمكة.

١٤٥) العلاقات الدولية في الإسلام/ محمد أبو زهرة/ ط سنة ١٣٨٤هـ/ الدار

القومية للطباعة – مصر.

١٤٦) العلمانية وآثارها في العالم الإسلامي للأستاذ سفر عبد الرحمن الحوالي رسالة ماجستير مكتوبة بالآلة الكاتبة.

(غ)

١٤٧) الغارة على العالم الإسلامي/ ترجمة محب الدين الخطيب ومساعد اليافي/ الثانية سنة ١٣٨٧هـ/ منشورات العصر الحديث.

١٤٨) غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام للألباني/ الأولى سنة ١٤٠٠هـ المكتب الإسلامي.

(ف)

١٤٩) الفتاوى السعدية للشيخ عبد الرحمن بن عدي/ الأولى سنة ١٣٨٨هـ/ دار الحياة – دمشق.

١٥٠) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني/ الأولى سنة ١٣٨٠ هـ/ السلفية بمصر.

١٥١) الفتح الرباني شرح مسند الإمام أحمد/ لأحمد بن عبد الرحمن الساعاتي/ تصوير دار إحياء التراث ببيروت.

١٥٢) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد/ للشيخ عبد الرحمن بن حسن/ ت سنة ١٢٨٥هـ/ ط السابعة سنة ١٣٧٧هـ/ مطبعة أنصار السنة.

١٥٣) الفرق بين الفِرَق/ عبد القاهر البغدادي/ ت سنة ٤٢٩هـ/ تحقيق محيي الدين عبد الحميد/ ط محمد علي صبيح – بالقاهرة.

١٥٤) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لابن تيمية/ الرابعة سنة ١٣٩٧هـ المكتب الإسلامي.

١٥٥) فقه السيرة/ للشيخ محمد الغزالي/ مطابع علي بن علي بقطر.

١٥٦) الفكر الإسلامي المعاصر (دراسة وتقويم) للأستاذ غازي التوبة/ الثانية ١٩٧٧م دار القلم – بيروت.

١٥٧) فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام للأستاذ صالح العبود رسالة ماجستير بالآلة الكاتبة.

١٥٨) الفوائد لابن القيم/ الثالثة سنة ١٣٩٦هـ/ مكتبة الجامعة بالقاهرة.

١٥٩) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب/ الطبعة المشروعة/ دار الشروق.

١٦٠) القاموس المحيط/ محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ت سنة ٨١٧هـ/ الثالثة سنة ١٣٠١هـ المطبعة الأميرية ببولاق.

١٦١) قصص الأنبياء لابن كثير/ تحقيق د. مصطفى بعد الواحد/ الأولى سنة ١٣٨٨ هـ دار الكتب الحديثة – مصر.

١٦٢) القصيدة النونية لابن القيم/ ط سنة ١٣٩٨هـ/ إدارة ترجمان السنة بلاهور/ باكستان.

١٦٣) قطر الولي/ للعلامة محمد بن علي الشوكاني/ ت سنة ١٢٥٠هـ/ تحقيق إبراهيم هلال/ الأولى سنة ١٣٨٩هـ دار الكتب الحديثة.

(ك)

١٦٤) كتاب التوحيد: للشيخ محمد بن عبد الوهاب طبع مع فتح المجيد/ تحقيق محمد

حامد الفقي السابعة سنة ١٣٧٧هـ/ مطبعة أنصار السنة.

١٦٥) كشف الشبهات/ للشيخ محمد بن عبد الوهاب الثالثة سنة ١٣٨٨هـ/ مؤسسة النور بالرياض.

١٦٦) كفاح دين للشيخ محمد الغزالي/ الثالثة سنة ١٣٨٥هـ/ دار الكتب الحديثة – مصر.

١٦٧) الكفر والمكفرات/ أحمد عز الدين البيانوني/ ط سنة ١٣٩٥هـ/ مكتبة الهدى بحلب.

١٦٨) الكلمات النافعة للشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب/ ت سنة ١٢٣٣ هـ/ الثانية/ المطبعة السلفية بالقاهرة.

١٦٩) كلمة الإخلاص للإمام عبد الرحمن بن رجب تحقيق زهير الشاويش والألباني/ الرابعة سنة ١٣٩٧هـ المكتب الإسلامي.

(ل)

١٧٠) لسان العرب/ محمد بن مكرم بن منظور/ ت سنة ٧١١هـ تصنيف يوسف خياط والمرعشلي سنة ١٣٨٩هـ/ دار لسان العرب – بيروت.

١٧١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان للشيخ محمد فؤاد عبد الباقي/ تصوير المكتبة الإسلامية – بيروت.

(م)

١٧٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبي الحسن الندوي/ العاشرة سنة ١٣٩٤ مطابع قطر.

١٧٣) مؤلفات الإمام محمد بن عبد الوهاب/ نشرتها جامعة الإمام محمد بن سعود/ الطبعة الأولى سنة ١٣٩٨هـ الرياض.

١٧٤) ما هي علاقة الأمة المسلمة بالأمم الأخرى للأستاذ أحمد محمود الأحمد/ الأولى سنة ١٣٩٨هـ المكتب الإسلامي.

١٧٥) مبادئ الإسلام/ للمودودي/ ط سنة ١٣٩٧هـ مؤسسة الرسالة – بيروت.

١٧٦) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي/ ت سنة ٨٠٧/ الثانية ١٩٦٧م تصوير دار الكتاب – بيروت.

١٧٧) مجلة رابطة العالم الإسلامي الشهرية العدد الخامس/ جمادى الأولى سنة ١٤٠١ هـ.

١٧٨) مجلة العربي الكويتية العدد ٢٦٧ – ربيع أول سنة ١٤٠١هـ.

١٧٩) مجلة المجتمع الكويتية العدد ٤٥٠.

١٨٠) مجموع/ لابن تيمية/ الطبعة الأولى سنة ١٣٤٩هـ/ مطبعة المنار بمصر.

١٨١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية جمع عبد الرحمن بن قاسم/ مطبعة الحكومة سنة ١٣٨١هـ الرياض.

١٨٢) مجموعة التوحيد لابن تيمية وابن عبد الوهاب/ ط سنة ١٩٧٨م دار الفكر بالقاهرة.

١٨٣) مجموعة التوحيد النجدية/ مجموعة من العلماء/ ط سنة ١٣٨٤هـ مطبعة الحكومة[1].

(١) هذه المجموعة والتي قبلها لا تتفقان إلا في خمس رسائل مكررة فيهما وبقية الرسائل مختلفة =

١٨٤) مجموعة رسائل ابن عتيق/ للشيخ سعد بن عتيق/ ت سنة ١٣٤٩هـ/ ط سنة ١٩٧٩م/ دار الاعتصام بالقاهرة.

١٨٥) مجموعة الرسائل والمسائل النجدية/ مجموعة من علماء الدعوة/ تحقيق محمد رشيد رضا/ الأولى سنة ١٣٤٦هـ مطبعة المنار بمصر.

١٨٦) محاسن التأويل للشيخ محمد جمال الدين القاسمي/ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي/ الأولى سنة ١٣٧٦هـ دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة.

١٨٧) المحلي لأبي محمد علي بن أحمد بن حزم/ ت سنة ٤٥٦هـ/ تحقيق حسن زيدان طلبة/ ط سنة ١٣٩٢هـ/ مكتبة الجمهورية بمصر.

١٨٨) مختار الصحاح/ محمد بن أبي بكر الرازي/ ط سنة ١٣٦٩هـ مصطفى الحلبي – القاهرة.

١٨٩) مختصر سنن أبي داود للحافظ عبد العظيم بن عبد القوي المنذري ت سنة ٦٥٦هـ تحقيق أحمد شاكر ومحمد حامد الفقي/ الأولى سنة ١٣٦٧هـ/ مطبعة أنصار السنة.

١٩٠) المخططات الصهيونية (محاضرة) للأستاذ محمد قطب/ الطبعة الأولى سنة ١٣٩٨هـ/ المختار الإسلامي بالقاهرة.

١٩١) مدارج السالكين لابن القيم/ تحقيق محمد حامد الفقي/ الأولى سنة ١٣٧٥ هـ/ مطبعة أنصار السنة.

١٩٢) مذكرة المذاهب الفكرية المعاصرة إملاءات للأستاذ محمد قطب لطلاب السنة المنهجية بالدراسات العليا. بمكة سنة ١٣٩٩/٩٨هـ.

=عن بعضها البعض.

١٩٣) مسائل الإمام أحمد/ رواية إسحاق بن إبراهيم بن هانئ تحقيق زهير الشاويش/ الطبعة الأولى سنة ١٤٠٠/ المكتب المصري.

١٩٤) المسائل الماردينية لابن تيمية/ تحقيق الشاويش/ الثالثة سنة ١٣٩٩هـ. المكتب الإسلامي.

١٩٥) المستدرك للإمام أبي عبد الله الحاكم النيسابوري/ ت سنة ٤٠٥هـ/ ط سنة ١٣٩٨هـ تصوير دار الفكر – بيروت.

١٩٦) المستقبل لهذا الدين للأستاذ سيد قطب/ ط سنة ١٣٩٨هـ دار الشروق.

١٩٧) المسند للإمام أحمد بن حنبل/ الطبعة الثانية سنة ١٣٩٨هـ. المكتب الإسلامي.

١٩٨) المسند للإمام أحمد بن حنبل تحقيق أحمد شاكر/ الطبعة الرابعة سنة ١٣٧٣هـ دار المعارف بمصر.

١٩٩) مشكاة المصابيح/ محمد بن عبد الخطيب التبريزي تحقيق الألباني/ الثانية سنة ١٣٩٩هـ المكتب الإسلامي.

٢٠٠) المصباح المنير/ أحمد بن محمد المقري الفيومي/ ت سنة ٧٧٠هـ/ ط سنة ١٣٩٨هـ. دار الكتب العلمية.

٢٠١) معارج القبول للشيخ حافظ الحكمي/ ت سنة ١٣٧٧هـ/ الطبعة الأولى/ تصوير إدارات البحوث العلمية بالرياض.

٢٠٢) المعارف لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة/ ت سنة ٢٧٦هـ/ تحقيق ثروت عكاشة/ الثانية سنة ١٣٨٨هـ/ دار المعارف.

٢٠٣) معالم السنن/ للإمام حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي/ ت سنة ٣٨٨هـ/ تحقيق أحمد شاكر ومحمد حامد الفقي. الأولى سنة ١٣٧٩هـ مطبعة أنصار السنة.

٢٠٤) معالم في الطريق للأستاذ سيد قطب/ دار الشروق.

٢٠٥) المعجم المفهرس لألفاظ الحديث/ ترتيب لفيف من المستشرقين/ الأولى سنة ١٩٣٦م/ نشره د. أي ونسنك.

٢٠٦) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم/ محمد فؤاد عبد الباقي. تصوير دار إحياء التراث العربي.

٢٠٧) مصعب بن عمير الداعية المجاهد للأستاذ محمد بريغش/ الثالثة سنة ١٣٩٥هـ دار القلم ز — بيروت.

٢٠٨) المغني لأبي محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة/ ت سنة ٦٢٠هـ/ تحقيق طه محمد الزيني/ ط سنة ١٣٩٠هـ مكتبة القاهرة.

٢٠٩) مفتاح الصحيحين للحافظ محمد الشريف بن مصطفى/ الثانية سنة ١٣٩٥هـ تصوير دار الكتب العلمية.

٢١٠) مفتاح كنوز السنة/ د. أ. ي فنسنك ترجمة محمد فؤاد عبد الباقي/ ط سنة ١٣٩١هـ نشره سهيل أكديمي لاهور.

٢١١) المقاصد الحسنة للإمام محمد بن عبد الرحمن السخاوي/ ت سنة ٩٠٢هـ/ تعليق عبد الله الصديق/ ط سنة ١٣٩٥هـ مكتبة الخانجي.

٢١٢) مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري/ ت سنة ٣٣٠هـ/ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد/ الثانية سنة ١٣٨٩هـ مكتبة النهضة بالقاهرة.

٢١٣) مكائد يهودية عبر التاريخ/ للأستاذ عبد الرحمن الميداني/ الأولى سنة ١٣٩٤ هـ/ دار القلم – بيروت.

٢١٤) المنافقون في القرآن الكريم للأستاذ عبد العزيز الحميدي رسالة ماجستير بالآلة الكاتبة.

٢١٥) المنهاج في شعب الإيمان لأبي عبد الله الحسين الحسن الحليمي/ ت سنة ٤٠٣ هـ تحقيق حلمي فوده/ الأولى سنة ١٣٩٩هـ دار الفكر – بيروت.

٢١٦) منهج التربية الإسلامية للأستاذ محمد قطب الجزء الثاني ط سنة ١٤٠٠هـ/ دار الشروق.

٢١٧) منهج القرآن في التربية/ محمد شديد/ مؤسسة الرسالة – بيروت.

٢١٨) موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي/ ت سنة ٨٠٧ تحقيق محمد عبد الرزاق حمزة/ تصوير دار الكتب العلمية – بيروت.

٢١٩) موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول لابن تيمية تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ومحمد حامد الفقي. سنة ١٣٧٠هـ مطبعة السنة المحمدية.

٢٢٠) موسوعة العقاد/ عباس محمود العقاد/ ط سنة ١٣٩٠هـ دار الكتاب العربي – بيروت.

٢٢١) الموطأ للإمام مالك بن أنس/ ت سنة ١٧٩هـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي تصوير دار إحياء التراث – بيروت.

(ن)

٢٢٢) نظرية التربية الإسلامية للشيخ محمد الغزالي/ بحث مقدم لندوة التربية الإسلامية بمكة في ١١/٦/١٤٠٠هـ.

٢٢٣) النفاق آثاره ومفاهيمه للشيخ عبد الرحمن الدوسري/ الطبعة الأولى سنة ١٤٠٠هـ دار الأرقم بالكويت.

٢٢٤) النهاية في غريب الحديث/ لابن الأثير/ تحقيق طاهر الزاوي ومحمود الطناحي/ الأولى سنة ١٣٨٣هـ/ دار إحياء الكتب العربية.

٢٢٥) نيل الأوطار/ محمد بن علي الشوكاني/ الطبعة الأخيرة/ مصطفى الحلبي.

(هـ)

٢٢٦) هداية الباري ترتيب صحيح البخاري/ عبد الرحيم الطهطاوي/ الثالثة سنة ١٣٥٣هـ/ المكتبة التجارية – بالقاهرة.

٢٢٧) هداية الحيارى لابن القيم/ نشر الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

٢٢٨) الهدية الثمينة/ للشيخ عبد الله السليمان بن حميد/ الثانية سنة ١٣٧٤هـ/ دار مصر للطباعة – القاهرة.

٢٢٩) الهدية السنية/ جمع الشيخ سليمان بن سحمان/ تعليق رشيد رضا/ مطابع دار الثقافة بمكة.

٢٣٠) هذا ديننا/ للشيخ محمد الغزالي/ الثانية سنة ١٣٨٥هـ/ دار الكتب الحديثة – القاهرة.

٢٣١) هل نحن مسلمون/ للأستاذ محمد قطب/ ط سنة ١٣٩٨هـ/ دار الشروق.

فهرس الموضوعات

[illegible] سميح [illegible]

[illegible] الرحمن [illegible] الطبعة الأولى [illegible]

[illegible] في غريب الحديث والأثر / لابن الأثير / تحقيق طاهر الزاوي ومحمود الطناحي [illegible] المكتبة [illegible] ١٣٨٣هـ

[illegible] / مصطفى الحلبي [illegible]

[illegible]

[illegible] ترتيب صحيح [illegible] عبد الرحيم [illegible] الثالثة [illegible] التجارية — بالقاهرة.

[illegible] لابن [illegible] الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

[illegible] للشيخ عبد الله [illegible] الثانية سنة ١٣٧٢هـ [illegible]

[illegible] / جمع [illegible] / عطا [illegible]

[illegible] للشيخ محمد الغزالي / الثانية [illegible] دار [illegible]

فهرس الموضوعات

الباب الأول

مفهوم الولاء والبراء

الباب الثاني

من مقتضيات الولاء والبراء

الباب الثالث

الصور التطبيقية للولاء والبراء في الماضي والحاضر

